2
الطبعة

رواية

كمال رُحيّم

KAMAL RUHAYYIM

بور سعيد

PORT SAID

68

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بورسعيد ٦٨

كمال رحيم

عن الرواية..

إلى الغادة الحسناء.. بورسعيد.. وأهلها الذين عايشوني وعايشتهم..

وأحبوني وأحببتهم..

عزام بك مأمور قسم العرب، البطل مرسال، الشهيد حسام، النقيب عاطف، الرائد كرم غطاس، الحاج علام، تودري ألطف جرسون رأيته في حياتي، والغالي سليمان أو (سولي) كما كنا نناديه، المصري حتى النخاع روحا وقلبا وخفة ظل، وإن كانت أصوله فرنسية وأغلب أهله وأقاربه فرنسيون يعيشون في مدينة (ليون) وسائر أرجاء فرنسا.. استشهد هذا البطل دفاعا عن مصر في حرب التحرير..

على أرواحهم جميعا السلام..

وسلاما على شهداء حرب (73) وكل حرب، في سيناء وبورسعيد

وكل مصر..

وكل من شهد ماسي الحروب وتحمل منها ولو العبء الخفيف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

إلى الغادة الحسناء.. بورسعيد..

وأهلها الذين عايشوني وعايشتهم..

وأحبوني وأحببتهم..

عزام بك مأمور قسم العرب، البطل مرسال، الشهيد حسام، النقيب عاطف، الرائد كرم غطاس، الحاج علام، تودري ألطف جرسون رأيته في حياتي، والغالي سليمان أو (سولي) كما كنا نناديه، المصري حتى النخاع روحًا وقلبًا وخفة ظل، وإن كانت أصوله فرنسية وأغلب أهله وأقاربه فرنسيون خُلَصّ يعيشون في مدينة (ليون) وسائر أرجاء فرنسا..

استشهد هذا البطل دفاعًا عن مصر في حرب التحرير..

على أرواحهم جميعًا السلام..

وسلامًا على شهداء حرب (73) وكل حرب، في سيناء وبورسعيد

وكل مصر..

وكل من شهد مآسي الحروب وتحمل منها ولو العبء الخفيف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

عَمّ (تودري) ليس يونانيًّا مثلما تقول أوراقه الثُّبُوتيَّة..

فهذه الأوراقُ كاذبةٌ لا تقولُ الحق وظُلمٌ للرجل لو سايرناها، صحيح أنها تؤكد على أنه يونانيٌّ أبًا عن جَدّ، اسمه: تودري ميناس استفاليدس ومحل الميلاد حي (بلاكا) أحد أحياء مدينة (أثينا)، غير أن كل هذا لا معنى له، مجرد بيانات تخصُّ الدفاتر والسجلّات ليس إلّا! فالعم تودري واحد منّا، دمه من دمنا وطباعه هي طباعنا، الحَسَن منها والرديء، فَنَفْسُ الطيبة ونَفْس الحمية والشهامة وتصرفات أولاد البلد، ونَفْس الثرثرة أيضًا والحَلِف بالله بالحق والباطل أو دَسُّ الأنف فيما يخص الغير، وإحدى أمانيه أن تغور إسرائيل عن أرضنا، فقد كانت (مبادرة روجرز)[1] مثارَ حديثِ الناس في هذا الوقت، وهو يؤكد للواقفين معه:

- روجرز إيه ومبادرة إيه خبيبي! دي عمره ماهيمشِي بالذوق، لازم عافية وخناق علسان يتّأتأ من هنا.

فيقول له أحدهم:

- قصدك يتَّعتَع من هنا يا خواجة؟

- أيوه خبيبي هو الكلمة دي..

ثم يُشيح بضيقٍ مُراجِعًا هذا الذي تكلم:

- وبعدين إيه خواجة دي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءنا تودري محمولًا على صدر أُمِّه..

ابن أربع سنين ويستطيع المشي غير أنها أشفقت عليه من العِلَّة التي بقدمه اليُسرى، فاليسرى هذه أطول من اليُمنى بربع بوصة وجسده كله يرتكز عليها مع بداية كل خطوة، والمسكينة أُمّه تخدَّلت كتفها وعلى وجهها الإعياء من وزنه الثقيل، فمن يومه وهو بدين من قلة الحركة ونهمه في أكل البطاطس والنشويات، والفستان الذي ترتديه تفصيلته كتفصيلة الجلباب ويحيط بجسدها كما لو أنه لحافٌ أو ملاءةُ سرير، فلا دوران ولا كشكشة أو حَرْدَة أسفل الثدي أو تحت الباط، والأب البائس (ميناس) أمامها وفي عينيه نظرةٌ خابيةٌ لا تنشُد

سوى السلامة والستر، وقميص كاروهات يُرثَى له مشمور حتى منتصف الساعد، وبنطال كبير في السن مرفوع إلى منتصف البطن بفردتَيْ حمَّالات.

من ميناء (بيريه) ركبوا البحر، أمضوا قُرابَة يومٍ ونصف على ظهر باخرة تسير بالفحم والبخار، تسلطـحوا فوقـها (أون دِكْ) مع الغلابة والدَّهْماء ومَن يبحثون عن القُوت في بلدٍ غير بلدهم، إلى أن رَسَتْ بهم أمام شاطئ بورسعيد سنة 1916 أيام حكم السلطان حسين[2]، ومن يومها استوطن تودري عندنا ولا يعرف أرضًا غير أرضنا، يعرفها بالشبر والشوارع بالواحد، والبيوت هذا البيت الواسع المحترم بيت (لطفي باشا شبارة)، وهذه الڤيلَّا الفاخرة ملك عائلة (طِيرَه)، وهذه كنيسة الكاثوليك الطليان، وهذا جامع العباسي الذي تُعقد فيه المناسبات الدينية وهذا وهذا.. حتى أصحاب البقالات وأفران الخبز وعساكر المرور وباعة الجرائد والأكشاك التي تبيع الحلوى والمثلجات وسائر أصناف الدخان يعرفهم ويعرفونه بالاسم، وسواء في بورفؤاد حيث يعيش في بدروم إحدى العمارات أو حي الإفرنج محل عمله ولقمة عيشه.

تجاوز الخمسين ولم يغادر بورسعيد سوى أربع مرات، ثلاثٌ منها للإسكندرية في مناسبات فرح أو عزاء لأقارب يونانيِّين يعيشون هناك، والقاهرة مرة واحدة لاغير لحضورِ حفلٍ أُقيم في السفارة بمناسبة اندحار الجيش الإيطالي وفشله في غزو اليونان إبَّان الحرب العالمية الثانية[3]، وإن كانت اليونان هذه التي وُلِد بها هو كالسيَّاح بالنسبة إليها، وكل حصيلته عنها سمعها من أفواه الغير، من يونانيين مثله أو ربما من مصريين زاروها وحكوا له عنها.

لا يفترق هذا اليوناني عنَّا، سوى في لَكْنةٍ خفيفةٍ تعتري لسانه عندما يتكلم..

خواجة ينطق لغتنا بطلاقة لكنه غالبًا ما يخطئ ويؤنِّث المُذكَّر أو يتعامل مع المؤنث على أنه أحد الذكور، غير حرفَي (الشين) و(الحاء)، ينطق الأول (سين) والثاني على أنه (خاء)، وقد داخ معه جيرانه وأصحابه المصريون وكثيرًا ما قالوا له لائمين:

- يا عمِّنا شوف لك صِرْفَة مع لسانك، اسمها حبيبي مش خبيبي!

فيشيح في وجوههم قائلًا:

- بتقول إيه يا خبيبي مِنَّك له؟

يرمقونه ضاحكين:

- عُمْر معانا يا خواجة ومش عارف تنطقها!

- تاني خواجة! إيه الكلمة البايخ دي..

- ولا عمرنا حنبطّلها إلا لمَّا انت تبطّل كلمة خبيبي..

وبالطبع كان يعرف اليونانية، تعلَّمها من أبويه لكن بعد أن ماتا ومع كثرة اختلاطه بالمصريين هربت من لسانه، لم يتبقَّ منها سوى كلمات، كلمات كثيرة لا شَكَّ، لكنها مجرد كلمات فقد كان عاجزًا عن تكوين جملة مفيدة بلغته الأُمّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيناي كانتا تتابعانه كلما جئت إلى الچيانولا..

الچيانولا أشهر وأجمل مقهى في بورسعيد، ولست وحدي، أغلب رُوَّاد المقهى وبالذات القَدَامَى منهم كانوا يرتاحون لهذا الجرسون الجريجيّ اللطيف، ويحكون أن (لطفي باشا شبارة) أحد كبار بورسعيد في الخمسينيات والستينيات لم يكن يشرب القهوة إلا من يده، وتدور بينهما أحاديث طويلة كما لو أنه تجمعهما بعض الاهتمامات والأسرار.

وكنت أرمق بِنطالَهُ الأسود فلا أجد فيه غلطة، مشدود ونظيف والمقاس هو بالضبط مقاسه وليس كأغلب زملائه الذين لا يضعون هذه المسائل ضمن اهتماماتهم؛ كذلك الچاكت الذي يعلو البنطال بياضه يضوي وهيئته منضبطة وكأنه آتٍ حالًا من عند الكَوَّاء، وأسفل منه قميص ياقته زاهية وبابيونة سوداء.

بخطواته العرجاء يحمل صينية المشروبات متنقلًا من طاولةٍ إلى الثانية، وقبل أن يصُبَّ الشاي من البرَّاد الصيني الذي يتوسطها أو يلفَّ كنكة القهوة لفَّةً مدروسةً قبل أن يهبط بمحتواها في الفنجان، كان يرجع نصف خطوة إلى الوراء ويجفف يده بفوطة بيضاء تتدلى من جيب بنطاله، وهو يتمتم بترحيب:

- أحْلِنْ وسهلِنْ.. أحْلِنْ وسهلِنْ..

وساعة الحساب يقف للزبائن بأدب وابتسامةٍ تلوح من أسفل شاربه البلقاني الكثيف، وكنت ألحظ الأطفال وربما بعض النسوة وهم يُركِّزون في هذا الشارب بإعجاب؛ وبالذات في أطرافه الملفوفة والمرفوعة إلى أعلى على نحوٍ يثير الانتباه، ويَهشُّ الجميع في وجهه عندما ينصرفون أو يرمقونه برضا، ومنهم من يحاول مجاملته بقطعة نقود فيبدو عليه الخجل ولا يقبلها إلا إذا ألحُّوا عليه، ويحني رأسه بأدب:

- مِرْسِي خبيبي.. مِرْسِي كتير..

وأظل أنا جالسًا ومتمتعًا بالوقت الذي أقضيه هنا، فكل شيء حولي يدعوني إلى البقاء أو على الأقل التريُّث وعدم الاستعجال، فالمقاعد التي تضمُّنا

مريحة، من خيزران لين نوعيته ممتازة والوسائد والمساند بلون أخضر أو برتقالي بديع، ومربعات البلاط التي تحت أقدامنا فاخرة ولا تملُّ أبدًا من تأمل رسومها وتفصيلاتها، أشبه ببلاط القصور التي نراها في المزارات السياحية، وكل هذا في البهو الخارجي للمقهى، أما في الداخل فالمقاعد أكثر فخامةً وبعضها مُبطَّن بالجلد ومرآة مستطيلة حروفها مُذهَّبة، وفي أحد الأركان جرامُفُون من خشب الآبنوس يعلوه بوقٌ كبيرٌ تنساب منه أنغامٌ عذبة، موسيقى (شهرزاد) لـ (كورساكوف) التي طالما سمعناها من الراديو مع كل حلقة من حلقات (ألف ليلة وليلة).

هذه المقطوعة بالذات كانت طقسًا من طقوس المقهى، كنشرات الأخبار وأغاني أمّ كلثوم في المقاهي البلدية، والسبب السنيور (ماركو) المدير الإيطالي وأحد الـمُلَّاك فيما أظن، كان مغرمًا بها، وبتعليمات منه كانت تُدار هذه الأسطوانة مرةً أو مرتين في اليوم.

تُدار بصوت معقول، لا هو خافت يرهق آذان مَنْ يودون الاستماع، ولا مرتفع يُشتِّت أذهان من يتبادلون الأحاديث أو مشغولون بالقراءة.

كذلك كنَّا نستمع لمقطوعات كلاسيكية أخرى، لموتسارت وباخ وتوسكانيني وديبوسي أو بيزيه، كما كانوا لا يضنُّون علينا بموسيقانا الشرقية، فلا أنسى أني تعلقت هنا بمقطوعات موسيقية لعبد الوهاب وبعض أعمال سيد درويش، فالموسيقى فقط هي التي كنا نسمعها، الموسيقى الصافية الخالصة التي لا يصاحبها أي غناء، فالمواويل والسَّلْطنَة وكل نَغمٍ يخرج من الحنجرة لم يكن مسموحًا به.

الجلسة بالفعل جلسة ساحرة، والخدمة التي نحظى بها على غرار ما يُقدم في الفنادق ذوات النجوم الخمس، بورسعيد كلها ساحرة وليست الچيانولا فقط، أشبه بفتاةٍ حسناءَ تُخايلك بأنوثتها ودلالها وملابسها التي تشف، وبحيائها وأدبها في الوقت ذاته..

معادلة صعبة ولا شَكَّ، لكن الدُّلوعة الشقية بورسعيد كانت قادرة عليها، فهكذا كانت أو على الأقل في الزمن الذي أحكي عنه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

ونسمعُ ضربةَ مكابح شديدة..

كُنَّا في البهو الخارجي للمقهى لحظتها، والحركة في شارع الجمهورية الذي نطـلُّ عليه خفيفة، لا صوت ولا مركبات أو أي زحام، كل ما في الأمر فتًى وفتاة، الفتى يحيط خصرها بذراعه ويسيران على مهل، ووراءهما من بعيد رجل يضع رُزْمَةَ أوراقٍ تحت إبطه ويسرع في مشيته، وامرأة تحمل سلَّةً في يدها وتسحب طفلةً باليد الثانية..

هؤلاء كل الذين رأيتُهم، وكانوا فوق الطُّوَار ونهر الشارع خالٍ، ومع ذلك تلاحقت أصوات التنبيه كطلقات الرَّصاص ثم أعقبتها ضربة المكَابح العنيفة، كما لو أن قائد هذه المركبة فوجئ بموقف صعب ولولا الذي فعله لوقعت كارثة.

أحد الجالسين، رجل بقُبَّعة (شيك) ونظَّارة ساقطة على أنفه نحَّى ما في يده رافعًا حاجبيه، ورجلان يبدوان كما لو أنهما تجارٌ أو أصحابُ محالَّ كانا يجلسان إلى طاولةٍ بعيدةٍ ويتهامسان بغضب، حتى إنَّ أحدهما وكز الآخر في كتفه عدة مرات، وعندما سمعا الضجة قطعا حديثهما والتفتا حولهما ثم إلى الشارع، وإلى يساري عجوزٌ إيطالية من خواجات حي الإفرنج تقرأ في رواية (قصة مدينتين) لـ (تشارلز ديكنز)، وضعت الرواية فوق الطَّاوِلَة وتطلَّعت إلى مصدر الصوت بتوتر، توقفت أنا الآخر عن القراءة، طويتُ رواية (كفاح طِيبَة) وأخذتني عيناي إلى المَرْكَبة الچيب العسكرية التي أتى منها كل هذا الصُّراخ دون مقتضى، ومن جوف المقهى جاءنا تـودري مسرعًا، كان واضحًا أن هذا الأمر ليس جديدًا عليه، وقف على حافـة الطُّوَار يتأمل الجندي الذي يهبط من المركبة ويُشيح تجاهه بغضب:

- إنت تاني مرسال؟ لا خوْلَ ولا كُوَّةَ إلا بالله!

وبلومٍ وتقريع:

- إيه دا خبيبي! لازم شوية أدب شوية ذوق، دي مَخِلّ مخترم وكل زباين هنا ناس مهم، ناس كِلَاص.

وهذا القادم المُسمَّى (مرسال) لا يعبأ، رَزَعَ باب المَرْكَبة بشدة واتجه صوب تودري، وَكزَهُ وكزةً سريعةً في بطنه على سبيل المداعبة، ثم طار داخلًا من باب المقهى وتودري يصيح فيه من الخلف:

- إيه دا! عيب.. عيب..

التفت إلينا بعدها، أنا أقرب الجالسين إليه وعيناي التي جاءت في عينيه جعلته يخصُّني بالحديث:

- دي واخد مجنونة! واخد مناخوليا..

ويؤكد بلسانه وتشويحات من يده:

- كل مرة ييجي فيه هنا يسوِّي هيصة وشَمَطا (دَوْشَة)، أنا لازم أسوِّي فيه بلاغ للخكومة.

ثم اقترب مني متسائلًا عمَّا إذا كنت أعرف هذا الشخص، فهززتُ رأسي بالنفي وهو يُبدي استغرابه:

- إزاي خبيبي إزاي! دي ساكنة جنبك، مش إنتي قاعد عند بَحْر، هيَّه كمان قاعدة هناك، في الجبَّانة اللي وراكي، أَكْل سُرْب نوم كُلُّه كُلُّه في الجبانة دي!

كنت أيامها ضابطًا للشرطة برُتبةٍ صغيرة (ملازم أول) وانتقلت قبل أشهرٍ للعمل في شرطة النجدة، وكان مبناها آنذاك غرب بورسعيد ويطلّ على البحر مباشرة، وخلفه (الجبَّانة) مثلما يقول تودري، وأعرف أن إحدى الوحدات العسكرية تخيم في هذا المكان، فقلت له على سبيل المجاملة:

- تحب أقابل القائد بتاعه وأبلَّغه أنا؟

فلم يرحب بهذا الاقتراح:

- لا. لا خبيبي، دي واخدة غلبانة وكلنا بنخبُّه، سنيور ماركو كمان بيخبه كتير.

ويبدو أنه شعر بأن مرسال لا يستحق منه كل هذا التعاطف:

- يعني مس غلبانة كتير، هو سوية غلبانة وسوية قليلة أدب..

وعندما سمع مَنْ ينادي عليه من الداخل استأذن مني، وهو يشير بسبَّابته بأنه دقيقة ويعود لاستكمال الحديث، وعدتُ أنا إلى (سُقْنن رَعْ) و (كَاموس) و (أحمُس) والملكة الأمّ (إياح حُتب)، فراعتنا الكبار أبطال رواية (كفاح طيبة)، إلى أن رأيت هذا الذي اسمه مرسال خارجًا.

كان غطسانَ في عُلَب المخبوزات التي اشتراها..

تأمَّلته..

شيء ما بين القَزْم ومتوسطي الطول، ونحافته من نحافة القلم الرصاص، أما الوجه فمليء بالخرابيش، ليست خرابيشَ من جرَّاء مشاجرات أو بفعل

فاعل، خرابيش ربَّانيَّة وُلِد بها وبدايات كرمشة وتجاعيد لا تتناسب مع حداثة سِنِّه، كما لو أن هذا الوجه ينمو بمعدل مختلف عن باقي أعضاء الجسد؛ كذلك كان حذاؤه الميري ملفتًا بضخامته قياسًا إلى جسده الدقيق..

لا أعرف كيف قبلوا به في الجيش..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برهة وعاد تودري، وكان رُوَّاد المقهى الذين حولي قد انصرفوا ولم يبقَ سوى العجوز الإيطالية..

أعرف أنه يعشق الثرثرة، وأقول هذا عن تجربة فما إن تخفَّ الرِّجْل عن المقهى ويحدث هذا عادةً في فترة الصباح، إلا ويَلْبَد في أحد الجالسين وكلام في كلام حتى يكلَّ أحدهما ويُنهي الحديث، فإما أن تودري نفسه لسانه يتعب أو يرى زبونًا قادمًا فيتجه إليه، أو ينظر هذا الجالس في ساعته ويهبّ واقفًا وهو يقول باستعجال:

- الحساب كام يا خواجة؟

لا يقولها بضيقٍ إنما اكتفى وشبعت أُذناه، ولا مانع عنده من الاستماع من جديد لكن ليس الآن، فيما بعد، ولم يكن تودري يفعل ذلك ويثرثر هكذا مع كل الناس، مَنْ يرتاح لهم فقط، وإذا أردنا الحق فإن حديثه كان مُسليًا وتشعر معه بالحميمية والألفَة، وإن كان أحيانًا يسأل أسئلةً غريبة، فمرةً سألني عن اسم أُمِّي! وعندما نظرت إليه بدهشة قال:

- عادي عادي كابتن (وهذه هي الصفة التي كان يناديني بها)، مش إحنا أصحاب قُول قُول، أنا كمان الماما بتاعي اسمه (ماتيلدا)، فيها إيه دي! اسمه إيه بقى الماما بتاعك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي هذا اليوم الذي أتكلم عنه، وبعد أن أنهى حديثه مع من كان ينادي عليه، جاءني قائلًا:

- كنا بنقول إيه كابتن؟ آه.. آه.. مرسال..

وطفق يقصُّ عليَّ نوادر هذا الجندي والشغب الذي يُحدثه كلما أتى إليهم، فهو مندوب وحدته العسكرية ويأتي بين الحين والحين لشراء الحلوى والمخبوزات له ولأفراد الكتيبة التي التحق بها، جاتوه، كرواسو، باتيه، بريوش، فالچيانولا

ليست مجرد مقهى يقدم المشروبات لرواده الجالسين، وإنما ملحق بها مطبخ تُعد فيه هذه المأكولات لمن يرغب في الشراء.

ويستطرد:

- الولد دي بتيجي كل ستة يوم سبعة يوم، ساعة لما يكون هو والعسكر اللي معاه عايزين يعملوا بارتي وزيطة ومسخرة.

ويتعاطف:

- غلابة خبيبي غلابة، الله يكون في عون ناس دي، ناس مسكين! عايسين في تُرب مع ميتين! عايزين ينبسطوا يفرخوا، كمان الأكل الميري كل يوم كل يوم خاجة صعب.

ويشيح بأسَى:

- ملعون الخرب، دي بنت كلب! شباب زي عصفور ولسه فاتخ عينه على دنيا...

ويقطع مسار حديثه عن الحرب متحدثًا بجِدَّة عن مرسال:

- أنا في أول مكنتس مرتاخ للولد دي..

ويؤكد بهزة من إصبعه:

- أبدًا أبدًا مكنتس مرتاخ، دي سيطان! يدِّينا الأوردر ونتلفِّت عليه منلقيهوس، يتسحَّب يتسحَّب منِّنا ويدخل مطبخ وللا يتكلم مع زباين قاعدين أو يلعب في جرامفون ويقول لي: مفيس أغنية لكخلاوي وللا موال لسفيق جلال! ويعمل مسخرة في كافيه مخترم زي دي والناس اتفرجتوا عليه.

ويتوقف ليسألني:

- مين سفيق جلال دي؟

فأقول له إنه أحد مطربينا الشعبيِّين..

- تمام.. تمام..

ويلكُزُني لكزةً خفيفةً في كتفي كي أزداد انتباهًا:

- ومرة فتخ عليَّه باب خمَّام وأنا..

ويصمت متأفقًا ثم يقول:

- آه خبيبي عمل كده! وربُّونا عمل كده! وقال لي: بتعمل إيه عندك عم تودري، الباب كان مُوارب وأنا سُفت كل حاجة! أعمل إيه في ولد دي؟ طلعت وراه جري بالخِزَام.

ويبدو أنه شعر بتفاعلي معه وضحكاتي الخفيفة، فتلفتَّ حوله وتجرأ ساحبًا المقعد المقابل لي خطوةً إلى الأمام وجلس على طرفه، وهذا ضد التعليمات والصرامة التي تُدار بها الچيانولا.

واستمر:

- تعرفي كابتن، أنا من تلاتة سهر لقيت واخد سيخ عرب داخل علينا هنا.

- شيخ عرب؟

- آه سيخ عرب بس مش مخترم، وكان لابس عباية واسع وكُمُّه واسع كله واسع، وخاجة أبيض كبير مفروش على راس.

- قصدك عقال؟

- أيوه خبيبي هو دي! وكمان فوق عينه نضَّارة اسود وراخ قاعد على كرسي ومربع رِجْلِيه.

وأشار بإصبعه ناحية المقعد الذي تجلس عليه العجوز الإيطالية:

- هنا خبيبي هنا، مطرح سنيورة صوفيا ماهي قاعد.

فرمقته العجوز (مدام صوفيا) بضيق ثم عادت إلى القراءة من جديد، غير أنه لم يلحظ ونبرة صوته تعلو منه مع الاندماج في الحكي:

- قلت له: عايز إيه سيخ عرب؟ عايز إيه! دي الچيانولا خبيبي والناس تقعد فيه مؤدب مس ترفعي رجليكي وتربَّعي زي مصطبة، وكمان إخنا لا عندنا معسل ولا سيسة ولا خاجات من دي، روحي في قهوة بلدي وللا في (عَزقْ)[4] ، واسربي فيه خاجات دي وربَّعي رجليكي زي ما إنتي عايزه!

ولم يكمل..

ازداد الضَّجَر على وجه مدام صوفيا من هذا الضجيج الذي يُحدثه، طوت الكتاب الذي تقرأ فيه بغضبٍ وهي تبرطم بكلماتٍ إيطالية، أظنُّها شتائم في حق تودري وأبي تودري على ما استنتجت ثم ألقت بالحساب فوق الطاولة، وشعر هو بالقلق، التفت نحو باب المقهى حذرًا من أن يكون السنيور ماركو

رآه ورآها على هذا النحو، ثم أسرع محاولًا إرضاءَها قبل أن تنصرف وعاد إليَّ قائلًا:

- الخمد لله.. سنيورة صوفيا واخد مخترم، طيب كتير، قال لي: سماخ.. سماخ.. تعرف لو كان مدام چينا هو اللي موجود كان على طول عمل بلاغ للسنيور ماركو، وعمَّك تودري بقى في سارع..

وسألني عمَّا إذا كنت أعرف مدام چينا هذه؟ فأشرتُ له بأَنْ: لا.

- إزاي! دا بييجي هنا كل يوم، وكل نفر بيقعد في چيانولا يعرفه!

الذي أنقذني منه قدوم رجلَيْن أحدهما سمين سمنةً رهيبة، يزن ثلاثةً من ذوي الأوزان المتوسطة تقريبًا! وطفق هو ومن معه يتلفتان حولهما وكان الكدر باديًا على وجه الرجل السمين بالذات، ترددا لحظاتٍ في أن يجلسا أم لا ثم جلسا على بُعد عدَّةِ طاولاتٍ مني، وتودري فوق رأسيهما ويسألهما: ماذا يشربان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

بعد انصراف السِّنْيُورة صوفيا، لم يبقَ سواي أنا وهذين الرجلين..

رمقتهما رمقةً خاطفةً وانتابني بعض الشغف لمعرفة حكاية شيخ العرب هذه، لا مشكلة سوف يرجع تودري إليَّ ثانية أو لعلِّي أسمعها منه في يوم آخر، كما بدأت أشعر بالخمول ولا رغبة لي في القراءة بعد أن تأثرت لاستشهاد ملكنا القديم (كَامُوس) في ميدان المعركة، وانتقاله إلى الوادي المقدس بجوار (أوزوريس).

طويتُ الرواية بعدها ووضعتُها فوق الطاولة ثم مددت قدمَيَّ بكسل، كسل من ذلك النوع الذي يمهد الجسد لغفوةٍ خفيفة..

لا أدري إن كنتُ غفوتُ أم لا؟

أعتقد غفوت، والجلبة التي أحدثها هذان الرجلان هي التي أعادت لي الانتباه..

فالصوت الآتي من عندهما كان مرتفعًا وتصاحبه طرقات شديدة على سطح الطاولة التي يجلسان أمامها، وكل هذا من الرجل السمين فالرجل الآخر كان مسالمًا، ولاحظت أو ربما هُيِّئ لي أن أخانا السمين هذا ازدادت سمنته عمَّا كانت عليها قبل أن أغفو! ربما لأنه كان واقفًا فتداخل الطول مع العرض ولما جلس بانت على حقيقتها، إذ كان ظهره تجاهي وثُلُثا جسده على الأقل خارج المقعد، وحقيبة أوراق فوق الطاولة يضع يده عليها واليد الثانية مشغولة بتجفيف عرقه بمنديل.

وسمعته يقول لصاحبه الهادئ الساكت: أَلَمْ أقُلْ لك بأننا لن نصل في الميعاد، وسنُضطر للمبيت في أي فندق أو أية هبابة!

ويترجرج جسده مع زيادة انفعاله: مصالحي كلها هنا وطول عمري أتردد على هذا الخط وأعرف السوَّاقين بالاسم، وأول ما رأيت الملعون (شبانة) جالسًا على مقعد القيادة، قلت: ضاع علينا اليوم، سوَّاق غِلِس، بطيء، لا يصل في ميعاده بتاتًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سمعت اسم (شبانة) زاد انتباهي..

والسمين ينظر في ساعته ولا يزال مستمرًّا في الكلام: الساعة الآن الواحدة وخمس دقائق، فما الذي أفعله؟ أكيد انصرف الموظفون من مبنى

المحافظة، أغلقوا مكاتبهم وجَرْي جَرْي إلى البيوت، أولاد (لذينا) فأنا أعرف هذه الأشكَّال..

ويحاول وضعَ ساقٍ على ساقٍ كصاحبه الجالس معه غير أنه يفشل، ساقه مرعبة، لم تَسْتجِبْ له، عاندَتْهُ وتَزحزحَتْ راجعةً إلى وضعها الأول، فاستسلم لها وطفق صامتًا وصاحبه صامت هو الآخر منذ أن جلس، فلم أسمع له صوتًا إلى الآن..

ظلَّا هكذا إلى أن أشار السمين بيده: حسبتها بالدقيقة مثل الخواجات، قلت البولمان يصل في الثانية عشرة، وفورًا إلى المحافظة نقدم الطلب ونقضي مصلحتنا ونعود في بولمان الساعة الرابعة، لكن ماذا أفعل؟ في كل خرابة ألقَى عِفْرِيتًا!

ويتقلقلُ محاولًا النهوض:

- أنا بقول نجرَّب ونروح المحافظة واحنا وبختنا.

وصاحبه يتثاءب ويجيب في الوقت نفسه:

- والقهوة اللي طلبناها؟

- قهوة إيه! يللا يللا..

ووكزه بيده كي يتحرك، وبعدها بدقائق ظهر تودري حاملًا فنجانَي القهوة، تلفت عليهما ثم سألني فقلت: لا أعرف، ذهبا، فبدا عليه الاستياء واستدار عائدًا من حيث أتى.

وسبحتُ أنا فيما طرأ عليَّ تلك اللحظة، فكلمة من الكلمات التي قالها الرجل السمين أعادتني إلى الوراء وأدخلتني عالمًا بحرُه أوسع من البحر المالح، ومناظر وحكايات وتفصيلات منها ما هو في حجم حبَّة الرمل أو ذَرَّة التراب، وتحسَبُ أنها ماتت وهي باقية تعيش، وقد تكون من وقت طويلٍ وماض فات وفات، لكن ما إن تَرِدْ على الخاطر يَعُدْ زمنُها كله معها ونسمع ونرى كما لو أنها تقع الآن..

ومفاتيح تسلمك من باب إلى الثاني إلى الثالث، فأول ما نتذكر اسمًا أو موقفًا حدث يأتي معه كل من كانت له علاقة، كطرف الخيط إذا شددتَهُ ولو شدةً بسيطةً كَرَّتْ وراءه لفَّة الخيط بأكملها، فما إن سمعت اسم (شبانة) حتى لاح لي اليوم الذي جئتُ فيه إلى بورسعيد؛ إذ كان السائق الذي أقلَّنا هو نفسه شبانة، وكان مثارَ حديث الركاب الدقائق العشر الأولى من الرحلة، فعلق اسمه بذهني من يومها.

علا الوجومُ وجوهَهُمْ عندما رأوه من نافذة الباص..

يعرفونه..

أرذل سائق على خط بورسعيد/ القاهرة، تثاءب سيادته في وجوهنا ثم جذب المِنْدِيل الذي يحيط بياقة سُتْرته الكاكي ونفضه في الهواء وتأهب للجلوس على مقعد القيادة.

وسمعتُ بعض النسوة ينهشن فيه، نسوة من أحياء شعبية ببورسعيد على ما يبدو من ثيابهن، كُنَّ في رحلةٍ للقاهرة ورجعن في هذا الباص، قالت واحدة منهن نظرها ضعيف:

- مش دا بسلامته شبانة؟

وتمدُّ عنقها إلى الأمام مُظلِّلةً عينيها بكَفِّ يدها:

- آه والنبي هو..

وبصوتٍ كالتمتمة:

- آه يا مَوْكُوس..

فتتجاوب معها امرأة ثانية:

- أه يا غُلبي ياني، وأنا اللي كُتّ مستعجلة!

وتسكت، فتعلق المرأة التي تجلس بجوارها:

- لا وكمان محناش عاجبينه وبينقَّض منديله الوسخ في وِشِّنا.

والتي تقول:

- وفي اللَّكاعَة يا حبيبتي طالع البريمو.

وانطلق الباص تاتا تاتا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا اليوم أول يوم في شهر أغسطس 1968، وأول يوم أرى فيه بورسعيد بالعين، قلبي هو الذي كان يعرفها من قبل..

ففي حرب (56) بكت كل مصر على بورسعيد، كُنَّا صغارًا وقتها تسع أو عشر سنوات ومع ذلك لم يمرَّ علينا هذا الحدث ببساطة، فرغم تفاهة أعمارنا وقلة

الإدراك انطلقت فينا أشياء قبل أوانها، انفعالات ومشاعر لا تحدث إلا مع التقدم ولو قليلًا في العمر وولوج سن الشباب.

الوطن.. الكرامة.. العزة.. الكفاح..

كلمات كبيرة لا شَكَّ وكثيرًا ما سمعناها من مدرسٍ في مدرسة، أو من أبٍ أو عَمٍّ أو خال، ومن أناسٍ لا يكفُّون عن الحديث عنها في الإذاعة عقب كل نشرة من نشرات الأخبار..

كنا نتلقاها بغير فهم، كما لو أنها لوغارتيمات، فلم نكن مُهيَّئين لها وغالبًا ما نستثقلها، نُفضِّل عليها تصفُّح مجلات الأطفال (ميكي) أو (سندباد)، أو اللعب في الشارع.

فهمناها عندما ضربوا بورسعيد..

فهمناها بغير تلقين أو تكرار وشرح، بوسائل لا تُسمع ولا تُرى بل تُحسّ، بتأثرنا بالجو المحيط بنا، بغضب آبائنا وأمهاتنا وحماسة إخوتنا الكبار ومدرسينا، وبالناس الذين في الشارع والذين في البيوت والذين في الأتوبيسات، تسلل إلينا منهم هذا الغضب وتسللت الحماسة وفار الدم في عروقنا، وبدأنا في التحلُّق حول أجهزة الراديو مثلما يفعل الكبار، وعندما سمعنا خطاب عبدالناصر في الجامع الأزهر مناديًا بأن «حَيّ على الجهاد» تفجَّرت فينا طاقات لا تتناسب مع حداثة أعمارنا، لم يعُدْ يشغلنا لعب بكرة أو لهو بدرَّاجة أو حتى نجاح في مدرسة، كل ما كنا نتمناه أن نحمل سلاحًا ونذهب إلى الحرب، ومنا من أفضى لأبويه بهذه الرغبة وهما يُربِّتان على كتفه ويتلطفان به.

هذا ما فعلته بنا بورسعيد، جعلتنا نسبق أعمارنا بسبع أو ثماني سنوات على الأقل، ونعرف أن في الدنيا ما هو غالٍ كغلاوة آبائنا وأمهَّاتنا..

اتسع الحيِّز فيما بعد، ونحن طلاب في كلية البوليس..

فبعد أشهر من حسرة يونيه، جاءنا خبرُ إغراق المُدمِّرة (إيلات) أمام ساحل بورسعيد.. أبواب الكلية وكالعادة مغلقة علينا والتوتر يسود، لاحظناه على وجوه ضباطنا، شيء يجري في الخارج.. شيء كبير.. وعندما وقفنا في طابور تحية العلم أذاعوا الخبر، لم يستطيعوا السيطرة علينا بعدها، انقلب الطابور إلى ساحةِ هَوَسٍ وجنون، وتقافُز في الهواء ومنا من فقد صوابه، مزق السُّتْرَة التي يرتديها أو أطاح بغطاء الرأس في الهواء، ومنا من ضحك ودمعت عيناه في نفس اللحظة، كانت قلوبنا زعلانة خزيانة وما صدقنا أن فرحنا..

بذلوا جهدًا كبيرًا حتى أوقفوا هذا الانفلات، وصاح فينا أكبر الضباط رتبةً بأننا سوف نُعاقب جميعًا على هذه الفوضى التي أحدثناها.

قالها وهو يبتسم..

ولم ينفذ هذا الوعيد، بل ولولا الحرج لفعل الذي فعلناه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طافت بي هذه الذكريات وأنا جالس في الباص، ويشاركني المقعد شابٌّ أكبر مني بسنوات قليلة، كان صامتًا أغلب الوقت، آثار التعب على وجهه ويحاول الدخول في غفوة لكنه في كل مرة يفشل فيرمقني رمقةً سريعةً ويحاول من جديد، وأنا أتأمَّلُه بلا أية انفعالات ولم يَدُرْ في خاطري طبعًا أنه سوف يكون غريمي في يوم من الأيام.

والركاب أصابهم الإجهاد من الافتراء الذي افتراه فينا شبانة، سرعته لا تتجاوز خمسين كيلومترًا في الساعة ووقف الملعون بنا ثلاث مرات، مرة أمام (غُرْزَة) على الطريق فأتى له صاحبها بكوب شاي ساخن وأخذ الفارغ، ومرة بلا مقتضى، وفي الثالثة هبط من الباص يتحسس الإطارات ويتفحَّصها بيده ليطمئن، والركاب يتابعونه من النوافذ ومنهم من يؤكد أن هذا السائق (كِلِح) ويضيع الوقت ليس إلَّا، فهم سَوَّاقون مثله كما قال أحدهم ولو في الإطارات شيء لكانوا شعروا به.

ومَنِ انشغل بالثَّرْثَرَة أو أخرج لفَّة ساندوتشات وشرع في الأكل، وجاري بقميصه الغامق والنّعاس الذي في عينيه لا يزال صامتًا، لم يفتح فمه بكلمةٍ إلى الآن، وعندما تجاوزنا مدينة الإسماعيلية وأصبحنا بحذاء القناة وَجَم كل الباص، وطفق الركاب ينظرون لبعضهم البعض ومنهم من يتأمل من النافذة بحسرة، كان العدوُّ على الضفَّة الثانية ويقيم سدًّا بيننا وبينه (خط بارليف)، ومركب غارقة في مجرى القناة نصفها مطمور في الماء والنصف الآخر مرفوع إلى أعلى وتعلوه أسراب من طائر النَّوْرَس، وذرَّات رمل ناعمة كالطحين تهب مع الريح الآتية من الضفة الأخرى، فتبدو الدنيا عابسةً كئيبةً والرؤية ضعيفة.

وشعرت بيد جاري تُربِّت على ركبتي:

- إن شاء الله هنكسب، وكل حاجة هترجع زي الأول..

ثم عدة كلمات عرفت منها أنه ضابطٌ في الجيش، ويجيء لبلده بورسعيد في الإجازات..

وعندما توقّف الباص أمام (حديقة فريال) حيث محطة الوصول، أخرج من حافظته كارتًا مُقوًّى يحوي اسمه: حسام أبو سمرة، ورقم تليفون المنزل والعنوان، وقال: إنه يقضي أغلب إجازته بالچيانولا وكل الجرسونات هناك يعرفونه خاصةً (تودري) فهذا الجرسون بالذات أقربهم إليه، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن الچيانولا أو عن تودري هذا.

ومن النظرة الأولى لبورسعيد اجتاحني إحساس بأن هذه البلدة ليست غريبة عليَّ، كما لو أني رأيتُها من قبل؛ إذ كان عالقًا بذهني الرحلة التي نظَّمتها لنا الكلية في إجازة الصيف الماضي لزيارة موانئ البحر الأبيض المتوسط، اللاذقية وبيروت ومارسيليا وبيريه، فتقريبًا بورسعيد على النمط نفسه وأخت من أخواتهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

وعُيِّنت بقسم شرطة العرب..

ومن اللحظة الأولى جذب بصري مبناه، له شكلُ وطعمُ ورائحةُ المباني التي أحبُّها، المباني القديمة ذات الوسع والبراح والأسقف العالية..

من أيام الخديوِ عباس حلمي الثاني وهو على هذه الهيئة، لا أضافوا له حجرًا ولا بدَّلوا فيه نافذة وبوابته مفتوحة لم تُغلق إلى الآن، لا ليل ولا نهار، والحركة فيه لا تهدأ لا هو ولا فوق الطّوَار المقابل له والذي تحتله ثُلّة من العرضحالجيَّة.

قرابة خمسة أو ستة وكلهم أرباع وأنصاف متعلمين، وهذه هي مهنتهم أبًا عن جَدّ، وإذا سألتهم عن مؤهِّلاتهم الدراسيَّة منهم من يسكت، ومنهم من يقول (ساقط إعدادية) والذي يتباهى بأنه (ساقط دبلوم) أو (ساقط ثانوية عامة)، فكلمة (ساقط) هذه كانوا يعتزون بها، تشير إلى أنهم في يومٍ من الأيام كانوا تلاميذ في المدارس ويجلسون على دِكَك ويتعلمون مثل هذا الذي يسألهم.

الثياب التي يرتدونها جاوزت أعمارها الافتراضية بسنوات، الشِّرْز أو حتى الچاكت أكمامه مبرومة من عند الرُّسْغ وخرم أو خرمان على الأقل، والبناطيل في مستوى بناطيل البيچامات التي يلبسونها في بيوتهم وأحيانًا ليست على المقاس، والأحذية كَعَابها مبرية وغالبًا ما يضعونها في أقدامهم بلا جوارب.

ويجلسون على مقاعد مبطنة بالقش يستلفونها من مقهى أشبه بالغُرْزَة استوطنوا بالقرب منه، وأمامهم طاولات بأسطح خشنة وأرجل رفيعة تُطوى وتفتح بكلّابات من الصفيح، وفوق كل واحدة مَحْبَرَةٌ كئيبةٌ من الصيني أو الزجاج، بجوارها ريشةٌ يغمسها الواحد منهم في المحبرة كلما تهيأ لكتابة شكوى لأحد الزبائن، وآخِر النهار يغلقون هذه الطاولات ويحملونها إلى بيوتهم هي وباقي مُعدَّات الكتابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استرعى نظري هؤلاءُ الناسُ من قبل أن أخطو خطوةً واحدةً داخلًا مبنى القسم، والسبب الضجَّة العالية التي كانت آتيةً من عندهم..

جعير من ضابط برتبة كبيرة يقف بينهم، جعير بالمعنى الدسم لهذه الكلمة! فلم يكن الأمر صياحًا أو حتى زعيقًا فهذه كلمات ملمومة ولا تفي بالغرض، وهؤلاء العرضحالجية يحايلونه ويهدِّئونه ويتمرجحون أمامه كالأراجوزات كي

يرضى، ويحلفون، والله أعلم بالصدق أم بالكذب، بأنه لا ذنب لهم ولا يأتون بالكلام من عندهم، وهو كقالب الطوب وغير مقتنع.

لم أرَ شكله جيدًا، فلحظةً تخطفه عيناي ولحظةً أخرى تحجبه عني أجسادهم، وإن كنت – وعلى السريع - لاحظتُ أنه من أصحاب الأوزان الخفيفة، فجسده نحيل ومن حيث الطول أيضًا لا شيء، متوسط أو ربما أقل، حتى إنِّي اندهشت: فمن أين أتى بهذه الحنجرة الجبَّارة؟ كان يمكن سماعه من على بُعْد شارعين من الشارع الذي كُنَّا فيه.

لم أُعِرْ بالًا بأكثر من ذلك، توجهتُ مباشرةً لمبنى القسم وتبادلتُ التحية مع الشرطي الواقف أمام بوابته، ثم سألته عمَّا إذا كان حضرة المأمور بمكتبه الآن؟ وكان بجواره أحد المخبرين رمقني وأسرع إلى هذا الجعير، وقال لي شرطيُّ الباب:

- البيه المأمور هو اللي واقف بيزعق هناك.

فخرج الكلام من فمي بعفوية:

- أعوذ بالله! وهيخلَّص إمتى؟

فسكت، لعلَّه ظن أنِّي من الضباط (الفاقدين) أصحاب الألسنة الفالتة وأني سوف أدْخلُه في مشاكل، وعرف المأمور بوصولي، وَدْوَدَ في أذنه المخبر الذي رمقني قبل لحظةٍ فأوقف الجعير وأشار لي بأن آتي إليه، وأثناء عبوري عُرْض الشارع متوجهًا نحوه أدهشني قوله لمن حوله وبنفس الزمارة التي في حنجرته، بأن الحمد لله! فلسوف يرتاح أخيرًا منهم ومن مشاكلهم، فقد وصلت، وصل (الوَحْشُ) الذي أرسلته الوزارة لتأديبهم!

وأنا مدهوش، فكما لو أنه يقصدني، فعيناه تتنقلان بيني وبينهم، وأول ما وقفت أمامه مُحيِّـيًا لم يعبأ بردِّ التحية أو يقول لي: حمدًا لله على سلامتك، أو حتى سألني عن اسمي، باغتني بأن طرق على صدري بسبَّابته وطفق يُعرِّفهم من أنا:

- دا كافر وابن...

وكاد أن يشتم، لكنه سرعان ما لحق نفسه:

- أيوه كافر! لا يعرف أُمّه ولا أبوه، وأول ما استلم شُغله في قسم روض الفرج عمل لاتنين عاهة مستديمة، وبعد المحايلة والرجاءات بعتوه لكم مخصوص!

وهم يحدقون فيَّ برعب، وأعينهم تقول: اللهم احفظنا يارب!

أنا الآخر ارتبكت مثلهم، فلا عَملتُ بقسم روض الفرج مثلما يقول ولا أحدثتُ عاهةً لأحد، تخرجت في الكلية من أسبوع واحد فقط ولا أزال طازَجًا ومن الكلية عليهم، وداخَلَنِي شيءٌ من التوتر أو على الأقل عدم الاطمئنان لهذه البداية الملتبسة، واستمر هو ناصحًا العرضحالجية بأنهم لو أرادوا السلامة والاستمرار في هذه الدنيا بلا عاهات أو خراب بيوت، عليهم أن ينسوا قسم العرب نهائيًّا، يحذفوه من خريطة حياتهم، يبحثوا عن رزقهم في مَطْرَح آخر، يجلسوا أمام مبنى البلدية مثلًا أو (كوبَّانية) النور أو شرطة المرافق، فالخير والشكاوى والبلاغات في هذه الأماكن وفير والحمد لله.

وأخذني المأمور من يدي متجهًا إلى بوَّابة القسم، وهم يرمقونني من الخلف ويتهامسون فيما بينهم في الأسلوب الذي يتبعونه مع هذا المجرم الكافر الذي يمشي بصحبة المأمور، وأنا لا حول لي ولا قوة، أو على الأقل في هذه اللحظات، ومتوتر مُتهيِّب من هذا العالم الذي ولجتُ بابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التلفيق والتوابل والبهارات هو سبب مشكلتنا مع هؤلاء العَرْضحالِجيَّة..

إذ كانوا يضعونها في الشكاوى التي يكتبونها للناس بلا وازعٍ من ضمير، وهي التي أشعلت وقود الحرب بيننا وبينهم، ومع المأمور بالذات فهو قائدنا ورئيس الأركان، إضافةً إلى أنه من الأساس كان متطرفًا في ردود أفعاله، والمشكلة في (كلمة ونصف) أن أغلب المتعاملين مع هؤلاء الناس صنفان: إما مساكين بُلهاء، كالمقرئ الكفيف مثلًا والكحيان العدمان في نفس الوقت، الذي جاء لأحدهم ذاتَ يوم ليحرر له شكوى، إذ غافلته بعض النسوة المجرمات وأكلن حقه، قرأ لهن رُبْعًا فالثاني أمام تُرْبَة ميت من أمواتهن، وبعد أن ختم وقال: صدق الله العظيم، وضعن في كَفِّه (المعلوم) وعندما رجع إلى البيت لطمت امرأته خديها وأفهمته أنها قطعة خردة ولا تنصرف في أي دكان.

وأخونا العرضحالجي يستمع له بملل، فما الذي سوف يتحصَّل عليه من هذا الجربوع!

ويحاول التخلص منه، والفقي لا يريد أن يتتعتع من أمامه وكل الذي بيده ورقة بعشرة قروش من التي اندثرت الآن.

الصنف الثاني: هو الأهم وأُسُّ الخلاف الذي بيننا وبينهم..

فالذي كان يثير شهية أي عرضحالجي منهم الشكاوى الكيدية، والنسوة بالذات هن الفرسان في هذا الملعب!

أراذل النسوة تحديدًا..

نسوة من الفرز الثاني عشر تهيمن عليهن غرائزهن البدائية، كُنَّ يَجِئْنَ من مناطق عشوائية بدائرة القسم، عزبة فاروق، عزبة النحاس، ومن العشش المحيطة بمنطقة الزرائب بالقابوطي، والمشاكل التي يقطعن بسببها كل هذا المشوار لا معنى لها: امرأة تشاغل رجلًا وزوجته لا تقبل هذه المسخرة وتود الانتقام، أو امرأة تصحب معها ابنتها الكبيرة والشكوى أن من عشَّمهما بالزواج من هذه البِنَّية ودخل عليهن البيت وأكل وشرب فلَّ منهن فجأة وفص ملح وذاب، أو إوَزَّة وخصوصًا في منطقة الزرائب دخلت إحدى العشش بالخطأ، فاحتجزها أصحاب هذه العُشَّة ويخططون لذبحها وأكلها، والمرأة التي جاءت تشكو تريد إمَّا الإوزة أو العِوضَ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقف المرأة منهن أمام العرضحالجي وتشرح له..

وهو أذنه معها وعيناه على الحلق الذي يتدلى من أذنها والخواتم والغوايش بالطبع، فهل كل هذا ذهبٌ في ذهب أم مجرد صفيح؟ والجلباب الذي ترتديه جلبابٌ محترمٌ وينبئ بأن كيسها عَمْران بالفلوس، أم جلباب من الجلابيب المقرفة وكل الذي في سيَّالتها حفنة قروش؟ فكل هذا له دور في تقدير الأتعاب..

وبعد أن تفرغ من الشرح، يسألها:

- والواد الدُّون ده عايزاني أعمل له إيه؟ جناية وللا جُنْحة؟

تصمت، لا تفهم ما يقصده، فيُعاود التوضيح:

- يعني عايزاه يدخل السجن خمس ست سنين، وللا حاجة على ما قُسم غرامة يعني وللا كَفِّين تلاتة على صداغه؟

فترد الأم وابنتها في نَفَسٍ واحد:

- السجن يا خويا السجن، دا جُرْسِتْنا تسوَى كتير.

وتؤكد الأم:

- دا خان العيش والملح والفاتحة اللي قريناها سَوَا، شوف شغلك شوف.

- تبقى جناية!

ويشير لها بأن تقترب برأسها منه، ويتوشوش معها:

- حاقول لا مؤاخذة كده إنه مسك البنت من...

ويُخفض عينيه خجلًا:

- وإنتي فاهمة بقى.

تخجل هي الأخرى، غير أنها تقول بحماس:

- قُول يا خويا قُول.

- على بركة الله! خلاص فَهِّمي بنتك، وإذا حاوروها في القسم تصمم على الكلام المكتوب في الشكوى.

ويُعاود لفت نظرها:

- حَفَّظيها كويس، حَكِم المأمور اللي هنا راجل ثَقِيل وهيفصِّل يقرَّرها.

فتهزُّ رأسها بأنها واعية مدركة..

ومن يقول منهم لصاحبة الإوزة المحتجزة:

- وزِّة إيه! نخلِّيها خروف؟

- خروف خروف، غمِّس يا خويا الريشة في الدواية واشتغل.

ويتفنَّن الواحد منهم في الكتابة بعدها، ولا يسلمهن الشكوى إلا بعد أن يتحصَّل على الأتعاب التي تتناسب مع المصيبة التي كتبها!

مصائب بالفعل..

والنسوة مصممات أمامنا في القسم على أنها وقعت ويحلفن بالله أو على أولادهن، ونحن نحاور ونُداوِر ونهدد بأن الحقيقة حتمًا سوف تظهر، وساعتها لا مفرَّ من مَحاضِر لهن ببلاغات كاذبة وإزعاج للسلطات، وساعتها سوف يكون الحبس من نصيبهن هن لا المشكوّ في حقِّهم.

ولا فائدة..

يبكين من ظلم الحكومة لهن وأنها لا تجيء إلا على الغلبان، وندخل نحن في ارتباك، نعرف أن كل هذا كذبٌ وادِّعاءات لكن يسقط الأمر من أيدينا، نضطر لإبلاغ النيابة ومديرية الأمن وتنقلب الدنيا، تحقيق وانتقال لموقع الجريمة وإحالات للطب الشرعي وسلسلة إجراءات وكلها تضييع للوقت، ويفور دم المأمور، يخرج للعرضحالجيَّة بالخيزرانة، ولا قيمة لما يفعل لا يأخذ منهم حقًا ولا باطلًا، يَكفُّون عدة أيام ويعاودون من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الذي هددهم بي المأمور خالَتْ عليهم وصدَّقوا..

كان يَركَنُ إلى التهديد كوسيلةٍ من وسائل الدفاع الشرعي ضد هؤلاء البشر حسبما يقول، وتأدَّبوا هم خافوا مني وكلما دخلت أو خرجت من باب القسم كانوا يرمقونني بحذر.

لم تَطُلْ هذه اللعبة كثيرًا..

فسرعان ما اكتشفوا أني نَمِرٌ من ورق وسخروا منَّا – طبعًا – فيما بينهم وعادوا إلى أسلوبهم القديم، وانهالت علينا هذه النوعية من الشكاوى من جديد، وبوقائع وألفاظ وصيَغ أرذل مما قبل، ولم يستسلم المأمور طوَّر أسلحته هو الآخر، اتَّبع معهم تكتيكًا رادعًا، من الشكوى التي تصلنا نعرف مَنِ الذي حررها، من خَطِّه وأسلوبه في الكتابة والأخطاء الإملائية التي اشتهر بها، وعندما يزعجنا كنا نمسك به ونحرر له (مَحْضَر تحرِّي)، نتعامل معه كالمُشتبَه بهم وكأننا لا نعرفه أو سمعنا به من قبل ونريد التأكد من شخصيته، يظل في ضيافتنا يومًا أو يومين نرسله أثناءها – مقبوضًا عليه وفي صحبة حرس - إلى أقسام الشرطة بكل بورسعيد (كَعْب دَايِر)، لعلَّه مطلوبٌ في قضية أو لتنفيذ حكم أو.. أو.. نعرف أنه سليم وليس مطلوبًا في شيء؛ غير أننا كنا نضايقه مثلما يضايقنا، وأتى هذا بنتيجة وإن كانت ليست التي نأملها..

الخلافات التي بيننا وبينهم كانت خلافات عمل ليس إلَّا، وهذا النوع من الخلاف لا يُفسد للوُدِّ قضية مثلما يُقال، فقد كانوا يزورونا في الأعياد والمناسبات للتحية، وعندما تزوجت ابنة كبيرهم الحاج محمود الناغي دعانا كلنا لحضور الزفاف وكان المأمور شاهدًا على عقد الزواج، أما في العمل فلا مانع من أن يلدغ كُلٌّ منَّا الآخر لدغةً خفيفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد كل هذا الزمن لا زلت أتذكَّر وجوههم، أو وجوه بعضهم على الأقل..

تكون غائمةً بعض الشيء أو كالخُيالات وقد تختلط بملامحِ أناسٍ آخرين، وإن كانت الذاكرة تصمم على أنهم هم..

ونبرة الصوت، نبرة صوت الحاج محمود الناغي بالذات، فلا تزال هي ولَزَمَاته في الكلام مُخزَّنة لديَّ، كانت قريبة من نبرة الفنان توفيق الدقن.

تأتيني صورة هذا الرجل كلما شاهدت فيلمًا للدقن، وقد تُخايلني من تلقاء نفسها، تغيب بالسنين ثم تلوح فجأةً دون أن أستدعيها.

وبين الحين والحين يطوف بي اليوم الذي نقلتُ فيه من قسم العرب، كنت خارجًا من باب القسم وكالعادة رأيتهم جالسين فوق مقاعدهم الخشبية.

يعرفون أنه آخر يوم عمل لي في هذا المكان، وهبُّوا واقفين يشيرون لي بأن طريق السلامة والتوفيق في عملي الجديد، فتوجهتُ للسلام عليهم يدًا بيدٍ والتقَّوا هم حولي بضحكاتهم وقفشاتهم البورسعيدية، وبادر الحاج محمود بالقيام غير أني أشرتُ له بأن: لا، كان كبيرًا في السن وقدمه مُعوَّقة بعض الشيء.

مِلْتُ عليه فجذبني إليه ولفَّ ذراعه حول كتفي بمحبة، وهو يقول:

- عمك محمود خدامك في أي مطرح تروح فيه.

لحظة وداع بسيطة وربما لا معنى لها عند الآخرين إلا أني فرحت بها، تركت أثرًا في نفسي وإلا لماذا استبقتها الذاكرة طوال هذه السنين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

ويومًا بعد يوم نشأت أُلْفةٌ بيني وبين المكان..

الشوارع..

شارع أوچيني والتلاتيني أو شارعَيْ كسرى ومحمد علي، وبيوت ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، البيوت الطيبة الوديعة ذات البواكي والشرفات الخشب، ودكاكين شارع التجاري بأحجامها التي لا تتعدَّى أحجام علب السجائر وكل واحد منها يحوي ألف صنف وصنف، وشارع الحميدي وباعة الخضر والفاكهة الذين يتزاحمون فيه وينادون على بضاعتهم بكل فخر، وسوق السمك وزفارته المُحبَّبة التي تشي بوجبة شهية لو مددت يدك للقاروص والبوري والدِّنِيس الذي يملأ الطاولات المرصوصة أمام الدكاكين، حتى غرفة النوبتجيَّة في القسم ألِفتُها وأحببتُها بزحامها وضجيجها والتوتر الذي فيها، وعلى أول قائمة الذكريات طبعًا المكتب الخشبي الذي جلستُ إليه سنتين كاملتين، بشروخ وخدوش البُّورة الزجاجية التي تعلوه، ومساحة كقبضة اليد بسقف الغرفة أعدمتها الرطوبة وبانت بطانة الطلاء، فطالما رأيتها كلما عدتُ برأسي إلى الخلف وسرحت مني عيناي إلى أعلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلوح لي هذه الأماكن بين الحين والحين وصورة طِبْق الأصل مما كانت عليه وقتها، كما لو أن بالرأس أجهزة تصوير بالغة الدقة وبأيادٍ متمرسة..

تلوح وتبتسم وتشير وتغازل، وأنا في حالة من الاستسلام والنشوة كما لو أنها الساحر وأنا المسحور..

فليست الألفة - وإن كنت قد قلتُ هذا قبل قليل - هي التي حبَّبتني في هذه الأماكن، ولا الأمر مجرد دفقة نشوة تنتابني الآن.

لا هذا ولا ذاك..

فبكل أسف أخطأت في التعبير، فالألفة بضعة حروف لا تفي ولا تصيب، ودفقة العاطفة أشبه بفورة زجاجة المياه الغازية عندما يُنزع غطاؤها وسرعان ما تتلاشى، الأمر فوق ذلك بكثير وعصيٌّ على أن يأتي في كلمة أو يحتويه تعبير، فعندما نتذكَّرُ ما هو غالٍ علينا، عزيز رحل، موطنًا كان يومًا مرتعًا للصِّبَا أو أول الشباب، زمن راح وراحت معه أعذب السنين..

عندما نتذكر..

لا يعمل الخيال وحده أو تشتعل فينا حاسَّة دون الباقيات، تتحرك أغلب الحواس، فليست أطياف عوالمنا القديمة هي وحدها التي تلوح، الروائح أيضًا تلوح وتداعب الأنوف: قطرات مطر ربما سقطت في موقف أو لحظة محملة بروائح غبار أو أوراق شجر صادفتها، أو رائحة عطر أو جسد في موقف مختلف، أو لفحة بارود ملأت السماء من جرَّاءِ دَوِيٍّ وانفجارات حرب الاستنزاف التي شغلتنا في هذا الوقت الصعب..

كذلك الأصوات التي سمعناها من سنين تتلقاها الأذن، وكما لو أن أصحابها معنا الآن ويتحدثون، والنظرة والالتفاتة والضحكة والعبوس، واللمسة بطراوتها أو خشونتها، بل وكأنَّ قدمَيَّ تتجولان في دنيا فاتت وتعيش اللحظة التي عاشتها من قبل.

فالأمر لا هو ألفة ولا دفقة شجن واشتياق، كل هذا كلامٌ في العموم، فعلى قدر ما تتغشَّانا اللحظة وعلى قدر سحرها تخفُّ أجسادنا وكأننا على تخوم عالم الروح، وتتلبَّسنا طاقةٌ من طاقاته بسحرٍ يحيطنا من كل اتجاه..

سحر من عالم غير عالمنا، لا نفهم شيئًا من أسراره ولا حتى السر الذي فينا ويجعلنا قادرين على الاندماج فيه، سحر نعيش فيه مع الموتى، أماكن كانت أم أناسًا، وكأننا نراهم ويروننا نكلمهم ويكلموننا، ونخوض بأقدامنا لا في أماكن بعيدة بل وفي أزمان بعيدة، ونلبث في هذه النشوة دقائق أو أكثر أو أقل نعود بعدها بشرًا محدودي الإمكانات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكم جذبتني مقاهي بورسعيد..!

المقاهي البلدية، مقهى[5] السلكاوي واليسقي وعمران وفلان وفلان ومقهى (الفلاح) بالذات عند التقاء شارع أوچيني بشارع محمد علي، والتي كانت تنبض بالحياة وكأن مصر كلها تجلس فيها وتُدَرْدِش مع بعضها البعض.

كنت أتطلع لهذه المقهى براحةٍ كلما مررت أمامها، وأشهد الحركة والصياح والتصفيق عندما يعرض التلفاز مباراة للنادي المصري أو الصمت اللذيذ وتمايل الرءُوس باستمتاع مع شَدْوِ أمِّ كلثوم، غالبًا ما كان يصحبني مخبر واثنان من عساكر الدَّرَك يسيرون خلفي، أما الصول بهادر فكان يسير بجواري يحدثني وأحدثه ونتباسط، كان رجلًا مريحًا وأتعامل معه معاملة خاصة قياسًا على باقي الصولات زملائه.

وقد شعر بإعجابي بهذه المقهى، فأيدني:

- دي قهوة محترمة وصاحبها راجل مظبوط، لا يقدر حد من الزباين يفرك حتة حشيش على جوزة وللا شيشة، ولا لعب كوتشينة ولا أي حاجة ممنوعة، وبعد كده زي بقية القهاوي، يعني أم كلثوم وطاولة وخَبْط ورَزْع وهات يا حكايات شوية في السياسة، وشوية في الحرب، وشوية في اللي بيحصل عندنا هنا في حي العرب؛ وخصوصا في القسم بتاعنا.

ويُفلت منه لسانه:

- دا حتى سيرة البيه المأمور وعمايله...

وبسرعة يلحق نفسه، يسكت، وأنا كأني لم أسمع وأقول له:

- والله نفسي مرة كده أقعد هنا أنا كمان، أشرب فنجان قهوة وأشوف الناس...

فقاطعني مُسَأسِنًا:

- تقعد هنا!

ويؤكد:

- لا، لا، القهاوي دي بتاعة الأشكال اللي زيِّي، إنما حضرتك تقعد في الأفرنج، في الچيانولا وللا رويال دي المطارح اللي تليق لك.

ويبدو أنه شعر بعدم تقبُّلي لما يقول، فحاول التوضيح:

- أصل يا باشا لو حضرتك قعدت على قهوة من دُول..

ويسكت، ثم يبدو على وجهه بعض الحرج:

- أصل البيه المأمور..

ولا يكمل أيضًا، يستحي، أكيد يقصد أنه كان سوف يدعوني إلى مكتبه، ولأني لا أزال حديث عهد بالخدمة، سوف يكتفي بإعطائي درسًا عن كيفية احترام الرُّتْبة العسكريَّة التي أحملها فوق كتفي، أو ربما يجمع كل ضباط القسم ومحاضرة في الانضباط والأصول الواجب اتباعها عندما يكونون بين الناس، وألا يفعلوا كذا.. ولا كذا.. وسلسلة طويلة من الإملاءات، وعندما يتساءَلون سوف يحكي لهم عن الفعلة التي فعلتها، ولن يدَعَ لي فرصةً للدفاع عن نفسي بل وسوف يرمقني بغضب:

- مش جايز يا حضرة الملازم يكون اللي قاعد على الترابيزة اللي جنبك الجدع ده اللي اسمه (السمَّانة) بتاع الحشيش، وللا حد عليه تُهمه ومطلوب

في المباحث..

وقد يعلو صوته:

- هتتعامل معاهم إزاي بعد كده؟

وإخوتي الضباط يسايرونه، ومنهم من يقول:

- لا لا، ملكش حق يا فلان..

هذا فعلًا ما كان يقصده الصول بهادر، فمأمورنا كان رهيبًا ومع ذلك كنت منجذبًا إليه..

من عائلة كبيرة بزمام طنطا وأرض وعقارات، فراتب الحكومة لم يكن يعني له شيئًا، خصَّصه لبوفيه القسم، وإذا تصادف وأُعلنت الطوارئ لحادثة كبيرة استدعت بقاءنا، نصبح كلنا عالة عليه، طعامنا وشرابنا بل والسجائر التي ندخنها، يقدم لنا كل هذا بمحبةٍ ونَفْسٍ راضية.

آفته الانفعال والغضب على أقل سبب، يُدخلنا في دوَّامة صياح ولا يستطيع أحد إسكاته، فلا سبيل لإغلاق فمه إلا بضربةٍ فوق الرأس فيهوي وينعقد لسانه، حنجرته أقوى ما فيه، بل وأقوى من كل حناجر الناس، كان قادرًا على بهدلة الجميع، العساكر والناس وحتى نحن الضباط، وإن كان كل هذا في الهواء وتلحقه المُراضاة، حتى إننا كنا نخجل من كثرة اعتذاراته وتربيته على أكتافنا ونكاد نقول له:

- قول اللي تقوله واعمل اللي تعمله، إحنا مسامحينك!

كنا نحبه، وننظر إليه نظرة الأب المريض ضيق الحلْقُوم..

فهذا الثور الهائج كان قلبه أكثر خفَّةً من قلوب الزرازير، دخل علينا أحد الأيام وسائق (البوكس) يسير خلفه وبين يديه قطة بنت أسابيع هجرتها أُمُّها وتركتها في الشارع، وتولى هو رعايتها، شد أذن عسكري المراسلة الذي يقف على باب مكتبه ليتقي الله فيها، كبرت بيننا، وكانت تتجول بين المكاتب ولا يستطيع أحد أن يقول لها: بِمّ!

والملفت أنها كانت مهذبة وأحاسيسها مثل أحاسيسنا نحن البشر، ربما من طول عشرتها لنا فلا لها قطة كبيرة في مقام الأم أو الخالة تعلمها وتُفهمها أنها قطة وليست بني آدم، فهذه المسكينة التي تشرَّبت طباعنا لم تكن تفرَّ هاربة أسفل مقعد أو خلف مكتب أو تجري إلى الشارع إذا اشتعل غضب المأمور وقلب الدنيا، تظل واقفةً بجوار مَنْ يُوجّه لهم الصياح في انتظار أن

يهدأ، وتقترب منه وتحكّ جسدها في بنطاله مخفِّفةً عنه، وفهمت طباعه فلا تعود إلى حِجْره أبدًا حتى بعد أن يهدأ ويجلس، تنتظر إلى أن يناديها هو بطرقةٍ يطرقها على فَخِذِه، فتقفز ساعتها بفرحة جالسة في حجره وكأنها بَنّوتَة من بناته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

علاقتي به لم تَشُبْها شائبة..

بتاتًا بتاتًا..

كيمياء خفيَّة جمعت بيننا؛ خصوصًا من جانبي، فكلما تعاملت معه أو لاحظته مع الآخرين تنتابُني الدهشة، ردود أفعاله اللامعقولة، تهوُّره، جنونه وحكمته في ذات الوقت، السخرية حتى من نفسه، الغضب وكأن الواقف أمامه مقتول لا محالة ثم لا شيء بعدها سوى الضعف واللِّين وتطييب الخاطر.. كل هذا لم يُدهشني فقط، أسرني، كنت كمَنْ يشاهد فيلمًا في السينما إحدى شخصياته فالتة ويظل يتابعها بما يشبه الانبهار وحواسُّه مشدودة.

نوع من البشر به كل المتناقضات، والغريب أنها تعيش في سلام مع بعضها البعض، فثمَّة موازين بداخله، وقد لا يكون شاعرًا بها، تضبط ما بينها من تصادمات، فلا غلطة يغلطها إلا وتجبُرها حسنةٌ من حسناته ولا فعل طيب يصدر منه إلا وفي ركابه نقيصة.

يهلُّ علينا كل صباح الساعة السابعة والنصف..

يصيح الشرطي الواقف بالباب بأعلى ما فيه: انتباه.. فنستعد له كلنا، وممَّا من يواكب انتباهه قدرٌ من الـحَذَر أو ربما التوتر.

أول شيء يفعله، إلقاء نظرة على غرفة النوبتجيَّة..

غرفة كبيرة على يسار الداخل من بوابة القسم، حجمها بحجم ثلاث غُرَف تقريبًا، وهي حائط الصد أو جوف القسم الذي يبتلع كل الشكاوى والبلاغات التي تَرِدُ إليه..

ثلثها الخلفي يجلس فيه الضابط المُناوِب خلف مكتب خشبي معقول، فلا هو محترم يملأ العين ولا هو حقير كطاولات العرضحالجية الذين في الخارج، وإلى جواره يجلس مساعده أحد الصولات المحنَّكين وأمامه خشبة بأربع أرجل، مكتب والسلام! ثم حاجز مليء بفتحات تسمح بالرؤية والكلام وتبادل الأوراق، حاجز يطلُّ على الثلثين المتبقيين اللذين يقف فيهما الجمهور.

الجمهور.. الجمهور..

جمهور على كل شكل، أصحاب شكايات ومنهم المضروب وبه إصابات ظاهرة أو ملفوف بضمادات وإخوة وأحباب له جاءوا للمساندة، خارجون عن

القانون أيديهم مُكبَّلة بالحديد، شهود، ومتفرجون فلا مانع من أن يندسَّ في هذا الجمع شخصٌ لا علاقة له بأي شيء، واحد من آحاد الناس كان يمُرُّ مصادفةً أمام القسم فدخل ووقف يتفرج وعندما يُشيِع فضوله سوف ينصرف، وبحذاء جدار من جدران الغرفة دِكة يرتاح عليها العجائز وأصحاب العاهات، والنسوة اللائي يحملن أطفالًا على صدورهن أو فوق أكتافهن ولا يتحملن الوقوف.

وكُلُّ مَنْ في هذه الغرفة وبلا استثناء يحاول أن يبدو في صورة حسنة أمام الحكومة، مؤدبًا، ضحيةً، مغلوبًا على أمره ولو كان العكس، وهذا الذي كنا نفعله نحن أيضًا أمام المأمور، والذي يكون وَدُودًا هو الآخر ساعة الصبحية هذه، نام سبع ساعات في بيته وجهازه العصبي أخذ راحته ولم يُستفزَّ بعد.

يطلُّ طلةً سريعةً على النوبتجيَّة، ثم إلى الضابط المناوب والذي عادةً ما يكون مثلي من خِرِّيجي الكلية الـجُدُد.

يقول له بلطفٍ:

- عامل إيه يا فلان؟

ويُربِّت على كتفه:

- شد حيلك يابْنِي.

وقد يتلكأ قليلًا، يشبط في إحدى الواقفات شاخطًا فيها:

- واقفه بتتقصَّعي كده ليه يا ست إنتي!

لا يفعلها إلا مع النسوة مكشوفات الوجه، ويا لسوء حظها التي تصطدم به ولا تكون تعاملت معه من قبل وعرفت إمكاناته، يندفع في وجهها كالمدفع الكلاشينكوف، ويتدخل الضابط المناوب لتهدئته وهو يشير لها بأن تغلق فمها حتى يمرَّ هذا اليوم على خير.

وتبدو الراحة مع هزة رأس خفيفة على إحدى المحترمات الجالسات على الدِّكَّة، وقد تبتسم، فهذا هو رأيُها هي الأخرى وحسنًا ما فعله المأمور مع قليلة الأدب هذه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يدوم بقاؤه في غرفة النُّوبَتجِيَّة سوى دقائق..

يتنقل ببصره أثناءها بين وجوه الواقفين ثم يمضي إلى مكتبه، إلا معي حيث يمكث ساعةً كاملةً وقد يزيد، وليس في هذا مَزِيَّة لي بقدر ما هو تأخير وعَطلَة لي وللناس.

يرفع الكاب من فوق رأسه ويجلس بجانبي، يضعه على سطح المكتب الذي نجلس إليه، شَعْرُ رأسه أبيض بالكامل رغم أنه لا يزال في الأربعينات وأصابع يده ترتعش خفيفًا، لا تلاحظها إلا إذا دقَّقت النظر، وأحسَبُ أن تركيزه كان ضعيفًا، فعندما يرغب في قراءة شيء كان يمد يده إلى المكتب باحثًا عن نظارة القراءة، وننتبه بعدها إلى أنها مُــدلَّاةٌ على أنفه فيبتسم وأبتسم أنا الآخر، ويكون بالغرفة وقتها قرابة سبعة أو ثمانية أشخاص على الأكثر.

بلاغات أول الصباح أغلبها تافه..

فلا إصابات ولا تحفُّز أو شر وانفعالات على الوجوه، وأغلبهم نسوة، نسوة بسيطات من الشوارع الخلفية لحي العرب وجئن في شجاراتٍ خفيفة، ونعرفهُنَّ بالاسم: الحاجَّة وداد والحاجَّة سماح وأم فؤاد وفوزية وعواطف وهند وسعاد...، فهن يجئن إن لم يكن كلَّ يوم فيومًا بعد يوم أو مرة في الأسبوع على الأقل، القسم بالنسبة إليهنَّ ليس مكانًا للشكوى فقط بل وللتسلية وتضييع الوقت، التي تشكو لأن الماء رشح من غسيل جارتها على غسيلها، والتي تريد أخذَ تَعهّدٍ على حماتها وتتهمها بأنها بطحتها، وعندما نستدعي هذه الحماة تأتي ومعها وفدٌ من الجارات ويحلفن كلهن، وعلى أولادهن، بأنه: كذب. كذب. وبنت الكلب هذه هي المحقوقة!

يشير لهنَّ المأمور بأن يسترحن على الدكَّة إلى أن يأتي دورهن، ويُقبل علينا رجل عجوز يرتدي جلبابًا وطاقية من نفس اللون والنظارة التي على عينيه ذراعها ملحوم بالغراء، يخطو ناحيتنا بالراحة وصبي-أظنه حفيده– يمسك بيده وكأنه يقوده، فيبدو الانتباه على وجه المأمور ويقوم له رُبْع قَوْمَة، ويلتفت الحاضرون إلى ما يفعل ويتعجَّبون لهذا الاهتمام، أشعر أنا الآخر بالدهشة فهو لا يفعلها مطلقًا إلا لمن هم أقدم منه رُتبة!

وينشغل عني مُرحِّبًا بالرجل:

- عم مجاهد! أهلًا أهلًا، عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الرجل تقريبًا كقطعة الخُرْدَة، ولم يُلقِ أي سلام مثلما يتصور المأمور، بل ومازال تائهًا، كبير في السن بدرجة ملفتة، عشرون كرمشة على الأقل فوق وجهه، ولا أظن عقله صاحيًا هو الآخر أو مُؤهَّلًا للمشي في الشوارع ودخول أقسام الشرطة..

وقف شاردًا، ثم ابتسم وعيناه عليَّ أنا وليس على المأمور، أظنه حسب أنني الذي أتعامل معه، لم يصل إليه أن المأمور هو الكبير هنا وهو الذي يرحب به، والحفيد الذي يمسك بيده يَلكُزُه خفيفًا ليخرج من هذا الالتباس، وهو لا يشعر وكله معي، ربما لأني كنت لا أزال مرتديًا الكاب فوق رأسي والمأمور حاسر الرأس فتداخلت عنده الأشياء وحسبني أكثرَ أهميةً منه، أو ربما من الـخَرَف خلط بيني وبين ما يحمله في الذاكرة من خُيالاتٍ لأناسٍ بقُبَّعاتٍ رسميَّةٍ كان لهم أثرٌ في نفسه.. يجوز!

وبسرعة نادى المأمور على أحد العساكر، ومال عليَّ وبصوتٍ كالهمس:

- دا ميستنَّاش.

ويعلو صوته:

- دا عم مجاهد، مريض وحالته زي ما انت شايف، مش زي البلاوي دي!

ويشير بيده نحو النسوة الجالسات فيُحدِّقن فيه، يُحدِّق فيهن هو الآخر مؤكدًا وجهة نظره.

ثم يعود إليَّ:

- دا من أبطال 56، وبتتحكي عنه حكايات.

ويتدخل أحد الواقفين مناديًا المأمور بالاسم:

- طبعًا طبعًا يا عزام باشا..

فقد كان اسم مأمورنا كالطبل في دائرة القسم، الكل يعرفه حتى القطط والكلاب التي تعربد في الشوارع، وربما الفئران والبراغيث أيضًا، فرغم الزوابع التي كان يُثيرها ولا يستطيع العيش إلا بها كان الناس يحبونه ويَتعشَّمون فيه، كان وضعه بالنسبة لهم وضع عُمْدةٍ من عُمَد الريف لا موظفٍ في الحكومة.

ويضيف الرجل عن عَمّ مجاهد:

- دا واحد من اللي خطفوا الظابط الانجليزي اللي اسمه (أكسهام) سنة 56.

ويؤكد بثلاث أصابع من كَفِّ يده:

- دا غير التَّلَت عساكر الإنجليز، اللي خلَّص عليهم وشال الكابات بتاعتهم وفِضِل يجري يجري بيها وزفَّة ناس وراه بتهلل وتسقف في الشارع.

فيسترخي المأمور في مقعده متطلعًا إلى ما يقوله الرجل، غير أن الحديث ينقطع بقدوم العسكري الذي سبق وأن نادى عليه، فيقول له:

- خد عمك مجاهد لفؤاد بيه، يشوفه عايز إيه ويرتِّحه.

يقول له العسكري إن فؤاد بك في مأمورية خارج القسم، فهل يذهب به إلى حضرة الضابط (الزلَّاط)؟

- زلَّاط! زلَّاط إيه الله لا يسيئك! وهو الراجل الطيب ده حِمْل الزلَّاط، يللا يللا وبالراحة كده قَعَّده في مكتبي واطلب له واحد شاي.

فتتبدل نظرة الخوف التي في عين الولد الذي يصحب عم مجاهد إلى ابتسامة، ويلحظ هو ويسأله عن اسمه فيجيب الولد بخجل:

- محمود..

يُربِّت على كتفه ويُخرج له من الجيب الخلفي لسترته قطعة شيكولاتة أو بنبون، فدائمًا ما يحتفظ بهذه الحلوى على سبيل الاحتياط لو هبط مُعدَّل السُّكَّر في دَمِه، كان يعاني بشدة من هذا المرض وربما هو السبب في نوبات الغضب الشديدة التي كانت تنتابه.

وترمقه النسوة الجالسات بإعجاب..

ليست رمقةً بقدر ماهي فعلٌ وشهوةٌ وكلام، فمنهن من تتجاوب مع الطِّيبَة التي لاحظتها عليه ويبتسم وجهها دون حركةٍ على الشفاه، ومنهن من تتحرك غرائزها مع صوته العريض الخشن وكلمته النافذة على الجميع، وتكون رمقتُها رمقةَ مَنْ تتمناه رجلًا لها في المخْدَع والحياة، ولا يشعر هو بشيء من كل هذا، يلتفت إليَّ قائلًا:

- زلاط إيه وخيبة إيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

الزلَّاط اسمه بالكامل: حسونة عوض الزلَّاط..

أو (الحاج حسونة) كما كان يحب أن نناديه، غير أننا لم نحقق له هذه الرغبة أبدًا وصممنا على أنه الزلَّاط وكفَى، فلم يحجَّ أو من الأساس كان يعرف شيئًا عن هذه الفريضة، ومن حيث السن كان من سن المأمور تقريبًا رغم الفارق الكبير بينهما في الوضع والرّتْبَة، وبالنسبة لتضاريس الجسد ليس فيها ما يدعو للانتباه، واحد من آحاد الناس له رأس وقدمان وذراعان وقَتَب خفيف أسفل عظمة الرقبة من الخلف، ولا أظن أن أحدًا سوف يلحظ هذا القَتَب إلا إذا كان مشغولًا بهذا الزلَّاط ويضعه تحت الميكروسكوب.

بدأ هذا الإنسان حياته في البوليس كونستابلًا[6] في شرطة المطافئ، وعمّرَ فيها طويلًا حتى رُقِّي لرتبة الملازم فالنقيب ثم تخلصوا منه، باغتونا الملاعين، أخذونا على غِرَّة! تَسَحَّبُوا على أطراف أصابعهم حامليَنَهُ من يديه ورجليه ثم ألقوا به في حجورنا وجروا بأقصى سرعة.

أول مقلب شربناه أنه لا يفهم في عملنا، لا دراية له بالمرة بالعالم الذي نمرح فيه، الجنايات والجُنَح وقضايا القتل والنصب والسرقات، وإلى آخره من هذه الأفعال التي تَفنَّنا فيها وفي اصطياد مرتكبيها.

آفتُهُ الثانيةُ أنه ليس عنده استعدادٌ للتعلُّم، تيبَّس رأسه على ما كان يفعله من قبل، الخوذة فوق دماغه وحذاء مطاطي واسع الفم يصل إلى ركبتيه ثم الرَّمْح بالبَاشْبُوري في الشوارع أو تسلُّق سلالم الإطفاء، وحتى في هذه الأمور - وكما سمعنا من زملائه القَدامَى - كان فاشلًا ولولا مساندتهم له لوقعت مصائب ودخل السجن بسببها!

الزلَّاط وبكل أسف كان بالنسبة إلينا مجرد كِمَالة عدد، أو إصبعًا مدوحسًا لا يأتينا منه سوى الوجع والمشاكل، ورغم أننا قبلنا به بل وتغاضينا عن فهمه البطيء عندما كنا نشرح له كيف يشرع في كتابة المحضر وكيف يُنهيه والأسئلة التي يجب أن يسألها، رغم كل هذا كان رذلًا معنا وكلما تكلم كانت قبضة يده تتكوَّر بعنفٍ كما لو أنه يهددنا، والأدْهَى أنه كان يمرُّ بطَوْر المُراهقَة الثاني ويتلفَّت على النسوة اللائي يترددن علينا، وليتها لفتات خفيفة لطيفة، كانت معاكسات هذا الخائب معاكسات عبيطة مكشوفة تدخل في نطاق التحرُّش ولها عقوبات في القانون.

ففي إحدى المرات مثلًا دخل علينا رجل وجهه كتلة نار، وقال لنا: أريد المأمور حالًا، وبسرعة وبنفس النبرة الغاضِبة أضاف:

- لو سمحتم فين هو؟ وَدُّوني له حالَا؟

فنظرنا أنا وزميلي فؤاد لبعضنا البعض ثم أوصلناه إلى المأمور على الفور ونحن مدهوشون، فما بالُ هذا الرجل! كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه؟ لم يكلف نفسه حتى بتحيتنا، وما هذه العصبية ولماذا يتجاهلنا وقد عهدناه لطيفًا معنا، كما أن ابنته مكتوب كتابها على ضابط زميل لنا بقسم المناخ؛ أي أننا كما الأصهار والأهل، وقد كُنَّا عنده في البيت من قرابة شهر وعلى رأسنا المأمور وحضرنا حفلة كتب الكتاب..

وبعد أن عرفنا السبب، قلنا: معه حق والله وأنه من أدبه لم يغلط فينا، فلو أن شخصًا آخر كان في مكانه لبصق في وجوهنا..

فالقصه وما فيها أن زوجة هذا الرجل كانت عندنا هنا في القسم لأمرٍ ما، وأخونا الزلَّاط هو الذي تعامل معها..

لن أكمل..

فالكلامُ حساسٌ ويمسُّ أعراض الناس، كما أن فيه إساءةً للأدب لو خرج على لساني، لكن الحمد لله لحق المأمور الأمر وداواه حرصًا على سُمعتنا، وكانت هذه المرة الأولى التي يتهور فيها على الزلَّاط بهذا الشكل، والنذل مُطَاطئ الرأس ويحلف بالله أنها تفتري عليه!

قال لنا المأمور بعدها:

- والله رقبتي كانت قَدّ السمسمة، وحَبِّيت على راس الراجل ييجي عشر مرات.

ويضربُ كفًّا بكفّ:

- شوفوا قليل الأدب!

ويشتم هذه المرة بشتمة قبيحة، ثم يقول:

- بيعاكس حماة زميله! حد عمره سمع عن حاجة زَيّ دي!

ونحن من غيظنا منه ومن المخزون السلبي الذي له عندنا، نقترح عليه اتخاذ الإجراءات القانونية ضده، ولو أمكن التحفُّظ عليه في تخشيبة القسم لحين عرضه على النيابة باكر، وهو لا يعجبه كلامنا:

- إيه الكلام الخايب ده؟ نيابة إيه وتَحفُّظ إيه! بقى أنا بقول بلاش شوشرة وانتوا عايزين تولَّعُوا فيها! يللا يللا كل واحد على مكتبه.

وليحسم الأمر:

- أنا بهدلته بما فيه الحكاية، وخلاص اتفقت مع جوز الست إننا نِكْفِي على الخبر ماجور.

وبصوتٍ كالتَّمْتمَة:

- يا دي الفضيحة! آه يابْنِ الـ...

ولم يكمل الشتمة، اكتفى بالكَرَّة التي كَرَّها على أسنانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نَقْل الزلَّاط إلينا كان خازوقًا بالفعل..

ولطالما قال لنا المأمور إنه على استعدادٍ للاستغناء عن جاموسة أو جاموستين من زريبته التي في البلد أو حتى ربع فدان، ويغور هذا البني آدم من هنا.

وفي المقابل استمر الزلَّاط في نطاعته، وعندما شعر (بفَرْسَتِنا) منه إضافة إلى سبعة أو ثمانية تحقيقات أُجريَت معه، اهتدى إلى حيلة يُفلت بها منَّا ومن هذا المأمور الغِلِس الذي يلاحقه ملاحقة المجرمين، انتابته حالة من الاستشياخ..

أي والله.. تَمشْيَخ علينا!

فوجئنا به يصلي معنا بمصلاة القسم وهو الذي لم يفعلها من قبل، فقد كانت لنا مصلاة صغيرة شيَّدها المأمور على نفقته، وكان بعضنا يحرص على الصلاة فيها، صلاة الظهر أحيانًا أو العصر والمغرب والعشاء، فالقِسْم لا ينام ولا يرتاح أبدًا وفي كل دقيقة وبالليل أو النهار فيه ضباط وعساكر وناس ومشاكل وصلوات أيضًا، وقد اختار المأمور لهذه المصلية الشاويش (مهاود) ليرعاها ويرفع الأذان ويؤمَّ المُصلِّين، فمهاود هذا رجل غلبان، عيبه الوحيد أنه كَسُول، كَسولٌ على نحوٍ يثير الأعصاب، فإذا كلفته بعمل يُنجَز في ساعة زمن ينجزه هو في ثلاثة أيام، وإذا وبَّخته على ذلك يأتيك بآياتٍ من القرآن الكريم تحضُّ على التريُّث والصبر وطول البال، نعرف أنها آيات سياقها غير السياق الذي كلفناه به لكننا لا نجادله، تعبنا والله! ألسنتُنا وجعتنا وأصبحنا لا نكلفه بأي عمل، كما كان كثير التثاؤب، وعندما نلفت نظره إلى أن هذا عيب ولا يصح، يقول:

- وهو بخُطْرِي يا سعادة البيه، دي حاجات بتاعة ربنا!

فنسكت أيضًا، مللنا منه ولا يريد المأمور عقابَه بعقوباتٍ فيها خصم من راتبه، في رقبته تسعة عيال غير أمِّهم، فما شاء الله لم يكن ناجحًا ونشيطًا إلا في مسألة الإنجاب هذه، لكنه في المجمل كان الأنسب لرعاية المصلاة، فقد بدأ حياته (عَرِيفًا) في أحد كتاتيب بلدتهم بزمام مركز «أبو المطامير»، ويفهم في هذه الأمور كما أنه يحفظ القرآن صَمّ.

ومن ناحية ثانية أخذ الزلَّاط هيئةً مختلفةً غير التي كُنَّا نراه عليها..

رسم لنفسه (نيولوك) جديدًا، مسبحة في يده والمِسْوَاك معه على الدوام، إما على طرف البَنورَة الزجاجية التي فوق مكتبه أو في الجيب العلوي لسترته، وحاول تقصير البنطال الميري عدة سنتيمترات كالسَّلَفيِّين الذين يقصرون جلابيبهم؛ غير أن المأمور بهدله وكاد أن يجري وراءه في طرقات القسم، وأتى أيضًا بنسخة من القرآن الكريم ووضعها أمامه، ناهيك عن حشر عبارة: قال الله.. وقال الرسول.. في أي حديث يتحدث فيه، ونحن ننظر لبعضنا البعض، فلم يركع هذا المحترم ركعةً واحدةً أمامنا من قبل غير سِجلِّه الرديء الذي نعرفه، ومنَّا من قال: الزلَّاط! لا أصدق! ولو لبس جُبَّة وقفطان أو حتى زكَّاه شيخ الأزهر بنفسه!

والذي زاد وغطى الكتف القانوني الذي أعطاه للشاويش مهاود..

كنَّا على وشك صلاة الظهر ساعتها، وكالعادة تنحنح مهاود وسحب البيريه الميري من فوق رأسه مرتديًا طاقيته البيضاء، ثم كَبَّرَ: الله أكبر الله أكبر.. حَيّ على الصلاة.. حَيّ على الفلاح..

وأول ما فعل ذلك وخطَا خطوةً ليَؤمَّنا أوقفه الزلَّاط، وأشار له بإصبعه بأن يلزم مكانه.

الرجل لا حول له ولا قوة وهذا ضابط، بل ورئيسه المباشر، لم يفتح فمه بكلمة، أذعن على الفور سحب نفسه وجلس، وتبختر قليل الأدب الزلَّاط أمامنا وأمَّ الصلاة، كما كان عقب كل صلاة يبقى بعدنا نصف ساعة على الأقل، والناس في مكتبه ينتظرون ومنهم العاجز والمريض وصاحب المصلحة المُلحَّة، والمأمور في مكتبه يغلي وينظر بضيق في ساعته وهو يقول لواحد منَّا نحن الضباط:

- بيعمل إيه لحد دلوقتي في المصلَّية؟

فيجيبه هذا الواحد بلؤم:

- معتكف..

- م.. إيه؟ معتكف!

ويطرق بشدةٍ فوق مكتبه:

- جرجروه وهاتوه هنا قدَّامي.

وطيران إليه وعندما يعرف أن المرسال من المأمور وأنه غاضب، كان يخرج سريعًا من المصلاة..

منظره يكون لافتًا في هذه اللحظات، رباط الحذاء مفكوك وأزرار سترته الميري لا تزال مفتوحة، وهو ملخوم وحائر بين عَقْدِها أو التقاط الكاب الذي وقع من يده، كان يخاف من المأمور خوفَ الفئران من القطط، وفي ظنِّي - وأستغفر الله فيما أقول - كان يخشاه أكثر من خشيته لله الذي كان يركع له قبل دقائق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لذا عذرت المأمور عندما قال لي ونحن جالسان يومها في غرفة النوبتجيَّة:

- أنا خلاص غُلب حماري من الجدع ده..

وبعد أن مد يده مستخرجًا سيجارةً من علبته الكِنتْ:

- خلاص حطِّيت إيدي في الشق، ومعدش ناقص غير إني أقوم وأفرَّغ الطبنجة في راسه.

كنا نتحدث ساعتها بهمسٍ كي لا يسمعنا أحد وتعلو وجهينا ابتساماتٌ خفيفة، والنسوة الجالسات فوق دِكَّة النوبتجية يمدُدْن أعناقهن ليعرفن في ماذا نتكلم؟ وعلى من هذه الابتسامات؟ ويوددن لو اشتركن معنا في هذه الجلسة..

نسوة فارغات وماكرات في الوقت نفسه؛ خصوصًا الحاجَّة وداد والست أم شال أصفر التي بجوارها، فأول ما أعيننا تجيء في أعينهما كانتا تزمّمان شفاههما وتدَّعيان الانشغال بأنفسهما، لتَبْدُوا أمامنا أنهما ليستا مُتلصِّصتَيْن كما نظن..

ثلاثة أرباع الساعة والمأمور لا يزال بجواري واكتظَّت النوبتجية بالناس، أصبحوا عشرين، ويلحظ هو فيهبُّ واقفًا ليدَعَ لي فرصة للتعامل معهم غير أنه يتلكَّأ من جديد، يحكُّ شعره من خلف الأذن وكأنه تذكر أمرًا، فيعاود الجلوس وهو يجذبني من يدي لأجلس أنا الآخر، ويكسو وجهَه التوترُ وهو يقول:

- وعلى فكرة صاحبك عاطف رِيحْتُه فاحت، مش كفاية الزلّاط! كمان عاطف!

ويزداد توتُّره:

- والظاهر إن نهايته على إيدي..

ثم يقف، وهو يهمس بقلق هذه المرة:

- أصل أنا كل خوفي..

ولا يُتمُّ عبارته يدعني وينصرف، وكعادته ينسى الكاب فوق مكتبي..

هذا الكاب كاد أن يودي بي أيامها، فقد روَّج الضباط الملاعين زملائي إشاعةً بأني على علاقةِ حُبٍّ مع ابنة المأمور الطالبة في الثانوي، وأنه على علم ويبارك هذه العلاقــة، والـخُطَّة التي اتَّبعها للتقريب بيننا البطل فيها هذا الكاب، فبعد أن يجلس معي في النوبتجية يتركه عمدًا على سطح المكتب وليس سهوًا كما نظن؛ لأن ابنته وضعت رسالة صغيرة لي بفتحة في جوفه من الداخل، أقرؤها أنا وأكتب الرد ثم ألحق به مهرولًا لأنه نسي الكاب عندي، أسلمه له بعد أن أكون قد دَسَسْتُ فيه رسالتي.

من لُطْف الله أن هذه الإشاعة المجرمة لم تصل إليه، وإلَّا لكان ذبحنا وشرب من دمنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

لا يُنسى أبدًا حضرة الضابط عاطف..

لا بقلبه الطيب ولا بوجهه السَّمْح السهل أو بالحَوَلِ الخفيفِ الذي بعينه اليسرى، وعندما سألناه مرة: كيف أفلتت هذه العين من الكشف الطبي عندما تقدمت للكلية؟ قال لنا:

- ببركة الشيخ المهدي، غطَّاها بكَفّ إيده وقعد يقرا عليها صباحية يوم الكشف.

واعترض على أي تعليق منَّا بأن المسألة مسألة حظ لا أكثر، فربما غَفِلَ عنها الطبيب ساعتها، وكثيرًا ما تحدث هذه الأمور..

هذا الذي قلناه وهو يرفض، وبتسليمٍ وقناعةٍ يقول لنا: المسألة ليست شغل بشر حسبما تظنون! فلا غَفلة الطبيبِ هي الأساس أو الكلمة كلمة الحظ والظروف إنما هو تدبير من الله، فالدعوة الصالحة تنقذ الإنسان ولو من مخالب الأسد، ويضرب لنا مثلًا بسيدنا (يونس) الذي نجَّاه الله من بطن الحوت وغيره.. وغيره.. ممن أنقذتهم الدعوات الصالحة، مُعزِّزًا كلامه بآياتٍ من القرآن الكريم وأقوالٍ من التراث.

ونحن ننصتُ له ونهزُّ رءُوسنا، ننصتُ ببساطةٍ إذ كان الحديث مجرد دردشة من تلك الدردشات التي تشبه اللَّغْو، دردشة خفيفة تتنقل فيها الكلمات من فمٍ إلى فمٍ دون تدقيقٍ أو رغبة في جدل حتى ولو كان فيها ما يستحق، وربما أنا من دونهم الذي لاحظتُ أنه كان يتحدث مثلما يتحدث والده الشيخ مهدي بالضبط، فنفس الكلمات ونفس النبرة الحانية ونظرات العين التي تحتوي، فقد رأيت هذا الشيخ المسالم المتوكل على الله عندما ذهبتُ صحبةَ عاطف إلى مسجد السيدة نفيسة وتربَّعتُ جالسًا في الحلقةِ التي تلتفُّ به، كان الناس يومها مفتونين به وأنا الآخر، غير أن الافتتان لم يَطُلْ، إذ ناوشتني بعدها عدة تساؤلات أفسدته عليَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا الشاب الوديع كان أشبه بالزهرة بيننا..

زهرة في حوض كله ثمار صبَّار أشواكه مؤذية، فالجوُّ الذي نعمل فيه كان صعبًا، مشاجرات وإصابات وعلُوّ صوت وانفعالات، وغلظة في التعامل بالطبع ولا مانع من طولِ اللسان وقلَّة الأدب، وفوق كل هذا سخافات كسخافات أخينا الزلَّاط مثلًا.

كلنا كنا مشدودين له، الضباط والعساكر والناس الذين يترددون علينا، حتى الأشقياء وأصحاب المشاكل المحجوزون في تخشيبة القسم كان ملجأُهم وفي وقت الضيق يستغيثون به، فإذا تعرض أحدهم لضغطٍ وغلظةٍ من رجال المباحث يظل يصرخ من داخل التخشيبة طالبًا حضرة الضابط عاطف، ويطرُق بعنفٍ وبكلتا يديه على الباب ويصيح ونحن نحاول إسكاته، نقول له:

- البيه نائب المأمور بذات نفسه جاي لك حالًا.

وهو يولول من الداخل:

- مش عايز حد غير البيه عاطف..

وبصوتٍ أعلى يكررها عدة مرات، وتزداد اللَّمَّة أمام باب التخشيبة من الخارج وهو يقبض على الأُكْرَة من الداخل ليمنعنا من اقتحام الباب عليه، وعاطف ليس موجودًا الآن فنقترح اسمًا آخر:

- خلاص خلاص حضرة الظابط الزلَّاط آهو داخلَّك أهه..

وكأننا ألقينا بحفنة جاز على النار التي فيه، تنتابُه حالةٌ هيستيريَّة:

- إلَّا البيه الزلَّاط! وهو بالخصوص ميدخلش عليَّه.. لأه. لأه. لأه.

ويمدُ ويطيل في كلمة (لأه)..

ويزداد هياجُه..

يضرب رأسه في الباب محاولًا إيذاءَ نفسه، أو يهددنا بأنه سوف ينتحر وأنه اليوم قتيل القسم ودمه في رقبتنا، ونحن نحايله وعندما ينفد صبرُنا نركل البابَ وندخل إليه عنوةً، فيُفاجئنا بشطر موسى من أمواس الحلاقة يُخرجه من بين شفتيه ويهتزُّ على طرف لسانه..

لا أدري متى ولا كيف أخفاه هذا اللعين داخل فمه، وبإشاراتٍ من أصابعه يعاود التهديد بأنه سوف يبتلعه إن لم نأتِ له بعاطف في الحال! فنرضخُ شفقةً به ولدرءِ المسئولية من بابٍ آخر ونأتي له بعاطف من تحت الأرض، ويدخل إليه ويُغلقان الباب، نسمعُ بعدها البكاء، بكاء بنهنهة، يخرجُ هذا المسكينُ من العنف والشراسة وهذا الغضب الذي كان فيه إلى حالةٍ من البراءة والوداعة، يبدو كما لو أنه طفلٌ ابن ثلاث أو أربع سنوات، وعاطف الذي يُربِّت على كتفه هو أمه التي يشكو لها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما كان شاطرًا في أعمال التحقيقات..

حتى إن المأمور أسند إليه تدريب الضباط الجُدُد، فهو الذي علَّمني أسرار العمل وعندما كنت أرافقهُ في البلاغات المُهمَّة، جناية قتل أو سرقة بإكراه أو غير ذلك من الأفعال الغليظة، كان يبدو لي كما لو أن له ألفَ عينٍ وعين، لا تفوتُه شاردةٌ ولا واردةٌ في مسرح الجريمة، وكنا أحيانًا وبعد استكمال إجراءات إحدى القضايا نثرثر بشأنها، ويهز هو الملف الذي يحوي أوراقها ويقول عن الجاني:

- لابساه.. لابساه.. وهياخد في الحكاية دي تَلَت سنين.

أو يقول عن قضية أخرى:

- براءة! هيفلت منها ويطلَّع لنا لسانه.

وعندما أجادله، يُشيح بيده مصممًا:

- براءة يعني براءة.

ويُلْحقها بكلمتهِ الأثيرة:

- تراهن؟

ويلاحظ التردد البادي على وجهي، فيحاول إغرائي:

- جنيه منك وخمسة مني؟

ويدفعنا الشغف بالنتيجة أو ربما لكسب الرهان إلى متابعة هذه القضايا بمحكمة بورسعيد، وتجيء توقُّعاته في محلها ويفوز هو، لا يتردد وقتها أو يشعر بأي حرج وهو يخطف الجنيه من يدي، يعتبره حقًّا له، لعبة لعبناها ومن يخسر عليه تحمُّل النتيجة، غير أنه كان يردُّه لي بعد ذلك، لا يرده نقدًا مثلما أخذه فهو لا يردُ حقًّا أو دَيْنًا عليه، هذا مفهومه، يرده في شكل تذكرة سينما مثلًا أو مشروبٍ خفيفٍ ونحن أمام الشاشة، فمن داخله لم يكن يقبل أن يُدخل في ذمته مالًا ليس ماله!

هذا هو موقفه من المال الذي يتحصَّل عليه بهذا الطريق، كما لو أنه يعتبره مالًا لقيطًا، تائهًا بيني وبينه، يده عليه غير أنه لا يرغب فيه، وأنا عيناي عليه لكني الغلطان فأنا الذي فرطت، ولا يجد حلًّا – حسبما أظن – إلا أن يُنفقه عليَّ ولكن على النحو الذي يراه هو، فمرة تذكرة السينما ومرة دعوة للعشاء ويكمل هو باقي الحساب، فصراع كان يجري بداخله بين حسِّه الديني المرتفع

ونهمه الشديد للمقامرة، لعب الورق تحديدًا! تأكله يداه فيلعب ويلعب إرضاءً لشيطانه، وعندما يفوز يبدأ التأنيب ويتصرف على هذا النحو.

كان جبارًا في لعب الكوتشينة..

وصل فيها لمستوياتٍ عالية، ولو الظروف تسمح بالاحتراف لخطفته نوادي القِمَار في مونت كارلو أو لاس ڤيجاس!

لم يُبدع وأصبح له باعٌ في هذه الرذيلة هنا في بورسعيد، من يومه وهو هكذا، فمنذ أن كان طالبًا بالسنة الثالثة بالكلية وأنا ما أزال في السنة الأولى وهو مشهور بهذه الخَصْلة، والله أعلم بحاله أيام الإعدادي والثانوي فلا أعرف عنها! أما في كلية البوليس فكاد أن يُرفَت لو التدخُّلات، أبوه هو الذي أنقذه، جاء إليهم في الكلية فاستحوا منه.

كان كاملًا في كل شيء تقريبًا إلا هذا المرض الذي ينهشُ فيه.. وعندما عُيِّنت بقسم العرب وجدته أمامي، وبنفس الشهرة التي اشتهر بها في الكلية، التطور الذي لحق به أن لعب الكوتشينة أصبح بالفلوس.

ويُقال أنه كوَّن فريقًا تحت رئاسته من أحد الأطباء بالمستشفى الأميري وموظف في بنك القاهرة ورجل يوناني اسمه إستفانوس يملك محلًا للخردوات، وأن هذا الفريق عَفْرَت بورسعيد كلها، كنس الفرق المماثلة كافةً وأفرغ جيوب كل من يجلس أمامهم.

يقال أيضًا أنه من شدة ثقته بنفسه وبتشجيعٍ من رفاق اللعب مدَّ نشاطه إلى المحافظات المجاورة، فأثناء الإجازات كانً يقضي يومَي الخميس والجمعة في دمياط وأحيانًا طنطا أو المنصورة، أخرس اللَّعيبَة الكبار هناك، أفهمهم أنه الكبير في وجه بحري كله، ومن لديه كلامٌ آخر فليأخذ خطوة إلى الأمام ويُريه نفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والغريب أنه كان مواظبًا على الصلاة..

يصلي معنا بالمُصلَّاة ويخرج والإشاعات تملأ القسم، وَدْودَةٌ وهمسٌ بين الصولات والعساكر والموظفين، كاتب الضبط وكاتب الجدول وعم يعقوب المسئول عن الفيش والتشبيه والحاج دربالة الباشكاتب، وكل يوم نسمع الجديد والكلمة تصبح عشرين، ومَنْ يتكلمون أو يستمعون يفعلون ذلك بحذر وهُسّ.. هُسّ.. ويتلفَّتون خوفًا من أن يصل شيءٌ لضابط من الضباط وإلَّا وقعوا في سين وجيم، وقد تفرقوا في تقديرهم لهذا الأمر:

البعضُ تُعجبه هذه الإشاعات، تبدو له كـ (الحواديت) ويتلذَّذ وهي تُحكى وتبدو على وجهه علامات الشغف والاندماج، اعتراضه فقط على اسم البطل، لا يتصور أن عاطف الذي يعرفه وتعامل معه يمكنه ارتكاب هذه الأشياء؛ ومن ثَمَّ يرفع كفَّه رافضًا:

- عاطف بيه! مصدقش! بقى الراجل الصالح ده يغضِب ربِّنا، لا لا قولوا كلام تاني..

والذي من حبه لعاطف ينسى الصح والغلط والدين والشرع، ويتفاخر:

- والله جدع، يَرَاوَة عليه، دا أنا سمعت كمان إنه بعد ما فضَّى جيوب الجماعة بتوع شربين قلَّعهم هدومهم!

ويسترسل:

- أي والله، خلَّاهم يلعبوا بيها وبرضه كسبها ورَوَّحهم عريانين!

ويضحك مندمجًا مع الفِرْيَة التي افتراها، والذي يستمع هو الآخر على نفس الخط ويُصحِّح له:

- بس الحكاية دي كانت في دمياط يا حضرة الصول عفيفي، مش في شربين.

أما أهل الشرع والحلال والحرام أمثال الشاويش مهاود فكانوا يقعون في مأزق، حُبُّهم لعاطف حُبٌّ جارف لكنَّ أحكام الشرع واضحة لا لَبْس فيها، غير أنهم كانوا يتصرفون:

- أعوذ بالله المَيْسِر حرام ودي حاجة ما فيهاش كلام، بس إحنا شُفنا بعنينا؟

ويُحدِّق فيمن يتكلم معه، ويسأل ويجيب في الوقت نفسه:

- شفنا؟ لا مشفناش، يبقى بلاش افترا ومنظلمش الراجل.

وربما إزاحة الشاويش مهاود من إمامة الصلاة، جاءت وبغير قصدٍ في صفِّ عاطف وقلَّلت من سخونة هذه الإشاعات، فهذه الإزاحة لم تمرَّ على مهاود ببساطة، صَرَّها في قلبه وكان للزلاط بالمرصاد..

فمهاود ليس عبيطًا كما يبدو عليه، فلاح وقِرَارِي ويأخذ حقَّه ولو بعد حين، والزلَّاط كتلة حماقة وحصيلته في القرآن لاشيء، ثلاث أو أربع سُوَر وكلها من السُّور الصغيرة، «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» و «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ» و«إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفَتْحُ»، فليس من اهتماماته قراءة القرآن فما بالك بالحفظ، تاريخه

يؤكد ذلك، القديم منه والجديد، ولما قفز على الإمامة شعر بالكسوف، فكل يوم يتلو نفس السُّوَر، ويبدو أنه شعر بأن الذين يُصلُّون خلفه انتبهوا لنقطةِ ضعفهِ هذه، فأكثر العساكر أصولهم من الريف وطالما صلُّوا في جوامع بلادهم خلف أئمَّة عتاولة يحفظون القرآن كما أُنزل، وللمباهاة غالبًا ما كانوا يَتْلُونه من أصعب السُّور.

أحسَّ بذلك ولدرء هذا العيب حاول حفظ أجزاء من سُورة (البقرة) و(النساء) و(آل عمران)، ومع ذلك لم يكن موفقًا، كان يغلط فالحفظ على كِبَر مسألة صعبة، ومهاود (حامل القرآن) يلبد له في الدُّرَة، فما إن يبدأ الزلَّاط في التلعثم لا يرأف به كدأبِ الناس مع بعضهم البعض في هذه المواقف، لا يُسعفه بالمفتاح، بكلمةٍ أو كلمتينِ من بقية الآية تساعده على التكملة، يبادره بنحنحة تزيد من التَّوَهَان والبَرْجلَة التي هو فيها، ولا يمسك بالآية بالتالي، تُفلت منه، ويرتبك، والمسألة مسألة نفسية فيما أعتقد، فهو يعرف أن النحنحة آتية من خَصْم بينهما ثأر وإمامة مخطوفة، وتزداد لخبطتُه، واللئيم مهاود لا يزال يطارده بنحنحاتٍ وراء بعضها البعض وبنبرةٍ خبيثةٍ فيها من السخرية وفيها من التشفِّي، ولو حلَّلناها في مختبر للأصوات من تلك المختبرات المتطورة التي تفكُّ شفرات النحنحات والهمهمات والأشياء المماثلة، لكان معناها: أنت فاشل يا زلاط! وأنا الأحقُّ منك بالإمامة، فلم تَصُنْها يا وغد ولا عرفت مقدارها..

وكل هذا يجري في لحظاتٍ أو في رفَّةِ عينٍ ربما، وقبل أن تبدأ الهمهمات من باقي المُصلِّين ينحشر عاطف في هذه المتاهة، يُصحِّح للزلاط ويظل معه حتى يُتمَّ الآية التي شرع فيها..

كنا نقول له بعدها:

- الحمد لله إنك لحقته..

ومن يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم! دا انت على كده حافض القرآن كله، تلت أربع مرات ورا بعض وانت عمال تصلِّح له.

فيحني رأسَهُ بحياء:

- ربنا يبارك له الشيخ مهدي، هو اللي حَفَّضنِي القرآن.

وإلى جوارنا يدور همسٌ آخر، الصول بهادر يقول لحمدي أفندي كاتب الضبط:

- شوف العالم الوسخة، وبيقولوا عليه قِمَرتِي!

وحمدي أفندي مشيحًا بتأفُّف:

- ولاد كلب، عالم كدَّابة..

ويصل الأمرُ لمسامعِ المأمور فيسند رأسه على كفِّه:

- يا دي الهنا اللي أنا فيه، الإمام غشيم ومتعافي واللي بيرده بتاع كُومِي وبَصْرَة وحَلَّق حُوش!

ويسأل:

- أمَّال فين الشاويش مهاود؟

نحكي له فيطرُق على بنورة المكتب بغضب طالبًا مهاود، ويأمره بالصلاة بالناس من باكر، وأطرق أنا موضوع عاطف وأكيل المدح فيه وفي حفظه للقرآن، وأن الإشاعات التي تدور حوله كاذبة، فيرمقني المأمور باستخفاف:

- يابْنِي يا حبيبي خلِّيك في حالك، دا مبهدل الدنيا! تلت أربع محافظات شغَّال عليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

على بلد المحبــوب ودِّينـــــي

زاد وجــدي والبُعْد كاويني..

يا حبيبي دا أنا قلبي معاك

طول ليلـي سهـــران ويَّــاك..

تتـمـــنَّى عيـــنـــي رؤيـــــاك

أشـكيلـــك وانـــت تـــواسينـي..

جذبتني اللهفة التي تنساب من صوت أم كلثوم واللحن العذب الذي يصاحبها، سمعت هذه الأغنية عشرات المرات من قبل غير أن مذاقها هذا اليوم كان مختلفًا، أدخلني في دفقة حزن، حزن شفيف لا دمع فيه ولا شوائب أو انفعالات تخرج عن السيطرة، حزن مكتوم، فيه شجنٌ وفيه ألمٌ وفيه أسًى ولا علامة له تبدو على الوجه..

الغناء عمَّن تتأسَّى لفراق خليلها، والفراق عندي فراق أخي الضابط في الاستطلاع الذي راح أول أيام حرب 67، راح دون أن نعثر له على جسد أو أي شيء من رائحته وهو يموت، لا سُتْرة ولا قميص ولا منديل أو كلمة في خطاب كان يود إرسالها لنا لكن الموت سبق، وحاق بي التأثر ولا أدري على مَنْ بالتحديد؟ على أخي؟ أم على بلدي بعد الغارة التي وقعت صباح أمس والبيوت الأربعة التي راحت في بورفؤاد وأكل الموت أصحابها.

كنتُ عائدًا لتوِّي من قسم العرب بعد يومِ عملٍ استمر اثنتي عشرة ساعة، من السابعة صباحًا وأنا هناك وقدماي تحملانني بصعوبةٍ على طُوَار شارع أوچيني، أذان المغرب يأتي من مسجد العباسي على يساري، ومذياع قهوة (الفلاح) على اليمين ويأتي منه هذا الشَّدْو، وما أشعر إلا وقدماي تدفعانني إلى الدخول وأحد صبية القهوة على بابها ويرمقني بقلق، قطعًا يعرفني، فكلنا ستة أو سبعة ضباط ومعروفون بالاسم والشكل، وكانوا يحذرون منا فالنَّكَد والشر في ركابنا دائمًا حسب فهمهم، وإذا أقبل أحدنا يظنون أن وراءه أورطةَ عساكر ومخبرين، وقلَّبًا لنَصْبَة الشاي والقهوة رأسًا على عقب بحثًا عن أية ممنوعات، ولا مانع من زُغْدين للواقف فيها لو أبدى أي اعتراض، وتفتيش عمَّن يلعبون الطاولة والكوتشينة بالفلوس أو نخطف أحد الجالسين ونجري به كعادتنا، غالبًا ما يكون مُتَّهمًا أو محكومًا عليه مطلوبًا لنا إلا أنهم كانوا يتعاطفون معه، فعلى غير الحق يبدو لهم كما لو أنه مَجنيٌّ عليه ونحن الجُناة!

ويلعنوننا نحن وآباءَنا وأمهاتِنا بعد أن ننصرف، وإذا تصادف وعُدْنا بعدها لأي سبب وما حدث لا يزال ماثلًا في الذاكرة، كانوا يقولون لنا عن الرجل الذي أخذناه معنا:

- يستاهل!

أو:

- ربنا يبارك لكم يا باشا، نضَّفتوا القهوة!

ويعودون لشتيمتنا بعد أن نذهب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا زحام في القهوة..

فالنشاط لا يدبُّ إلا بعد خروج الناس من صلاة المغرب والذُّرْوَة عقب صلاة العشاء، وجلست أنا إلى منضدةٍ تطلّ مباشرةً على شارع محمد علي، وعلى الفور جاءني الصبي التقاني أول ما جئت وبادرني بابتسامةٍ واسعة، يبدو أنه اطمأنَّ بعدما لاحظ الأمان على وجهي، وسألني عمَّا أطلب فقلت: فنجان قهوة.

الحاج علَّام صاحب القهوة كان جالسًا هو الآخر خلف منضدةٍ عاليةٍ ذات أدراج وأمامه كومةٌ من ماركات المشاريب، والصِّبيَة ذهاب وإياب عليه يتسلَّمُون الماركات ويسلمونه الحساب، رمقني عدَّة مراتٍ من أول ما دخلت وكلَّها رمقاتٌ خاطفة، وفي يقيني أنه غيرُ مستريحٍ لوجودي، قدم غريبة هلَّت عليه! وأي قدم، فهو يعرف هذه الأشكال التي لا يأتي الخير من ورائها، فإن لم أفعل شيئًا هذه الليلة فعلى الأقل أنا أجمع معلومات والله أعلم بما سوف يحدث فيما بعد.

هذا اعتقاده فيما أظن، بل واعتقاد كل أصحاب المقاهي المحترمة ذات الصيت، يتحسَّسُون منَّا، فهم ليسوا كأصحاب الغُرَزْ والمقاهي المحشورة في الأزقَّة والخرابات، والتي أغلبها سُمعته بطَّالة وأصحابها من الأشكال الشمال، ذِمَمُهم خَرِبَة وتفسيرهم للصح والغلط تفسير مدهش، لا يفرق معهم أي شيء ما دام وراءه فلوس ومكسب، زبائنهم أيضًا من نفس الطينة!

كما كانوا أساتذة في (اللَّبَط)، واحد منهم جعلنا ندور حول أنفسنا ونكاد نشدُّ شعرنا من الغيظ، اسمه (حِنْكِش)، وغُرَزته هناك في عزبة النحاس التي أُزيلت فيما بعد، وكانت مأوًى لعربجيَّة الكارُّو ولفُّ الحشيش في سجائر هي حِرْفتُه، خمس أو ست مرات ونحن نهاجمه ولا فائدة، ومن خَبْصَة انخبصت لنا

عرفنا أن هذا الجبان يُخفي الحشيش في مخبأ لا يأتي على بال أحد، مخبأ ليس من اللياقة ولا الأدب ذكر اسمه..

ونتذكَّر بعدها ضاحكين ومغتاظين في الوقت نفسه، ونقول:

- يابْنِ الكلب!

- شوف الوِسِخ! طب وحياة...

ومن يلسع جبهته بكفِّه:

- أخ! عدِّت علينا إزاي دي؟

والذي يُشاطره الرأي:

- والله أنا قلبي كان حاسس، وِشُّه يا ناس كان هيطرشق وأنا بفَتِّشه، كان عامل زي الفرخة اللي عليها البيضة!

ونهاجمه من جديد قاصدين هذا المَطْرَح، ونشير لمن معنا من المخبرين بأن يبدءُوا، ونشجعهم إلا أنهم يتذمرون ويتراجعون خطوةً إلى الوراء، والذي يحتجُّ:

- أعوذ بالله! أحُطّ صباعي في..

أو يقول:

- لا إله إلا الله! بس الواحد كده تركبه الحُرْمانيَّة..

ويُبَرْطِم بصوتٍ لا يصلنا:

- إنْعَل أبو المباحث على أبو اللي خلَّانا نشتغل في المباحث، دا إيه الوساخة دي!

ونحن مستمرون في التشجيع إلى أن يمدوا أصابعهم الملفوفة بخِرَق ومناديل، عشر دقائق ونحن وهم مُتأفِّفون وممَّا من على وشك التقيُّؤ أو تقيَّأ بالفعل، ولا فائدة أيضًا، نفشل كالمرات السابقة والملعون يضحك علينا في سِرِّه فقد فهم أننا عرفنا واستبدل المطرح بآخر، كان عِفْرِيتًا ودائمًا ما يسبقنا بخطوة..

أما الحاج علَّام وأمثاله فأناسٌ من عجينة مختلفة، أفاضل ولا يقبلون بأي غلط في مقاهيهم أو يريدون أية شوشرة، فلو حتى كان مجيئُنا ليس لتفتيش

القهوة والعبث فيها وإنما فقط لضبط متهم يجلس عنده، كان يعتبرها فضيحةً له ولسُمْعة القهوة وأن الناس سوف تبتعد عنها..

ويرِدُ على بالي أيضًا وأنا جالس ما سمعته من أحد زملائي بأنه كان موجودًا بالچيانولا إحدى المرات، وجاءت قوة من قسم الإفرنج وقبضت على أحد الجالسين، كان موظفًا كبيرًا في إحدى التوكيلات الملاحيَّة ومُتهمًّا بالاختلاس، وجاء السِّنيُور ماركو ساعتها على الضجَّة، سلم على أفراد القوة بحفاوةٍ ومعهم إلى الباب بعد أن أنجزوا مَهمَّتهم، وعَمّ (حسان) الجرسون النوبي زميل تودري واقفٌ ينتظره وبانفعالٍ يُظهر امتعاضه:

- فضيهه! والله فضيهه!

ويُشيح بيده:

- لا. لا. فضيهه! أنا مش مبسوطة من الناس دي بتاع البوليس!

والسنيور ماركو يزجره:

- ليه فضيخة؟ فضيخة علسان إيه ريِّس حسان؟ دي ناس بتنفِّذ قانون ولو كان النَّفر دي على باب جامع وللا كنيسه لازم أمسِكه.

ويُربِّت على كتفه:

- الفضيخة لما يكون الچيانولا بتقدم حاجة مغشوش، وللا فيه غلط وحاجات عيب.

فالأمر مختلف بين ما في دماغ سنيور ماركو ودماغ الحاج علام، أما المحترم حِنْكِش فأكيد خارج حساباتنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورشفة ثانية من فنجان القهوة، وأم كلثوم بصوتها الأخَّاذ تختتم شَدْوَها:

يا هـــنـــــايا لمــا أفــــــرح بيـــك

وأتهنَّى بقُرْبـــــك وأنـــــــاجيك..

يا مسافر على بحر النيل

أنا ليَّه في مصر خـــــليل..

مــن حُبُّـــــه ما بنـــام الليـــــــــل

على بلد المحبوب وَدِّيني..

ويلوح لى وجه أخي فأتأمل الساعة التي تحيط بمعصمي، ساعته! لم يرَها ولا فرح بها، يوم ميلاده كان على وشك وابتعثُها له غير أنه لم يعُد، غاب الغيبةَ التي لا يأتي منها أحد، لم أشأ حفظها فدفءُ يدي أحنُّ عليها من أدراج وأرفف الدواليب..

وكأنَّ أمي هي الأخرى معي..

كفُّ يدها تحنو عليَّ ووجهُها مبتسمٌ على غير ما كانت عليه في أيامها الأخيرة، والطَّرْحَة البيضاء التي طالما رأيتها فوق رأسها..

لَحِقتْ به، قتلها الهَمّ، لم تذرف دمعةً واحدة، تعطل الدمع وليته ما تعطل! فبعد أسبوع انكفأت على وجهها وأشهُر وغادرتنا، أبي الضاحك البَشُوش المقبل على الحياة عاش بعدها سنينَ طويلة، لكن من هذا الذي عاش وبقي معنا؟! واحد آخر ليس فيه شيءٌ من أبي، صامت مُتجهِّم مكروش النّفسِ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويرمقُني الحاج علَّام من جديد..

وأول ما التقت أعيُننا تلقَّاني بابتسامةٍ مُرحِّبةٍ وربَّت بكفِّه فوق طاقيته البيضاء على سبيل التحية، يبدو أنه وفي غفلة مني جمع عني بعض المعلومات من صبيته..

يعرف أني ضابط في القسم، لكن من أي نوع بالضبط؟

نوع الزلَّاط! الأشكال التي تصيح وتركل المناضد والأكواب وتستخدم يدها عند اللزوم، أم من نوع حضرة الضابط عاطف والضابط فؤاد، أو مأمورنا عزام بك الذي لو طال بقاؤه في القسم عدة سنوات أخرى لالتفَّ حوله الناس أكثر وأكثر، ولربما رأينا صورتَه مُعلَّقةً في المقاهي وعند باعة العصير..

وكانت الناس قد خرجت من المسجد العبَّاسي بعد الصلاة وأقبلت علينا زُرَافاتٍ زُرَافات، أناس غير أناس الچيانولا، فلا قبَّعات على الرءُوس ولا لَكْنَة غريبة إذا كان الحديث بالعربية أو بذلات موديلاتها حديثة ووردة أو منديل على شكل ثلاثة أهرامات تبرز من الجيب العلوي للچاكت، أو عجوز من عواجيز بورسعيد الأثرياء لا يزال مُصمِّمًا على الطربوش والمنشَّة ذات المقبض العاج ويضعهما أعلى الطاولة التي يجلس إليها، أو كلب من نوع اللولو أو الكانيش يصحب إحدى الخواجات ويجلس بجوارها لطيفًا مؤدبًا لا تصدُر عنه نبحةٌ واحدة.

قهوة الفلاح لا تعرف هذا النوع من البشر..

رُوَّادها الذين دخلوا علينا الآن رجلان أحدهما بجُبَّة وقفطان والآخر (بعفريتة الشغل)، ثم ثلاثة شوارب مرفوعة إلى أعلى أصحابها على ما يبدو من صعايدة سوهاج الذين استوطنوا هنا؛ فلَفَّة العمائم التي فوق رءُوسهم هي التي وشت بأصلهم وفصلهم، ناهيك عن جلبة خفيفة أحدثتها ثُلَّةُ كُهولٍ أقبلوا مع بعضهم البعض، قرابة خمسة، وكلهم ببذلات سفاري نصف كُمّ أغلبها ضيق من عند الإبط، اتجهوا مباشرةً إلى المنضدة التي تعودوا عليها وأحد صبية القهوة في ذيلهم، ومن نَفسِه ودون أن يطلبوا وضع طاولة اللعب أمامهم، وتلكُّأ منتظرًا ما سوف يعزمون عليه من مشاريب، ودقائق وجاءنا عجوزٌ ببذلةٍ قديمةٍ وشيء كالبيريه فوق رأسه وصفَّق طالبًا كوبًا من الينسون، وفي أقصى المقهى استولى ثلاثة عميان على منضدة بعيدة، شيوخ بهدوم رَثَّة ممن يقرءون في المآتم البسيطة ومعهم رجل يلفُّ رأسه بكُوفيَّة، أظنه السمسار الذي يوافيهم بهذه المآتم نظير نسبة يتحصَّل عليها.

هؤلاء الشيوخ – وأقسم بالله – لا يعرفون شيئًا عن الأدب، فكل عشر دقائق أو أقل كانوا ينكفئون برءُوسهم وعمائمهم حتى تكاد تتلاصق ويتهامسون مع بعضهم البعض ثم ينفجرون في ضحكةٍ ماجنة، ماجنة ولا توصيف آخر! إذ كانت تلحقُها شهقةٌ قليلةُ الأدب من سقف الحلق، كانوا يتبادلون نكاتًا قبيحة على ما خمَّنت، شيوخ أولاد حظ فحتى صلاة المغرب لم يصلُّوها، فهم هنا من قبل أن أجيء، والسمسار بعد أن لفت نظرَهُ الحاج علَّام بزَغْرَةِ غاضبةٍ من عينيه، استدار لهم وزغدهم في أجنابهم كي يحترموا أنفسهم.

ومعه حق الحاج علام..

فالظرف لا يسمح والجو متوتر من جرَّاء غارة الأمس، ومذياع القهوة تأتي منه أغنية جديدة، أغنية عاشت في ذاكرة بورسعيد وتعلق بها أهلوها سنة 56: أغنية (اللهُ أكبرُ)، وبإشارةٍ من إصبع الحاج علام قام صبيٌّ من صبيان القهوة برفع مُؤشِّر الصوت على هذا الحماس واليقين بالله الذي يقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

الله فوق المعتدي.. والله للمظلوم خير مُؤيِّدِ..

أنا باليقين والسلاح سأفتدي..

بلدي ونور الحق يسطعُ في يدي..

قولوا معي.. قولوا معي.. الله الله.. الله أكبر..

الله فوق المعتدي..

وتلا الغناء عدة مارشات عسكريَّة فتوقفت حركة القهوة بعض الشيء وزاد الترقُّب، ولما طالت عادت ثُلَّةُ الكهول إلى لعب الطَّاولَة وإن كان بغير حميَّة فلا تزال قلوبهم معلقةً بالمذياع، ورجعت الشوارب الصعيديَّة إلى الحسبة التي كانوا يحسبونها على أصابعهم، وصبية القهوة إلى نداءاتهم الممطوطة المُنغَّمة، وصفق الحاج علام طالبًا شيشته المخصوصة، فأتى بها أحدهم بسرعة ومال عليها يرصُّ الحجرَ ويضغط عليه بإبهامه ليستمرَّ مع الحاج أطول وقت ممكن، وأقبل رجلان مع بعضهما البعض أحدهما يحمل كيسًا فيه بضاعة والآخر مصاب بلزمة عصبية ناحية فَكِّه الأيسر، ينقبضُ جلد الوجه كل نصفَ دقيقةٍ في هذه البقعة المهمة ثم ينفرج عائدًا إلى وضعه الأول، وقبل أن يتلفتا على مقعدين يجلسان عليهما كانت القهوة قد انكتمت عندما قالوا: إنه بيان عسكري، ولو زُرَار وقع من قميصٍ أو بنطالٍ أو لو وقعت إبرة أو قشَّاية على الأرض لسمعنا صوتها..

ويأتينا صوت المذيع: صرَّح مصدر عسكري بأنه ردَّا على غارة الأمس، قامت قواتنا المتمركزة في الدفرسوار...

ولم أسمع بعدها، فكأنه يوم القيامة وقيل للناس: ادخلوا الجنة بلا حساب!

صياح وتكبير ومن قام نصف قَوْمَة مُهلِّلًا، أو انتصب واقفًا دفعةً واحدةً ومع الانفعال وحركة يده غير المحسوبة أطاح بالأكواب التي أمامه، والحاج علام ابن السبعين ذو الشارب الأبيض والتجاعيد فقد اتزانه، ومن الفرحة وعلى سبيل المزاح لطم بكفِّه الكبيرة ظهرَ الولد الذي يعدُّ له الشيشة فانكفأ على وجهه، والاثنان ينظران لبعضهما ويضحكان بآخر ما في وُسْعِهما، وأحد الشيوخ العميان صرخ صرخةً مطوحًا بعمامته في الهواء، ووراءه الشيخان الآخران ومعهما السمسار وكأنهم فرقة ترقص، والرقص بمهارة، حتى إني تشكَّكت في أمرهم، فرغم الحركة التي يتحركونها كانوا يتفادون المقاعد والطاولات، استحالة أن يقدرَ عميانٌ على هذا!

وعجوز تقف طوال النهار أمام مدخل القهوة وأمامها طاولة فوقها جوارب ومناديل ومستلزمات تُباع للنسوة، عَرَّتْ رأسها دون أن تقصد أو حتى تشعر ورنَّت زغرودةً جلجلت في السماء، وما نشعر إلَّا وكلنا نصفق لها، لم أقُلْ لكفِّيَّ صفقا، فعلتا ذلك دون أن أحس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

10

اليومُ يومُ جُمُعة..

يوم الراحة الأسبوعية، قضيتُه بنادي الشرطة ببورفؤاد وعلى أول المساء توجهتُ إلى قهوة الفلاح وليس في بالي شيء، يوم جمعة كثلاثين أو أربعين يومَ جمعةٍ مرَّت عليَّ في بورسعيد من قبل، ولم أتصور أبدًا أني في هذا اليوم سوف أقعُ في مشكلةٍ كبيرة، فقد استسلم الجندي الهارب (إسماعيلوڤ) وعاد إلى مُدمِّرته الحربية وارتاح قائده (إليكسي ساخاروڤ) وكذلك المأمور وحكمدار[7] المديرية، أما أنا وعاطف ومعنا الزلَّاط ؛ فقد عوقبنا بالطرد من قسم العرب ولولا أن القانون والنظام العسكري لا يسمحان بالإهانة لخلعوا لنا الأحذية!

النهاية.. ذهبت إلى القهوة وتقريبًا أنا والحاج علام صاحبها بتنا أصدقاء، وأول ما رآني داخلًا نحَّى مِبْسَم الشيشة جانبًا ونهض واقفًا ليُحيِّيني فشعرتُ بالحرج وأسرعتُ إليه مُسلِّمًا، ويبدو أنه أدرك فقال لي جادًّا ومبتسمًا في ذات الوقت:

- الوقفة للحكومة شرف يا سعادة البيه.

فهذه هي الأصول عنده، رغم أني وقتها كنت من سن أولاده إن لم يكن أحفاده، وأمثالي يُقبِّلون أيادي من هم في هذه السن الكبيرة؛ لكنه هو وأمثاله من أولاد البلد تربَّوْا على احترام الحكومة، فهي كالأخطبوط بالنسبة لهم، كائن متوحش له ألف ذراع وذراع وزعله لا يُستهان به، وقد يبتلع مَنْ أمامه ولا نراه بعدها!

هذا هو تصوُّرهم؛ ولذا كان لممثليها مهابةٌ ولو كانوا عيالًا قياسًا على أعمارهم كحالي وحال الحاج علام، بل ومهما اقتربت المسافات بيننا وبينهم كعلاقة الأُلْفَة التي نشأت بيني وبينه، فدائمًا هم على حذر منَّا والتوقير هو العربون الذي يقدمونه، أو لعلَّهم (يكسرون به سُمَّنا) حسبما يظنون..

وإلى المنضدة التي تعودت الجلوس إليها، وفنجان القهوة السادة ككل مرة..

عدد الزبائن لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وأولهم العجوز ذو البذلة والبيريه، زبون دائم هنا، في كل مرة ألقاه ويجلس أمامي الآن وعلى منضدته قوالب الدومينو لا تزال مرصوصةً في علبتها ونفس الكوب الذي تعوَّد أن يشربه، كوب اليانسون، وعلى مقعدين في الركن الملاصق للمدخل اثنان من الباعة (السَّرِّيحَة) وبضاعتهما في خُرْجَين أمامهما، أمشاط وفلَّايات وأمواس وفُرَش

ومعاجين أسنان، ولا يمكن أن يخلو الخُرْجَان طبعًا من زجاجات عطر مضروبة، أناس بسطاء يحتسيان الشاي باستمتاع رغم البؤس والمعاناة اللذين على وجهيهما، وكهل من كهول ثُلّة الطاولة يجلس وحيدًا، لا أعرف لماذا جاء مبكرًا فميعاده بعد صلاة العشاء، وهناك إلى اليمين رجل عكروت اسمه (خليل) بجلباب بسفرة، سمسار من السماسرة الهلافيت الذين يقفون في السوق وجاءنا القسم من قبل في خمسين مشكلة، أرْزُقي ويتحصَّل على القرش بطلوع الروح ولا صنعة له إلا الوسوسة للزبون والحَلِف بالله وأغلب الحلفانات بالباطل وليس بالحق، ولم أرَ الصعايدة أصحاب الشوارب المتينة أو حتى الشيوخ العميان، لم يصلوا بعد..

وساعة بعد مجيئي أو أكثر قليلًا ونشعر بخلخلةٍ في الهواء ودَوِيٍّ متلاحق، فكما لو أنها دانات ثقيلة تتقاطر وراء بعضها البعض في السماء متجهةً نحو الشرق، وعلى الفور قفز خليل خارجًا، وقف في الشارع يدبدب بقدميه ويشير بيده عاليًا والناس يتجمَّعون حوله، أما نحن فتبادلنا النظر، كنتُ في مدارِ بصرِ ذي البذلةِ والبيريه فالتقت أعيُننا، ابتسم لي قائلًا:

- الحاجة زُهرة..

وأنا أومئ له برأسي:

- أيوه أيوه الحاجة زُهرة..

والحاج علام من وراء منضدته يُصفِّق بفرحة:

- أيوه كده، ينصر دينِك يا حاجَّه زُهرة، اشتغلي اشتغلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الحاجة زُهْرَة) حسب التصور الذي كان سائدًا في أذهان الناس وقتها ما هي إلا مدفعٌ جبارٌ يُطلق حممًا من القنابل الفظيعة المُهلِكة، فقد كانوا يتفاجَئُون بالسماء تدوِّي كالرعد ومن تتبُّع الصوت يشعرون بأن دانات هذا المدفع تتجه صوب الضفة الشرقية، وهذا ما كانت تعززه البيانات العسكرية التي تُذاع في الراديو، إذ بعدها بساعات نسمع أن رجالنا عبروا القناة ونفذوا إحدى المهام ثم رجعوا، والناس الذين يستمعون وسواء في المقاهي أم الشوارع أو حتى في البيوت يهزون رءُوسهم وفي أذهانهم - وربما بحق - أن الحاجَّة زُهرة هي التي كانت تغطي عودتهم.

الثابت أن ضرباتٍ شديدةً كانت تُكال للعدوِّ من موقعٍ ما في بورسعيد ويصاحبها هذا الدوي وهذه الخلخلة، وما عدا ذلك أساطير اخترعها الناس، ولا أدري لماذا تصوروا هذه الآلة أو الآلات التي تفعل ذلك على شكل مدفع

وتفنَّنوا في رسم هيئته، فمن يقول إن طول ماسورتُه ثلاثون مترًا، والذي يرد عليه مُصححًا بأنه ليس في الدنيا كلها مدفعٌ ماسورته بهذا الطول، ماسورة الحاجة زُهرة اثنان وعشرون مترًا فقط وقُطرها كذا؛ ليتَّسع للقذائف الرهيبة التي تُصنع خصيصًا لها، وهم يسألونه: هل أنت متأكد؟ فيقول: طبعا متأكد!

كما تشتَّتوا في تحديد الموقع الذي يُوجَد فيه هذا المدفع، ناس قالت: غرب بورسعيد، وراء الجبَّانة بالضبط! وغيرهم قال: على الطريق الساحلي الذي بيننا وبين دمياط، والذين صمموا على أنه في القابوطي ومخفيٌّ تحت الأرض، وساعة اللزوم يُخرجونه على قضبان كقضبان السكة الحديد يضرب ضربته ويعود إلى بيته، أما الاسم الذي سُمِّي به (الحاجة زُهرة) هذا إذا كان مدفعًا، لا أحد يعرف من الذي أطلقه أو لماذا نعته بصفة التأنيث لا التذكير، المهم أن الاسم انتشر وملأ بورسعيد كلها، وعند أية اشتباكاتٍ أو جَلبةٍ حربيَّةٍ تحدث كانوا يصممون على أن الحاجة زُهرة شاركت فيها ولم تُقصِّر، أدت دورها على الوجه الأكمل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتزداد اللمَّةُ التي تحيط بخليل على باب المقهى، وأحد الواقفين يتجادل معه:

- فين الكنابل دي يا جدع؟ إنت بتجيب من دماغك وللا إيه!

وخليل بضيق:

- دماغي إيه يا أعمى العين، ماهي قُدَّامك أهيَّه..

- والله مانا شايف، سامع الحِسّ بس..

ومع الرجل كل الحق، فلم نكن نرى، نسمع الصوت فقط ونشعر بالخلخلة، خليل من فرط حماسته هو الذي كان يتخيل ويشوِّش على من يقفون حوله، وفي هذا اليوم تكتَّلوا معه وقالوا إنهم رأوا بأعينهم، وأولهم المرأة التي تقف بملبوسات النسوة وتملأ الدنيا بالزغاريد مع كل بيان عسكري، كبَّبت بيدها في وجه هذا الذي يعترض:

- مَتْشُوف لك حل في روحك يا خويا، الكنابل آهي طايرة ورا بعضها زي الحمام!

والباقون يهزون رءُوسهم مُؤيِّدين، وهي تُغلِّظ من نبرة صوتها لائمةً هذا المعترض:

- بتبُصّ لي كده ليه! مش مصدق إياك! طب اسأل حتى الحاجَّة وداد آهي جت أهيَّه على سهوة وشافت بعنيها.

والراجل بصوتٍ حَذِر:

- الحاجة وداد..

ويسكت، فيبدو أنه يعرفها أو دخل معها في مشكلة من قبل، ويجذبني الحوار، الحاجة وداد! أهلًا أهلًا! فأنا الآخر أعرفها بالاسم والشكل والنَّعْويرَة التي فوق الحاجب، زبونة مستديمة عندنا في القسم، أركز فيها فتلمحني وتُحيِّيني بطَرْقتَيْن خفيفتَيْن فوق الرأس:

- إنت هنا يا سعادة البيه، منوَّر عند الحاج علام.

أُحيِّيها أنا الآخر وعلى وجهي ربع ابتسامة، كانت أمامي في النوبتجيَّة منذ أيام في عَرْكَة مع جارتها سماسم، بنت المفترية هذه لبَدَتْ لسماسم وراء باب شقتها وعندما كانت المسكينة تهبط على الدَّرَج قذفتها بثمرة قلقاس محترمة، بطحتها، وزوجة البلوشي أفندي التي تسكن في الدور الأول هي التي لفَّت رأسها بقطنة وقطعة شاش ثم زَفَّة نسوان وراءها إلى القسم..

زوجة البلوشي أفندي هذه امرأة خوَّافة، شافت كل شيء بعينيها لكنها أنكرت عندما حررنا المحضر، قالت إنها لفت رأس سماسم بالشاش فقط لكنها لم تَرَ القلقاسة ولا من ألقاها، فالحاجَّة وداد كانت لها سطوةٌ في العمارة والشارع كله، ولم تشهد ضدَّها أية امرأة أبدًا ولا حتى رجل، فالكل يعرف حدوده ومن هو بالضبط ومن هي!

ويهبُّ الحاج علام تاركًا مقعده، لا يريد غاغةً أمام القهوة، ينادي على خليل بصوتٍ مرتفع:

- إنت يا سي خليل، يللا يللا الشاي بتاعك بِرد.

ويزجر المرأةَ التي تبيع الملبوسات النسوية كي تغلق فمها، فالضرب توقف وهِشّ.. هِشّ.. كل إلى حال سبيله ولقمة عيشه، ثم يعطيهم ظهره وينتقل إلى جواري.

آخر مرة تحدثنا فيها كانت عن ابنه (النبوي) المُجنَّد في القوات الخاصة وكانت كتيبتُه وقتَها في الدفرسوار، أسأله عنه فيلوح الكَدَرُ على وجهه:

- بقاله شهرين غايب..

ويقلِّب يده:

- ودا كتير! ولما كانت غيبته قبل كده بتطول كُتّ بطَمِّن عليه من حضرة الضابط أبو سمرة، راجل عال وبورسعيدي زيِّنا.

ويضغط على يدي:

- ما هو القائد بتاعه..

فتعود بي الذاكرة إلى الباص الذي أتيتُ به إلى بورسعيد أول مرة، وضابط الجيش الذي كان بجواري وقتها..

هو اللقب (أبو سمرة) فلا يزال عالقًا برأسي، الأسم الأول هو الغائب عن الذاكرة، أسأله وعيناي سارحتان:

- قصدك..

فيضغط على يدي من جديد:

- حضرة الظابط حسام أبو سمرة.

- أيوه أيوه، هو الاسم..

- حضرتك تعرفه؟

- يعني.. تقريبًا كده..

تتسع عيناه من الدهشة:

- يا سبحان الله! دا صحيح الدنيا صغيرة..

وطفق يحكي لي عنه وأنه يسكن في الإفرنج، ويشير بيده:

- مش بعيد، هنا في صلاح سالم عند..

ويصف لي موقع البيت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

طفقتُ جالسًا في القهوة مسافةً من الوقت..

وأُفاجَأ بالصول بهادر داخلًا يتلَفَّت على الجالسين، وأول ما رآني وقف ضاربًا بكفِّ يده على فَخِذِه:

- إنت هنا يا باشا، دا أنا دُخْت عليك..

ويُسرع إليَّ ولسانه يسبق خطواته:

- يللا يللا الدنيا مقلوبة.

وعرفت منه ونحن في الطريق أن أحد الجنود الأجانب هرب من فوق مُدمِّرة حربيَّة نستضيفها عندنا في الميناء، تسلل ودخل بورسعيد وقد رصدوه متجهًا إلى القابوطي..

- وإشمعنى القابوطي؟

- حتَّة هِوّ يا باشا، أمَّال هيستخبَّى فين...؟

ثم أبلغني بأن قائد هذه المُدمِّرة الآن في موقف صعب ويريده حيًّا أو ميتًا! هذا ما أبلغهم به مندوبٌ من الجيش جاءهم على عَجَل وترك لهم مَهمَّة القبض عليه، فالتعليمات التي لديه ألَّا يتدخلوا هم ويدعوا الأمر للشرطة المحلية، وعلينا أن نأخذ حذرنا فهذا الهارب - وكما قيل لهم - جندي (فاقد) ومعه سلاحٌ آليٌّ وقنابل ومفرقعات والله أعلم ماذا بعد!

- والبيه المأمور عنده خبر؟

- البيه المأمور مسافر بلدهم ونائب المأمور منعرفش فين، مفيش غير البيه الزلَّاط والبيه عاطف ومجهزين نفسهم وعايزينك ضروري.

فَرْكَة كعب بيننا وبين القسم، حالًا كُنَّا هناك، وأول ما وصلنا وجدت البوكس جاهزًا ومُحرِّكه يدور وفي الصندوق الخلفي ستة أو سبعة عساكر بأسلحتهم، والزلَّاط وعاطف في الكابينة الأمامية.

الزلَّاط أقدمنا رتبةً وبالتالي هو رئيس هذه القوة، أشار لي من شُبَّاك الكابينة بأن أركب بسرعة، ثم سألني عن سلاحي فقلت: ليس معي فمن أدراني أننا خارجون في مأمورية، فنادى على أمين المخزن ليُسعفنا بقطعة سلاح حالًا،

وفي دقائق جاءنا هذا الأمين ببندقيةٍ عَجُوز(لي أنفليد) من بواقي الحرب العالمية الثانية وبيده الأخرى كبشة ذخيرة، وقال للزلاط:

- دي آخر حتَّة عندي، مركونة بقالها تلت أربع سنين في المخزن، شغَّالة مش شغالة معرفش..

ويرفع يده معتذرًا:

- مفيش غيرها، عايزنها إمضُولي على وصل.

وأنا أتفحَّصُها بيدي وأقول:

- إيه ده يا عم مرقص! دا الزناد بتاعها مِصدِّي والدِّبْشِك مكسور، وكلها على بعضها..

وأدفعها بيدي:

- لا.. لا.. متنفعش!

والزلَّاط بضجر:

- أمَّال هتيجي معانا طرزان، استلم استلم.

فكدت أتشاجر معه لولا عاطف الذي لَكَزني في كتفي كي أتساهل وننفضَّ من هذه الليلة الطين، بالغصب تسلَّمنُها ووقَّعت على الإيصال وانطلق البوكس، خرجنا من العمار والأضواء والحركة إلى طريقٍ اللهُ أعلمُ بحاله، حتى لاحت لنا القابوطي كبُقَعِ ضوءٍ خافتةٍ وبعيدةٍ عن بعضها البعض، فقرية القابوطي في هذا الحين كانت مجرد عُشَش أبقار وجواميس وبيوت فقيرة من دور واحد وأغلبها بلا طلاء، بل ومنها من لم تكُنْ له نوافذ أو حتى أبواب، مجرد قِطَع خيش أو قلوع مراكب باليَة ومُستغنًى عنها، ومن العَوَز وقلة الحيلة ثبَّتها الناس بمسامير لتغطي هذه الفراغات، وإذا اشتدت الريحُ كانت تطيرُ مع الهواء ولا أحد يعثر عليها بعدها.

وكانت الدنيا كُحْل.. كُحْل..

آخر يوم في الشهر العربي، ولولا أن عَمّ عرنوس السائق كان مُحنَّكًا والفوانيس الأمامية الحمد لله لانقلب بنا البوكس أو سقط في حفرةٍ وكانت ثُلَّة العساكر الذين في الخلف قد تعشوا وانبسطوا قبل أن ينطُّوا في البوكس، والعشوة متينة على ما يبدو ملأت بطونهم وأعينهم ما بين النوم واليقظة، فيما عدا واحدًا منهم كان بكامل لياقته الذهنية، لم يتعشَّ بعد، مازال عشاؤه ملفوفًافي ورقة جورنال وموضوعًا في حِجْره، رغيفان وكبشة

فول في كيس بلاستيك وبيضة مسلوقة وحُزْمَة بصل أخضر عيدانها تتدلّى من ورقة الجورنال، والزلَّاط كالدجاجة التي على وشك أن تبيض؛ في قمة التوتر وبعصبيَّة فتح الشباك الصغير الذي يفصلنا عن جماعة العساكر، وتحدث معهم كما لو أنه ضفدعة تتكلم، وأنا هنا لا أفتري عليه فهكذا كان صوته، وبشهادة ألف واحد..

قال لهم بحمية:

- جاهزين يا رجَّاله..؟

لم يُجِبْه أحد، نظروا لبعضهم البعض، فالمأمورية الحافظ فيها هو الله، لا لها بطن ولا أرجل أو حتى رأس والقائد الذي يقودهم لا يطمئنون له، وابن (ستين في سبعين) هذا الذي هرب من مَرْكَب كلها مدافع وصواريخ أكيد رجل خَطِر وجيوبه مُعبَّأة بأصابع ديناميت وأسلحة تقتل عن بُعد، وهم غلابة كل واحد منهم له خمسة أو ستة عيال ويود العودة إليهم سالمًا، والزلَّاط لا يزال يعطيهم التعليمات:

- الهدف اللي إحنا رايحين له دلوقتي مستخبِّي في القابوطي، والواجب اللي علينا...

وأحدُهُم يقاطعه:

- هدف مين يا باشا؟

والزلَّاط الذي لاح على وجهه الإحباط:

- بقي بقالنا ساعتين في الموَّال ده وشايلين سلاحنا وطالعين، وإنت يا سي محروس منتش عارف الهدف مين! الهدف يا حبيبي الجدع الهربان اللي اسمه إسماعيلوڤ.

ومحروس بقلق:

- طبّ وهو احنا قد إسماعيلوڤ يا باشا!

وأشاح بيده رُبْع إشاحةٍ وهو يُبَرْطِم:

- إسماعيلوڤ! إسماعيلوڤ! هيَّه موتة وللا أكتر.

وتثاءب اثنان من العساكر في نَفَسٍ واحد، والتثاؤب بصوت، فلم تعجب الزلَّاط هذه البداية:

- لا. لا. أنا عايز ناس صاحية، دا احنا داخلين على عَرْكَة موت.

فنظروا إليه كلهم دون تعليق..

وعسكري نشيط هناك في الركن، أعرفه، عسكري شاطر ولهلوبة في الشغل، غير أني لم ألحظ أنه معنا إلا عندما تكلم، قال هذا اللهلوبة بحماس للزلاط: إنهم جاهزون وقلوبهم كما الحديد، واقترح أن نتمركز عند الترعة التي هناك والزلَّاط مبسوط من كلامه:

- تمام. تمام. هي دي بالظبط الخطة اللي في دماغي.

وأنا متأكد من أنه لا يوجد أي شيء في دماغه، وعاطف إلى جوارنا يغفو ويستيقظ، غفا قرابة ثلاث أو أربع مرات رغم المَطبَّات والهَبَدات التي كان ينهبدها البوكس طوال الطريق، ومع كُلِّ غفوةٍ رأسه يروح منه، يهبط يهبط ببطءٍ إلى أسفل ثم يستكين فوق صدره دقيقة أو دقيقتين، وفجأةً يرفعه مرة واحدة، وبخَضَّة، ويُحدِّق فينا وعيناه مفتوحتان على آخر اتساعهما وكأنه لا يصدق أنه نام وصحا دون أن يحس! كان الله في عونه، مهدود ولا يستطيع السيطرة على نفسه، قضى هو ورفاقه ليلة الأمس في (بلقاس) ويبدو أنها كانت ليلةً صاخبة، هم عادوا إلى بيوتهم وارتاحوا وهو لم يذُقْ طعم النوم إلى الآن، والصول بهادر الذي قفز في صندوق البوكس في آخر لحظة لا يعجبه كلام الزلَّاط ولا كلام العسكري اللهلوبة، ويُسفِّه الرأي الذي يقولانه:

- ترعة إيه! مفيش ترع هناك، دا حتة مصرف قد الحقّ البهايم بتتسبح فيه، وبعدين دي حتة مكشوفة..

والزلَّاط الذي لا يُطيقُ بهادر، وفي اعتقاده أنه (الخبَّاص) الذي ينقل للمأمور كل أخباره:

- مصرف وللا ترعة، حته مكشوفة وللا مش مكشوفة، هنعسكر هناك يعني هنعسكر هناك.

ثم زَغْرَة تهديد:

- فاهم وللا مش فاهم يا سي بهادر..؟

فدلدل بهادر رأسه وسكت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنفيذًا لأوامر الزلَّاط انبطحنا جميعًا على حرف المصرف..

وكُلٌّ منا سلاحُه في يده، أنا الوحيد الذي كنت محتاسًا في سلاحي، واتخذت قرارًا بيني وبين نفسي بألَّا أستخدم هذه المصيبة إطلاقًا ومهما حدث، كنت

خائفًا منها، فما يُدريني إن كانت تصلح أم من الأسلحة الفاسدة وقد تنفجر فيَّ أنا إذا ضغطتُ على الزناد.

ولاحظنا أن الأنوار الخافتة التي كانت تأتي من العُشَش والبيوت انطفأت فور وصولنا، واختفت معها خُيالات أصحابها التي كانت تلوح من وراء الأبواب والنوافذ، يبدو أنهم كانوا يترصَّدُوننا واتخذوا قرارًا في شأننا، سمعوا ضجَّتنا وفي ظنهم أننا عصابة من اللصوص جاءت تسرق مواشيهم؛ فقد وقعت حادثةٌ مثل هذه من قرابة شهر وسُرقت منهم جاموسة وثلاثة عجول، وأكيد يستعدون لنا الآن بالعصي والسكاكين إذا اقتربنا منهم أو من مواشيهم.

مكثنا وقتًا على هذا الوضع إلى أن ضجرتُ، وجماعة العساكر الذين معنا نسونا ونسيناهم، أشعلوا السجائر وأخونا الذي أحضر عشاءَه معه شرع في الأكل، والذي قام إلى البوكس يسأل السائق عمَّا إذا كان معه سبرتاية وتلقيمة شاي، وقلت أنا للزلاط:

- وبعدين، هنفضل منبطحين كده لحد إمتى؟

وهو يشخط في العساكر كي يهدءُوا ويسمع مني ما أقول، ولما أعدته عليه أيد كلامي:

- معاك حق، لازم نعمل استطلاع..

وكلَّف الصول بهادر بهذا الاستطلاع، وبهادر يسألُه: كيف يستطلع؟ فأغلب شغله في تحرير المخالفات ولا يفهم في هذه الأمور..

- اتصرف يا أخي، آهو تلف وتدور وتجيب لنا معلومات.

- في العتمة دي!

- آه في العتمة دي..

وبهادر يشعر بأن المسألة فيها انتقام وتصفية حسابات، وأن الزلَّاط يريد توريطه ووضعه في وجه المدفع، أمسك ببطنه مُدَّعيًا الإسهال، وفعلًا شممنا روائح كريهة، فكشحه الزلاط بتشويحة من يده وكلف آخر وهذا الآخر يتحجَّج بنفس الحجة، وعسكري ثالث يبدو أنه توقَّع بأن الدور آتٍ عليه فسبق وقال من تلقاء نفسه:

- وأنا شرحه..

فعدل الزلَّاط عن الاستطلاع إلى فكرة جديدة (الالتفاف) واختصَّني أنا بالتوضيح:

- أنا عايز واحد يكون ناصح يتسحَّب يتسحَّب لحد آخر العشش اللي هناك.

ويشير بإصبعه إلى بعيد، وأنا ببصري مع هذه الإصبع ولا أرى شيئًا، سواد في سواد، وهو يلاحقني:

- أيوه أيوه في الحتة دي..

وكأني رأيت وحددت المكان واتفقنا، وأسأله من جديد:

- وبعدين؟

- وبعدين إيه! ما خلاص! هو بس يوصل لحد هناك وياخد ساتر وبعدين يدوَّر الضرب بالسلاح اللي معاه، على طول إسماعيلوف...

ويتوقف ذاهبًا بالحديث إلى منحًى آخر:

- دُول بيقولوا إن الراجل اللي اسمه (ساخاروف) هيتجنِّن عليه وعايز يمزَّعه بسنانه.

- ساخاروف مين؟

- القائد بتاعه، من ساعتها وهو راقد لهم في مديريَّة الأمن، قاعد مع الباشا الحكمدار وبيقول لهم: هاتوهولي حيّ وللا ميت، متعوَّر وللا سليم.

ويُسَأسِئ بشفتيه:

- المركب بسم الله ماشاء الله! نَطّ منها إزاي ابن الحرام ده، دا باين عليه جبار ولازم ناخد احتياطنا منه.

ويتذكَّرُ خُطَّته عن الالتفاف، فيستأنف الكلام عنها:

- ولما أخونا إسماعيلوف هيسمع الضرب أكيد هيطلع من الجحْر اللي مستخبِّي فيه ويرد على الراجل اللي إحنا باعتينه، وساعتها بقى نهجم إحنا.

ويميل عليَّ موشوشًا:

- المأمورِيَّة جَتْ على سهوة وملحقتش أجيب عساكر صاحية، والجماعة اللي معانا زَيّ مانت شايف اللي بكِرْش واللي نايم واللي جايب عشاه معاه.

ويعلو صوته:

- أنا عايز واحد قلبه ميت.

وكل هذا وعاطف لا يشعر، فعندما التفتُّ إليه ليشاركنا الرأي في هذه الملهاة وجدتُه مستغرقًا في النوم، ويبدو أن الزلَّاط فسَّر التفاتتي هذه على غير ما قصدتُ، ظن أني أشير عليه بعاطف وأومأ رأسه بالموافقة:

- معاك حق هو عاطف، الطبنجة اللي معاه (براوننج) من الأصلي وصوابعه ماشاء الله زَيّ القُشَاط.

عاطف الماكر لم يكن نائمًا مثلما تصورت، فاجَئَنا قائلًا للزلاط:

- التفاف إيه يا حاج! يا عَمّ صلِّي على النبي كده وخلِّينا قاعدين مطرحنا لحد ما يطلع النهار؛ لحسن أخونا إسماعيلوف يغربلنا بالسلاح اللي معاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

كُلُّ الظروف كانت ضدَّنا..

فلا خطة ولا تجهيز، وأهل القابوطي يسنُّون لنا أسنانهم ويقولون في أنفسهم: لسنا بُلهَاء حتى نُلدغ مرةً ثانيةً من أوساخ ولصوص جُدُد، وقائدنا الزلَّاط لا أحد يثق فيه أو يعبأ بكلامه..

كما أننا لسنا مقاتلين، رجال شرطة عاديون من قسم العرب وأسلحتنا من النوع الخفيف، لسنا من الأمن المركزي أو من القوات الخاصة ولنا في التسلُّل والمُباغَتة والتكتيكات، أقصاها عدة أعيرة في الهواء لفَضِّ مشاجرة أو مطاردة مجرم، وإسماعيلوف معه أسلحة فتَّاكة وسوف يُبيدنا إذا شعر بأننا ننوي له الشر، خَصْم دهس الحروب ولا يأبه بدَمٍ ولا بارود ومن جنود دولة عظمى، وإذا احتدم العراك نحن الثلاثة بجماعة العَساكر التي معنا مآلنا مآل ألواح التنشين التي تتلقَّى الضربات.

كم من الوقت بقينا على هذا الوضع، لا أتذكَّر، الماثل في الذاكرة الآن أن الخوف وقتها كان سيد الموقف، وكف الزلَّاط عن إصدار الأوامر وشعر بالإجهاد، كُلُّنا خارت قُوانا ولا نعرف وضع إسماعيلوف بالضبط ولا في أي موقع يتمترس لنا..

ونشعرُ بحركةٍ في المصرف..

شيء أشبه بالتلطيش، وعلى مسافةٍ قريبة، فسكتنا سكتةَ موتٍ، والذي كتم سعلته أو تحسَّس السلاح المُتدلِّي من خَصْرِه أو وضع إصبعه على شفتيه مُحذِّرًا غيره من التفوُّه بكلمة، وأحد أفرادنا يهمس:

- هو..

ووراءه آخر:

- والله هو..

وواحد يتساءل:

- مين؟ إسماعيلوف!

فينال لكزة في جنبه:

- أمال مين يا حمار! آه إسماعيلوف..

والصول بهادر يتحقَّق، يتنقَّل عدَّةَ خطوات بحذاء المصرف وأذناه في وَضع التنصُّت، ثم يعود إلينا بسرعة وهو يشيح بانفعال:

- أقطع دراعي هو..

فيلكمه عاطف في ظهره كي يخفض من صوته ولا يكشفنا، وهو يومئ له برأسه بأن: حاضر حاضر، ويميل على أنا والزلَّاط هامسًا بأقصى ما يستطيع:

- ما هو يا بهوات النصاحة دلوقتي مطلوبة، ولازم دماغنا تبقى من دماغ إسماعيلوف وفهمنا زي فهمه، واحد بحَّار وكل عيشته في الميَّه، هيلبَدْ لنا فين؟ ضروري في المصرف..

ويميل علينا برأسه أكثر وأكثر:

- الحكاية باينة آهيَّه زي عين الشمس!

ثم يرمقنا معجبًا بنفسه وبما يقول، والزلَّاط ينساق وراءه:

- يعني..

- آه والله، وأحلف على مصحف.

وينفعل العسكري اللَّهْلُوبة، يسحب سلاحه من الجراب مخاطبًا الزلَّاط:

- نضرب يا باشا..؟

فيلوِّح له الزلَّاط بقبضته في الهواء كي يسكت خالص، وبهمسٍ يُحذِّرنا كلنا من أن نطلقَ طلقةً واحدةً قبل أن يتحقق بنفسه، ويميلُ برأسه نحو مصدر الحركة وأعصابه السمعيَّة في أقصى ذروتها.

الحركة كما هي الصوت هو الذي تغير، لم يعُدْ تلطيشًا أو تخويضًا في الماء كما كان قبل دقائق، شيء أشبه بالبَلْبَطة..

وبهادر يحثُّ الزلَّاط على التصرف:

- الوسخ بيبَلْبَط! يبقى داخل علينا، يللا يللا يا باشا الوقت مش في صالحنا.

فيشيط عقل الزلَّاط، يُباغتنا بدفعةِ طلقاتٍ من سلاحهِ وهو يصيحُ فينا بهيستيريَّة: إضرب.. إضرب..

ونحن وراءه..

أشعلنا القابوطي بأسلحتنا، والضرب ضرب خوف، غير منضبط وفي أي مَطْرَح، في المصرف وفي الهواء وتحت أقدامنا، ولولا ستر الله لَقتلنا بعضنا البعض، ثم سُكات مرة واحدة؛ فرغت منا الخراطيش، وبهرجلةٍ اندفعنا إلى مكانِ الجثَّةِ وأنا أعلق بندقيتي على كتفي كالخفراء، ورغم كل المجهود الذي بذلناه لم نجد شيئًا، مجرد فقَّاعات وبَقْلَلة وآه ثقيلة لكنها مكتومة، ونحن نهمس فيما بيننا:

- بيطلَّع في الروح..

- آه.. بينازِع..

- خلاص المَيَّه شفطته..

- بس إيه الحِسّ ده؟ دا عامل زي ما يكون بهيمة!

- لا لا بهيمة إيه؟ هُمَّا الجماعة دُول حسهم كده، ولما الواحد فيهم بيفطس..

وهذا الذي تكلم طفق يتفلسف ولا أحد يُنصت له، ومن قال:

- نستنَّى..

- نستنى دا إيه! الذخيرة خلصت والخوف لَيْكُون معاه ناس تانية وييجُوا يخلَّصُوا علينا!

- تفتكر كده؟

- كده وأبو كده..

- يبقى على القسم..

- أيوه القسم..

والزلَّاط الذي بيده الحل والربط يصيح فينا بأن نقفز في البوكس بأقصى سرعة، وعَمّ عرنوس السائق ماتت رجله على دوَّاسة البنزين لتعطيه أقصى ما في استطاعتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل هذا وبورسعيد في عالَمٍ آخر..

راحت في النوم من أربع ساعات على الأقل، شارع الحميدي ماتت فيه الحركة، اثنان أو ثلاثة فقط من باعة الخُضَر والفاكهة لا يزالون واقفين بعرباتهم ذات اليد والكلوبَّات مضاءة بأعلاها، لا أعرف ماذا ينتظرون هؤلاء

الحمقى فالشارع ليس فيه صريخ واحد! شارع التجاري في عز النوم هو الآخر، كل دكاكينه مغلقة بالترابيس والأقفال، وكلبٌ يبولُ على ناصية شارعَي التلاتيني وأبو الحسن، قطع بَوْلتَه وطفق في مطاردتنا بوَصْلةٍ من النُّباح والزلَّاط يفتح شباك البوكس ويلعنه هو وأباه وصنفه كله، وقططٌ تعبث في صندوق قُمامة وفأرٌ ناصحٌ يطلُّ من فوَّهة ماسورة ويرجع، غافلَ القططَ وطار إلى الرصيف المقابل دون أن تشعر..

قسم العرب هو الوحيد الذي كان صاحيًا وغُرَفُه كلها مضاءة وأولها غرفة المأمور، والعسكري الواقف بالباب يترقب عودتنا وعيناه تفتشان فينا بحثًا عن هذا الإسماعيلوف، فهل أتينا به معنا؟ وما شكل هذا الإنسان، بني آدم مثلنا أم ابن كلب كافر وسحنته أعوذ بالله..

ويُلاحقنا بصوته بعد أن دخلنا:

- البيه المأمور قطع أجازته ورجع بقاله ساعة.

والمأمور يغلق أزرار سُتْرته باستعجال وما زال بالجورب وحذاؤه أسفل الأريكة التي بمكتبه، كان مرهقًا على ما يبدو وتصَلْطَح عليها إلى أن نأتي..

اندفع نحونا بفرحة:

- مش الحمد لله، حد اتعوَّر وللا حاجه؟

وبدأ الزلَّاط في الشرح ومن وجهة نظره طبعًا، وكلما حاولنا أنا وعاطف التدخل أو التصحيح يرمقنا كي نسكت ولا نُشوِّش على كلامه، والمأمور الذي تململ من رغي الزلَّاط ومقدماته الطويلة:

- يا سيدي خلَّص، يا خويا النهاية!

- خلاص خلَّصت عليه..

- مَوِّتُّه!

فأحنى الزلَّاط رأسه بتواضع، والمأمور يبدو عليه الانزعاج:

- يا ساتر يارب! يعني مكنش ممكن تجيبه حي بدل القتل وتسييح الدم؟

- صعب. صعب. يا يخلَّص علينا يا نخلَّصُوا عليه، انا قلت مَبِدِّهاش وفرَّغت الطبنجة في دماغه.

- في دماغه! يا حول الله، يعني الراجل جاي لنا من آخر الدنيا...

ولا يتم عبارته، يسأل الزلّاط سؤالًا آخر:

- وفين الجثة؟

والزلَّاط معووج ويتكلم من أنفه:

- آهي مرميَّة في المصرف وأول ما يطلع النهار هاخُد حَدّ معايا وأروح على هناك.

ويتأنى لحظة:

- دا بعد إذنك يا فندم.

لا تعجب المأمور النفخة التي فيها الزلَّاط والإحساس الذي تلبَّسه بأنه الرجل الخطير وكل الخيوط في يده، إلا أنه يُمرِّرها له ويعاود الجلوس على الأريكة والشروع في ارتداء حذائه:

- يعني أبلَّغ الباشا الحكمدار.

- طبعًا طبعًا...

- على مسئوليتك؟

- رقبتي..

فتناول المأمور سمَّاعة الهاتف مُشيدًا بالعمل الذي أدَّيناه تحت قيادة الزلَّاط، وأنه لم يكن أمامه خيارٌ آخر واضطر لقتل إسماعيلوش، ويبدو أن الباشا الحكمدار استفسر منه عمَّا إذا كان قد تبادل معنا النار، ومن الذي بدأ هو أم نحن؟ ولم تكن لدى المأمور إحاطة بهذه النقطة فرفع صوته ليُسمعنا السؤال الذي تلقَّاه:

- قصد معاليك إنه هو اللي ابتدَى بالضرب وللا احنا؟

قالها وهو ينظر في وجوهنا ليستدلَّ منها على الإجابة، أنا للأسف لم يَقُلْ وجهي أية كلمة ولا عاطف، وكانت هذه غلطة منَّا، الزلَّاط هو الذي أومأ برأسه بأن: نعم. نعم. هو الذي بدأ بإطلاق النار علينا...

والمأمور ينقل هذا التأكيد للباشا الحكمدار، وبعد عدة عبارات تبادلاها بدا الانشراح على وجهه، فعلى ما أظن سمع مديحًا في حقِّه وحق رجاله الذين رفعوا رأس مديرية الأمن، وتطرَّق الحديث بينهما إلى أمور أخرى متعلقة بهذه الحادثة، إلى أن أجاب المأمور على مقولة قِيلَت له:

- أبدًا أبدًا، دا بقى شخص كويس وبعد اللي عمله النهارده بقى محل ثقة.

ويتوقف ليستمع ثم يعاود الإجابة:

- قصد معاليك على البلاوي القديمة، لا لا خلاص وآديني عمال بَزُقّ فيه وربنا يسهل.

والزَّلاط متجهم ومتأكد بأنه المقصود بكل هذا الحديث..

ويُنهي المأمور المحادثة ويلتفت إلينا:

- فاضل نص ساعة والفجر يدَّن، وأول ما النهار يطلع كلنا على القابوطي.

ونحن نومئ رءُوسنا بفخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

وعندما شَقْشَقَ الصُّبْح انفضحنا..

أي والله انفضحنا..

كنا لا نزال في غرفة المأمور والرجل مرتاح للإنجاز الذي أنجزناه، ويُضيِّفُنا بالسجائر والمشروبات؛ حتى إنه دعا الصول بهادر والصول ياسين الضابط المناوب للجلوس معنا والتدخين في وجوده، ونحن من يغفو ومن يتصفَّح جرائد اليوم السابق أو يتثاءب، و الزلَّاط ساقًا فوق ساق ومزهوًّا بنفسه..

ونسمعُ ضجَّةً وأناس يدهسون بوابة القسم، وليس على ألسنتهم سوى: ياسعادة البيه.. يا سعادة البيه..

خمسة أو ستة بسراويل طويلة وصَدَارٍ من أعلى وفي أقدامهم إما براطيش أو شباشب من أُمّ إصبع، وواحد منهم بجلباب على اللحم وفتافيت حلاوة طحينية تتناثر على صدر الجلباب وعند الجيوب، ويتقدم هذا الجمعَ رجلان أكثر أناقةً وكُلٌّ منهما رأسُه ملفوفٌ بلاسة مزركشة بمربعات أبيض في أسود، أحدهما صاحبُ زريبةٍ من زرائب القابوطي والثاني كلَّافٌ على ما أظن غير أنه كان مُعتدًّا بنفسه، ومن ذيل جلبابه أبو سُفْرَة كان حذاؤه الكاوتش يلوح سليمًا مائة في المائة وكذلك الجورب مغسول ونظيف، وبينهما المحترم إسماعيلوف بلباسه العسكري والبيريه وسلاحه الآلي مُعلَّق على كتفه، والمأمور لم يستوعب بعد ويُحدِّق فيهم وفينا، ومن باب المجاملة والذوق أشار لإسماعيلوف - من دون الباقين - بأن يجلس، وإسماعيلوف يرمقه بمهابةٍ وتشُّج، أدى للمأمور التحية العسكرية بكل صرامة ومعها ضربة قدم شديدة على الأرض مثلما يفعلون في الطوابير ثم جلس على طرف المقعد، فلم يحسَبْ دعوته للجلوس على أنها مجرد كياسة ولُطْف من المأمور، بل أمر صادر له من رُتْبة عسكريَّة أعلى وعليه تنفيذه بكل دقة، فقد كان المأمور بِبَزَّتِه العسكريَّة كاملةً فيما عدا الكاب وعلى كل كتف من أكتافه نسر وعدة نجوم، وبدأ صاحب الزريبة في مخاطبة المأمور:

- السماح يا سعادة البيه.. السماح..

ويشير إلى إسماعيلوف:

- الراجل المبروك ده لقيناه امبارح بيتمشَّى قدام الزريبة، رايح جاي.. رايح جاي..

والكلَّاف يؤازره:

- آه.. رايح جاي رايح جاي.

ويستكمل صاحب الزريبة:

- لا مؤاخذة كده كنَّا لسه مخلَّصين حلب البهايم، بصراحة كشِّينا منه، وبعدين اتلقناه طيب وابن حلال وزَيّ ما يكون كده تايه ومش عارف يعمل إيه.

والكلاف يُؤمِّن على كلامه:

- آه.. تايه ومش عارف يعمل إيه!

والمأمور يرمق الكلَّاف بضجرٍ، ويستحثُّ صاحب الزريبة:

- ها.. ها.. وبعدين..؟

- دخَّلناه وعشِّيناه وبسطناه وصلَّى معانا المغرب والعِشَا، ولما قال لنا إنه غلط وهرب من المركب بتاعته وعايز يرجع لها تاني، رحنا جايبينه على هنا وحضراتكم بقى تتصرفوا معاه.

وبصوتٍ أخْفَتَ وهو يتنقَّل ببصره بيننا:

- واحد وقع في عرضنا، هنعملوا إيه..

والكلاف:

- آه وقع في عرضنا، هنعملوا إيه..

والمأمور يوبِّخُه:

- يا جدع إنت اسكت..

ثم بدأ في استفساراته بالسؤال عن اسم هذا الرجل، وصاحب الزريبة يجيب:

- اسمه إسماعيلوف يا باشا ومسلم ومُوحِّد بالله، وهمَّا تَلَت كلمات بس اللي بيعرف ينطقهم: أنا نفر مسلم..

والمأمور بعد أن سمع الاسم ازداد الالتباس الذي فيه، وحاول التفاهم مع إسماعيلوف لتَقصِّي الحقيقة بنفسه، أشار له بأن يقترب وهو لا يفهم معنى الإشارة وينظر إلى صاحب الزريبة والمأمور لا يزال مستمرًّا في المحاوله:

- إنت إنت، أيوه إنت يا أستاذ إسماعيلوف.

وبمساعدة صاحب الزريبة فهم إسماعيلوف وهبَّ واقفًا من فوق المقعد الذي يجلس عليه وتقدم نحو المأمور بخطوةٍ عسكريَّة، وصاحب الزريبة يقول:

- خَلَي بالك يا باشا دا مبيعرفش عربي، بيشاور بس..

ووراءه الكلاف:

- آه. بيشاور بس.

والمأمور الذي تَعَفْرَتْ من تدخلات الكلاف:

- لا حول الله! يابْنِي ارحمني وحُطّ لسانك جوَّه بُقَّك.

ويلتفت إلى الصولين بهادر وياسين:

- حد يا خوانَّا ياخده من قُدامي بدل ما أولَّع فيه.

ويسأل صاحب الزريبة:

- وكان معاه حاجة؟ قنابل يعني وللاحاجة من الحاجات دي.

- ولا أيتها حاجة كل اللي كان في جيوبه مصحف قد الكَفّ وتَلَتْ روبيَّات وسيجارتين فَرْط.

وبصوتٍ مرتفعٍ مع رائحةٍ غير مُستحَبَّةٍ يتجشَّأ الرجل أبو جلباب على اللحم وفتافيت الحلاوة، فيرمقه المأمور باشمئزاز:

- مين ده؟ إنت يا بني آدم إنت بتهبِّب إيه هنا!

وبغضبٍ ينادي على بهادر الذي رجع للتوّ بعد أن ألقى الكلَّاف في الشارع:

- إنت يا سي بهادر خد المحروس دا كمان من هنا، هو أنا أخلَص من زيد يطلعلي عبيد!

والزلَّاط فَصّ ملح وذاب، اختفى، عرفنا فيما بعد أنه اختبأ في الحمَّام، والمأمور الذي بدأ في التشوُّش يقول لي أنا وعاطف:

- يا سبحان الله! أمَّال مين اللي..

ثم ينظر لصاحب الزريبة:

- إنت متأكد إنه إسماعيلوف؟

ويُعيد صياغة السؤال من جديد ليُبدِّد الشكوك التي تساوره:

- يعني إسماعيلوف مين بالظبط، إسماعيلوف بتاعنا وللا إسماعيلوف تاني؟

والرجل لا يفهم قصده وينظر إلينا ملتمسًا التوضيح، وأنا وعاطف كفأرين وقعا في المصيدة بعد أن توجه إلينا المأمور ويريد توضيحًا هو الآخر..

أنا عن نفسي لم أنطق، حدَّقتُ في المأمور مثلما يحدق فيَّ، وتمتم هو:

- يكونشي..

وحسبها في رأسه فوجدها لا تُعقل، وتلعثم عاطف:

- أصل.. أصل..

والمأمور يكاد يأكله بأسنانه:

- أصل إيه وهباب إيه! تبقى الحكاية على كده..

وكأنه لا يكلمنا وإنما يكلم نفسه:

- يا ولاد الـ...، وجايين تتنطَّطُوا وفرحانين والحكاية كلها هَجْص في هَجْص.

وبصوتٍ شديدِ الخُفُوت حرص على ألَّا يسمعه أحد، غير أننا كلنا سمعناه:

- فضحتوني ووَّرطتوني مع الباشا الحكمدار.

ونظراته إلينا ليس لها معنى سوى أن الرُّتَب العسكرية التي فوق أكتافنا خسارة فينا، وضَرْبُنا بالشبشب أقل عقاب نستحقه..

ويتلفَّت على الزلَّاط:

- أمَّال فين التالت بتاعكم، راح في آني داهية؟

ويضيف بغضب:

- أنا عارف إنه هيودِّينا كلنا في داهية، اللي ما عمره فلَح في حاجة عملها! لا إله إلا الله بَلْوَة واتحطَّت فوق دماغي..

وأنا وعاطف نؤكد على كلامه، ونقول بأنه السبب في كل ما حدث وأنه...

لم نكمل، أسكتنا المأمور بإشارةٍ من يده:

- بس يا فالح منك له، يعني إنتوا اللي...

والصول بهادر شَمْتَان في الزلَّاط وأسرع خارجًا ليأتي به وينال من المأمور كلمتين في أجنابه هو الآخر، وبلغة الإشارة قطع علينا إسماعيلوف هذا الجو المتكهرب سائلًا عن سيجارة يدخنها، فأخرج المأمور علبته الكِنتْ ورماها في

حجره، قلّبها بين يديه بفرحةٍ فلاحظ المأمور وابتسم، كانت هذه أول ابتسامة يبتسمها منذ أن دخلوا علينا، وأشار لإسماعيلوف بأن العلبة كلها له فزادت فرحتُه وشرع في التدخين..

حذاؤه مُتترَّب وحوافُّه كلها مُلطَّخة بالطين، وعيناه زرقاوان مع خصلة شعر أشقر تلوح من أسفل البيريه، في المجمل كان مسكينًا ونظرات عينيه ما بين الراحة بيننا والخوف مما سوف يحدث له من قائده ساخاروڤ، وعندما رَبَّت صاحب الزريبة على كتفه ربَّت عليه هو الآخر بمحبة وأعطاه سيجارةً من علبة المأمور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليت الأمر إلى هنا وانتهى..

فوجئنا بزفَّة ثانية وأيضًا من القابوطي، أصحاب زريبة أخرى دخلوا علينا ونحن على هذا الوضع، كبيرهم – وعلى ما يبدو – عرف صاحب الزريبة الموجود معنا من قبل، هَلَّل في وجهه قائلًا:

- أبو سامي، يا أهلًا وسهلًا، سلامات سلامات..

وبحسرةٍ:

- تلت بهايم يا أبو سامي، اتنين اتسرقوا والتالتة سيَّحوا دمها.

وأبو سامي:

- يا حول الله! إمتى؟ مَدْرِناش..

- مَدْرِتش إزاي، دا كان ضرب نار وزيطة طول الليل والحرامية ياخويا سارحة ولا هاَممها!

وأنا وعاطف نتبادل النظر، وتبادلا هما السلام باليد والسؤال عن الصحة والأولاد وعن الشعير الذي شَحَّ في السوق والإردب منه سعره الآن أصبح بالشيء الفُلاني، والمأمور الذي أنهك ولم يعُد يتحمل:

- هي مَحْدَتَه يا جدع إنت وهو..

ويختص القادم الجديد:

- مصيبتك إيه إنت راخر؟

- حراميَّة يا باشا، حراميَّة كبسوا على زريبتي ليلة إمبارح وسرقوا تلت بهايم.

- تلاتة؟

- آه.. وأحلف على مصحف.

والمأمور المغتاظ منَّا ومن أصحاب الزرائب ومن الكرة الأرضية كلها يتشكَّك في البلاغ، وتقول له غريزته الأمنية إن هذا الكاذب لم يُسرق منه أي شيء، وأنه يقصد من كل هذا التهويل الحصول على مساعدة مالية من المحافظة مثلما حدث مع الذين سُرقت بهائمهم من قبل، لكن ماذا يفعل! تأتيه كل يوم بلاغات (فشِنْك) كهذه وعليه تلقِّيها وفحصُها وأمره لله..

يرمق الرجل رمقةَ خبير، ويجلس على كرسيِّه ساقًا فوق ساق ويهز رأسه:

- جميل.. جميل.. قول يا سيدي قول..

والرجل يستطرد:

- ولاد الحرام الظَّلمَة بعد ما سرقوا البهايم حملوا تلاتة منهم على العربيات اللي جايين فيها، وجوم على الرابعة ومعرفوش، نطحتهم، جاموسة ناصحة ودمها حُرّ.

والمأمور لا يزال يهزُّ رأسَه:

- ناصحة ودمها حر، ما شاء الله!

ويتدخل الكلَّاف الحِشَرِي:

- عارفها يا حاج عسران، مش أُمّ حلقة خَرَز في ودنها.

والمأمور الذي فوجئ بوجود الكلاف:

- يابْن ستين في سبعين! هو انت لسه هنا؟

ويهب واقفًا:

- غُورْ. غُورْ. اطلع برَّه. وفين الصول سُخام، مش أنا لسه قايل إن الجدع ده ميستنَّاش.

والصول سخام، عفوًا الصول بهادر، يجذبه بعنفٍ من ياقة الجلباب:

- يا راجل يا نَطْع مش أنا لسه حادفك في الشارع، رجعت إمتى! أدِبّ صوابعي في عينك..

ويستأنف المأمور مع الحاج عسران:

- وبعدين أم حلقة خرز دي إيه اللي حصل لها؟

- نطحت واحد منهم وكوَّمته على الأرض، يقوم الكفرة دول يعملوا إيه! تِكْ. تِكْ. تِكْ.

- إيه تك. تك. دي؟

- فَرْفَرُوها بالسلاح اللي معاهم..

- فرفروها..

ويتدارك المأمور:

- مش إنت يا حاج هباب لسه قايل إن البهايم اللي راحت منك تلاته، إيه اللي خلَّاهم أربعة دلوقتي؟

يتفاجأ الرجل بالسؤال فينظر للذين جاءوا معه، فيؤكِّدون له أنهم أربعة وواحد منهم أكَّدها له بالصوت والصورة، رفع له كفَّه اليُمنى بعد أن ثنى إصبع الإبهام، وقال هو للمأمور:

- كانت غلطة لسان، أربعة يا باشا..

وكان الصول بهادر قد عاد بالزلَّاط وانشغلنا بهما عدة لحظات، اكتشف الزلَّاط بأن بهادر يَعكُمُه من مِرْفَقه كما لو أنه مجرمٌ ويتقدم به نحو المأمور؛ فغضب ووكز بهادر وكزةً شديدةً في جنبه ووقف بيننا، وبعد أن استمع لشطرٍ من الحوار الذي يدور لم يتمالك نفسه وشخط في صاحب الزريبة:

- إنت راجل كداب! مفيش حاجة اتسرقت..

ويقبض بكفِّه على قَبَّة جلباب الرجل وهو يكملُ بغيظ:

- والله والله ما في حاجة اتسرقت منك، شُفتهم بنفسك وهمَّا بيسرقوا ويحمِّلوا البهايم على عربيات؟

والمأمور يحرك ساقه ذهابًا وإيابًا من فوق المقعد ويقول للزلاط:

- حضرتك شرَّفت، أهلًا وسهلًا أهلًا وسهلًا، أمَّال فين الحلوين اللي كانوا معاك؟

ويتلفَّت علينا رغم أننا ومن أول الحكاية نقف إلى جواره، بل ومن دقيقة فقط كان يتحدث معنا، المهم أنه تأمَّلنا وخاطبنا بنفس نبرة الاستهزاء التي يخاطب بها الزلَّاط:

- إنتوا هنا! يا دي النور..

وفي اللحظة نفسها يرد الحاج عسران على الزلَّاط:

- آه شُفتهم وهمَّا بيسرقوا، وبعنيَّة دي اللي هياكلها الدود.

- شفتهم إزاي يا راجل يا ناقص، دا الدنيا كانت كُحْل ليلة إمبارح وإنتوا كُنُّوا مطفيِّين النور والقابوطي كله هُسّ هُسّ دا أنا بنفسي...

وشعر بأنه سيفضح نفسه فسكت، والحاج عسران بدهشة:

- وحضرتك عرفت إزاي يا بيه! هو إنت كُتّ هناك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما وصلت هذه الأخبار للباشا الحكمدار لم يصبر علينا..

في ساعتها وبالتليفون وقَّع علينا الجزاءات نحن الثلاثة، وفي اليوم التالي صدر قرارٌ بنقلي إلى شرطة النجدة وعاطف مساعدًا لمفتش المفرقعات، أما الزلَّاط فأطاحوا به من بورسعيد كلها؛ استصدروا له قرارًا من الوزارة بالنقل إلى براري كفر الشيخ.

وعرفت بعدها أن الحاج عسران الذي ادَّعى سرقة بهائمه تحرَّر له محضرٌ بإزعاج السلطات، فكل ما كان يملكه خمس جواميس وجدوا أربعة منها في زريبته والخامسة مضروبة بالنار وميِّتة في المصرف، فالمسكينة هذه هي التي تسلَّلت من الزريبة وغطست في المصرف لتستحِمَّ ونحن الذين أردیناها!

وقُيِّدت القضيةُ ضد مجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

من أول ما أخذتني الذكريات وأنا هنا في الچيانولا..

ثلاث ساعات على نفس المقعد، وجئت ببورسعيد من شمالها إلى جنوبها والزلَّاط والقابوطي والمأمور والأخ إسماعيلوڤ وبهادر وأبو سامي وعسران، وتودري كالمَكُّوك ذهابًا وإيابًا أمامي، ثم ارتكن بظهره إلى باب المقهى يحسب أعدادًا على أصابعه، يجمعها ويطرحها في رأسه دون ورقة أو قلم، ويطُبُّ علينا ونحن على هذا الوضع رجل بشارب (دوجلاس) كشارب الممثل الأمريكي الشهير (كلارك جيبل)، رجل كبير في السن، في الستينات تقريبًا إلا أنه كان متصابيًا، الشعر مدهون بالكريمات ومصبوغ طبعًا، والقميص مُشجَّر والحذاء أسود لَمِّيع وله كعب مرتفع، وأوقف تودري الحسابات التي يحسبها ورمقه رمقةً غيرَ وَدُود.

جلس الرجل على بُعد عدةِ طاولاتٍ مني، ونادى على تودري عدة مرات وهو غيرُ مكترثٍ أو ربما لم يسمع، ويبدو أن الرجل شعر بالإهمال في حقِّه فشخط في تودري:

- إنت يا جرسون إنت! إنت أطرش، تعالى هنا..

وتودري يتقدم نحوه ببطء:

- خاضر. دقيقة واحد. ليه إنت زَعَل وزعيك رستم بيك، أنا عندي إتنين وِدْن وبَسْمَع كويس كتير، صبر خبيبي صبر..

- إكسبرسُّو قوام..

- خاضر خبيبي خاضر..

وبعد أن انصرف تودري، فك هذا الدوجلاس الزرار العلوي للقميص مُخرِجًا سلسلةً ذهبيَّةً عريضةً تتدلى من عنقه وأرخاها على صدره، وفي اللحظة نفسها أقبلت علينا امرأة من حسناوات حي الإفرنج تتبعها ابنتها بمريلة المدرسة، مدرسة (الديلڤراند) فالاسم مُدوَّن باللغتين: العربية والفرنسية على صدر المريلة، والأم تلومها:

- يعني لازم من الچيانولا، ما الآيس كريم مالي الدنيا؟

- آه.. لازم.. وعايزاها واحدة بالبندق والتانية باللوز.

وتهزُّ سبَّابتها بسرعةٍ نافيةً ما سبق أن قالته:

- لأ لأ، الثانية من الحمرا وتكون في بسكوته.

وتجلسان إلى إحدى الطاولات التي بيني وبين هذا الرستم بك، وهو يتأملهما بابتسام وبظفره يلعب في سلسلته الذهبية، ويأتي تودري بفنجان الإكسبرسُّو ويرزعه أمامه، وعندما يلمح المرأة وابنتها يُهلِّل مُرحِّبًا بهما:

- أَحْلِنْ أَحْلِنْ مدام ثريَّا، وإنت يا فيفي يا عَكْرُوت لازم عايز آيس كريم، دقيقة واخدة..

فتُسرع إليه البنت محتضنةً ركبته وهو يحنو عليها، ويقوم رستم بك نصف قومة وكأنه يودُّ مشاركتهما الجلسة، وتودري الذي لاحظ:

- خبيبي رستم بيك دي مدام ثريا الأخت بتاع مأمور قسم إفرنج، اللي بتمسك الناس المجرم قليل الأدب وتحطُّه في كَلَبُوش..

فيبتسم لها هذا الرستم ويقول لتودري:

- كده! وعلى فكرة الدنيا حَرّ هنا أنا داخل جوَّه في التكييف.

- أخسن برضه، أدخلي عند (خسانة) الجرسون بتاع جوَّه هو يعرفك تمام ويخبك كتير.

والمرأة مندهشةُ فلا تمتُّ لهذا المأمور بأية قرابة، لكنها استوعبت عندما مال عليها تودري موضحًا:

- دي واخده بايظه، واخده بصْبَاصَة، كل اتنين تلاتة يوم بتيجي هنا علسان إعمل معاكسات.

فأقول له:

- براڤو عليك يا عم تودري.

- أمَّال خبيبي.. أمَّال! هو تودري يجيب طلبات ويودِّي طلبات وخلاص، تودري أمين على مطرح دي وكل زبون هنا مسئول مني ولازم حافظ عليه..

ويهل العَمُّ بيتر ماسح الأحذية، الطلياني العجوز الذي تجاوز الثمانين ولم يتقاعد بعد، فأربعون سنة وهو وحده الذي ينظف أحذية رواد الچيانولا ورويال والكافيهات المحترمة بشارع الجمهورية.

يظهر على شاشة المقهى بطلَّةٍ مدهشةٍ تُنسيك الصندوق الذي يحمله أو بنطاله الچينز المُلطَّخ بالورنيش، وتُجبرك على احترام طوله الفارع ونظَّارته الطبية والأنف الرومانيّ المُدبَّب، وكان على العكس من تودري لا يعرف

الثرثرة أو حتى يتكلم إلا بصعوبة، وإذا رغبت في التحدث معه ولم يكن مزاجه رائقًا يرد عليك بالإيطالية لتكفَّ عنه!

رَنَّة جرس خفيفة فأنتبه له، فقد كان مُثبتًا بصندوق الورنيش جرسٌ صغيرٌ من ذلك النوع الذي نراه على مِقْوَد الدرَّاجات الهوائيَّة..

ثم نظرة عين تستفسر عمَّا إذا كنتُ أودُّ التعامل معه، أشير له بأن يدنو مني فيتقرفص أمامي ويُشمِّر بنطالي شمرتين دون أن يتفوَّه بكلمة ورنَّة جرس ثانية: أي أن أضع قدمي فوق الصندوق، وما إن يتم تنظيف فردة الحذاء التي مددتها له تبدأ الرنَّة الثالثة لأضع القدم الأخرى، وعندما ينتهي عدة رنَّات وراء بعضها البعض، كان أجر مسحة الحذاء في ذلك الوقت ثلاثة قروش، أعطيته أربعة فأعاد لي القرش الزائد، ولما صممتُ على تركه له لم يلتفت، اعتبرها إهانةً وعيناه تقولان لي: لا تُكرِّرها معي مرة ثانية..

وتودري الواقف بالقرب منَّا تربَّث حتى انشغل العم بيتر بزبون آخر، وابتسم مُعلقًا:

- دي واخد إعجوبة! من بواقي الطليان بتاع زمان..

ويُخفض من صوته حذرًا من أن يسمعه العم بيتر:

- النَّفر البلوَة دي يا كابتن كانت زمان بتقعد في أول صف في (الكازا دي إيتالي)[8] جنب الناس الطليان المهم وتخط رِجْل على رجل، مش واخدة بالها إن ريخته عفس كتير وكله ورنيس، وكمان كعب الجزمة بتاعته مخرومة وكل الناس سايف!

ويميل برأسه نحوي حتى يكاد يصطدم برأسي:

- المُحّ بتاعته فيها خرابيط كتير! فاكرة نفسها موسوليني وللا رئيسة المافيا كله!

وعندما التفت العم بيتر ناحيتنا، حيَّاه تودري:

- أحْلِن أحْلِن خبيبي، الچيانولا كله منوَّر بالسِّنيُور بيتر، سنيور الدنيا دي كله!

ويعلو بصوته:

- أحْلِن أحْلِن، أنا مبسوطة منك كتير..

والعم بيتر يتجاهله، لم يرد عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أَلَمْلمُ أشيائي بعد ذلك شارعًا في الانصراف وتودري فوق رأسي وبيده فاتورة الحساب، وأتذكَّر لحظتها واقعة شيخ العرب التي لم يُكملها لي، فقلت: لا بأس، أسأله قبل أن أنسى، وأراح هو يده على ظهر المقعد الذي أمامي وبدأ:

- آه.. سيخ عرب! الولد مرسال هيَّه اللي كانت عامله نفسها سيخ عرب..

لم يرِدْ على بالي قط أنه يمكن أن يكون هو:

- مرسال!

- آه.. هي الولد المناخوليا دي..

ثم يقول لي إنه أساسًا من بدو سيناء، وُلِد وعاش في منطقة هناك اسمها (بئر العبد)، وسنة 56 تطوَّع بالجيش حيث كانت كتيبته تُعسكر بجنوب رفح، وفي حرب 67 انسحب معها إلى الضفة الثانية للقناة، ومن يومها انقطعت علاقته بأهله الذين يعيشون هناك، فلا له أُمٌّ يعيش معها الآن ولا أبٌ ولا أخٌ ولا زوجةٌ ولا أي إنسان، وأنه عشرون شخصًا في شخص واحد، مخلوق تحتار فيه، لا تعرف إن كان إنسانًا أم عفريتًا، مكَّار لئيم ألْعُبان دماغه فيها ألف حيلة وحيلة وفي الوقت ذاته طيب وغلبان ودَمْعتُه قريبة، كما أنه حاد المزاج، فعندما يأتي لهم في الچيانولا يكون أحد أمرين، إما في حالة جلجلة ويثير زوبعةً من الضحك والحركة ويشاغب الجالسين، أو عابسًا لا ينطق بكلمة..

ويستطرد:

- ولما أسأله ليه إنت خيبي زعلان والبوز بتاع الإنت لقدام، يقولّي: إن البابا بتاعته ماتت في خادث وأن الخبر دي جاتله أول إمبارح، أنا أزعل كتير علسانه وأقول له: اقعدي هنا يا مرسال على الكرسي دي زيِّك زيّ أخسن زبون، وأجيب له واخد مسروب على خسابي، والله على خسابي! وهو يبكي ويقول: رفسته خمار وماتت في ساعتها، ولما أنا أطبطب عليه يقولّي: أنا عايز واخد مسروب تاني علسان أنا زعلان كتير والناس الزعلانين لازم كل سوية تسرب مسروبات علسان تبقى مبسوط، أجيب له مسروب تاني وتالت، وكله على خسابي أنا!

وبغضب:

- ويطلع كل كلام دي كدب في كدب وإن البابا بتاعته صاخية وعايسه على ضهر دنيا، دي ولد مجرمة!

وكان عَمّ حسَّان الجرسون النوبي يمضي أمامنا لحظتها، ويبدو أنه فهم على من نتكلم فعلق على السريع:

- أيوه دي ولد خبَّاصة وقليلة أدب.

وتودري يُؤمِّن على كلامه:

- سُفْت خبيبي.. سُفت سُفت.. خسانة هيَّه كمان عارفة كل حاجة بخصوص ولد دي، وإنه بتعمل حركات علسان تضخك على تودري وتِسْرَب خاجات على خسابه!

فأسأله محاولًا مداراة ابتساماتي: كيف تأكدت من ذلك؟

- علسان خبيبي بعدها بتلاتة يوم أربعة يوم مس فاكر، جاتنا هنا الولد دي وكانت فرخانه وتضخك مع النفر دي والنفر دي وعملت لنا شَمطَا وزمبليطا كبير، وإنتي عارفة يا كابتن إني أنا واخد ناصخ وأفهمها وهي طاير فقلت أعمل عليه امتخان واستخبارات، جيت على سخوة كده وفي وسط كلام وسألته سؤال مفاجئ عن البابا بتاعته، قالت لي: إنه كويس كتير وبيسلِّم عليك وكمان اتجوّزت عروسة جديد، أنا فخمتوا على طول وعملت معاه واخد مسكل كبير في اليوم دي وقلت له إنتي واخدة كدابة، مس فيه خبر من أول إن البابا بتاعتك ماتت، إزاي هي تسلم عليَّه وإزاي تتجوز وهي ماتت! تقوم الولد الملعونة دي تقول لي: وإنتي سأنك إيه خواجة، دي أسرار عائلي! البابا ماتت وبعدين صحيت من موت، فيها إيه دي يا خواجة، بتخصل ساعات!

أعرف أن تودري لن يتوقف عن الكلام وفي أي اتجاه، فأمسكت له باللجام وحددتُ له الوجهة، وأن يُجيبني تحديدًا عن واقعة شيخ العرب:

- آه. آه. في اليوم اللي كانت لابسة فيه سيخ عرب، أنا قلت له: إمسي من هنا سيخ عرب إنت، معرفس خبيبي إنه مرسال! راخ هيَّه خالعة النضارة الأسود من على عينه وشال اللي اسمه عوكال من فوق راس، وقال: أنا مرسال يا خواجة، إنت مس إعرفني!

وبتأثر:

- في اليوم دي كان طيب كتير وكان ناقص ينزل دموع، وقال إنه لما بياخد واخد أجازة بتبقَى مس عارفة تروخ فين وبتفكَّر في أهلها كتير، وكمان مس بتبقى عارفة ليه هي بتلبس اللبس دي وبتمسي بيه في سوارع! بيخِنّ خبيبي بيخن للدنيا القديم بتاعه..

ويقلِّب يديه:

- سبخان الله! الولد دي عفريتة وللا مجنونة وللا تستخق شفقة من إنسان، مس إعرف..

ويأخذني الفضولُ بعد هذا الحديث، وقبل أن أتجهَ لمقرِّ عملي أنحرف يسارًا إلى الجبَّانة وألتقي بالنقيب صفوت قائد الكتيبة التي تُعسكر هناك..

كان شابًّا من جوف الصعيد وشهامتُه بلاحدود، قابلته مرتين أو ثلاثًا من قبل ولما سألته أكَّد لي ما قاله تودري، وعندما طلبت منه أن أرى مرسال وأتكلم معه أشار إلى مقبرة على بُعد خطوات:

- هو اللي ممدِّد هناك..

كان نائمًا على مصطبة بجوار المقبرة، والنومة نومة عجيبة، رأسه بين ذراعيه وركبتاه مثنيتان حتى منتصف بطنه، الوضع الذي يأخذه الجنين وهو في رَحِم أمِّه، وانتابتني عدة مشاعر لا علاقة لها ببعضها البعض، شفقة على دهشة على فضول على رثاء، ولم يَدُرْ في بالي مطلقًا أن هذا الإنسان سوف يقفُ معي وقفةً لا تُنسى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

واشتدت الغارات..

فمن قبل كانت الدنيا أقل عنفًا والحياة تمضي، غير أن التكثيف في حرب الاستنزاف على طول القناة جعل العدو يسلط آلته الحربية على أجزائنا الضعيفة، الناس البسطاء الذين لا لهم في الحرب ولا بأيديهم أدوات قتال، طائرات الإسكاي هوك والفانتوم شنت غاراتها على البيوت والمدارس والأسواق والشوارع.

وكنا نصل الليل بالنهار والموتى والجرحى بالمئات، كبار وصغار ورضع ورضيعات لا يعرفن من هذه الدنيا سوى حلمات الأمهات، وردم وغبار يملأ الجو ورائحة بارود..

دور بأكملها انكفأت والهدد سد الشوارع، وباصات انفتحت بطونها وأدخنة سوداء تصعد من النوافذ، ومركبات من ذوات الحجم الأصغر تهشمت عن آخرها ونسحب الناس الذين فيها..

ولوازم وأغراض مرمية، سلاسل مفاتيح، حوافظ أوراق أو نقود، ساعة حائط تهشم زجاجها والعقارب ماتت، حفنة مسامير على صواميل في كيس بلاستيك، جورب، فردة حذاء، رأس ماكينة خياطة، شماعات ومنامة أو بنطال أو قميص لا يزال معلقًا بها، ومساطر وأقلام وكتب وكراسات..

كنا نتعثر في هذه البقايا ونزوفها برفق بجوار أي حائط أو تحت باكية من البواكي، والخضة، خضتي أنا على وجه الخصوص عندما أخرجنا عم خلف ميتًا من دكانة، ورزق الفطاطري الذي خطفناه خطفًا وطرنا به إلى المستشفى، لم نكمل، مات منا في الطريق، وعم بنيامين الصائغ الرجل المهاود أبو نادر وفهيم، وأم الغلام بائعة المشبك وحلويات دمياط التي ماتت في مطرحها، انكفأت المسكينة على القفص الجريد الذي ترص فوقه بضاعتها، وتسألنا وهي في الأنفاس الأخيرة عن ابنتها (خيرية) وتؤمِّننا أن نلملم ما تبعثر من الحلوى ونسلمها لها وأن نستحلفها بالله أن تسدد عنها الدين الذي في رقبتها، خمسون جنيهًا كانت قد استلفتها من الحاج عيسوي صاحب محمصة البن في أول شارع الحميدي.

لا أظن أني سوف أنسى عم خلف بالذات..

قلبي يومها بكى بالدموع، فلم أرَ الموت من قبل مجرمًا على هذا النحو، يفتري على إنسان بهذه الصورة! لا رحم الوجه ولا الصدر ولا الظهر أو عفا

عن طرفِ من الأطراف..

دكانه دكان صغير بأول شارع الحميدي، أربعة أمتار في أربعة مثلها، وعلى الرغم من ضآلته وضآلة عم خلف ذاته في عالم التجارة وإلى ما يقارب الصفر إلا أنه كان صاحب رسالة، كان متخصصًا في الأحذية الشعبية، أحذية شركة (باتا) حبيبة الغلابة، صبيان وبنات في أيدي أمهاتهم لا يكفون عن التردد عليه خاصة على هلة المدارس، وعمال وموظفون وأصحاب حرف بسيطة وكل من هو من أهل الهامش، فالسعر عنده هو السعر الذي يتحملونة، يرضى بالقليل وتسعده البسمة التي تعلو الوجوه عندما تعرف أنها ابتاعت بسعر أقل من السعر الذي حددته الشركة المنتجة، ولو بثلاثة أو أربعة قروش، فالقرش كان غاليًا عليهم يشترون به ثلاثة أرغفة، أو كراسة أو قلم رصاص لعيل من العيال، أو ساقًا فوق ساق على مقهى من المقاهي التي في الخلف وكوب شاي ومعه سيجارة.

حملناه يومها وامرأته تولول وتشق هدومها..

وكانت هذه هي المرة الثانية التي أراها فيها، جاءتنا بصحبته من قبل، أيام أن كنت في قسم العرب، كانت تود استخراج بطاقة شخصية، والصول (فانوس) مسئول السجل المدني يحاول إقناعها بأن ترفع الطرحة قليلًا عن حاجبيها وأن تكشف عن أذنيها بالكامل، فهذا شرط وهذه هي التعليمات لقبول صور البطاقات وهي ترفض، استحت، اعتبرتها عيبة في حقها، وعندما حدث ما حدث اليوم اندفعت بلا شيء من كل هذا، عارية وفقًا لمقاييسها، الشعر والعنق لا شيء يسترهما، والجلباب بنصف كم والذيل إلى ما بعد الركبة بشبر كامل..

نزلت الشارع بثياب النوم وهي لا تدري، انفضحت بسبب هؤلاء الظلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عاطف) هو الآخر أصيب إصابة شديدة..

فأثناء الغارات كانت الطائرات تلقي بلعب أطفال على كل بورسعيد، بورفؤاد والإفرنج والعرب والمناخ، لعب لا تزيد في حجمها عن حجم الكف وبأشكال ملفتة، مرة علي شكل (أراجوز) ومرة دمية علي هيئة دب أو قطة أو كلب، وعندما يعثر عليها الصغار أو حتى الكبار ويحاولون العبث بها تنفجر فيهم، نادرًا ما تقتل، تشوه أو تؤذي أعضاء الجسد أذى شديدًا ويصبح الإنسان بعدها معوقًا، لذا كنا نحذر الناس بميكروفونات تجوب الشوارع وتنادي بعدم الاقتراب منها.

وفي إحدى المرات عثروا على علبة من الصفيح عليها صور ورسوم لميكي ماوس على الغطاء وفي الأجناب، لم يقتربوا منها ابتعدوا لمسافةٍ حسب التحذير، وعندما أبلغونا انتقل عاطف وحملها معه في البوكس، ويبدو أنه حاول التعامل معها أثناء الطريق فانفجرت مهشمة كفَّه اليُمنى بالأصابع الخمس، سائق البوكس أيضًا أصيب في ركبته وفخذه.

لم أتمكن من زيارته الأيام الأولى، حالته خطرة وهو نفسه كان منهارًا، وعندما سمحوا بالزيارة توجهت لمستشفى (المَبرَّة) فرمقني بابتسامةٍ لم تدُم سوى لحظة وغلبه التأثر وبكاء ساكن جليل، مجرد حبَّات دمع تنسال على صفحة الوجه دون رجفات أو صوت لنهنهة، وأنا أُربِّت على كتفه وشفتاي تصدر عنهما كلمات عزاء وتخفيف، كلمات تخرج بلا وعي في هذه الحالات ولا معنى لها، وإن كان لها معنى ليس لها مفعولٌ أو تأثيرٌ في الشدة التي كان فيها.

الدقائق الأولى فعلًا كانت صعبة..

ذراعه مُغطَّاة بالضمادات وإن كان ثمَّة تعبير على وجهه فهو الصدمة، وكأني أشعر بأن قدومي أثَّر عليه بالسلب لا الإيجاب، ذكَّره بأيام اللعب والشقاوة وعندما كنا نتمازح بالإيدي وغالبًا ما كان يتفوق عليَّ بيده المصابة هذه، وأنا كمَنْ تعطل لسانُه، ألف معنى ومعنى في صدري ولا وسيلة للتعبير، وحتى إن تكلمت وعبَّرت لا أثر ولا محصلة في موقف كهذا، اقتصدت، وليس بخُطْري لم أجد شيئًا أقوله، هي الكلمات التي سبق أن قلتها أول ما دخلت ثم سحبت مقعدًا وجلست، وطفق هو في تحريك مؤشر المذياع الذي يعلو الكومدينو، محطات ومحطات حتى وصل إلى إذاعة القرآن الكريم، وكان القارئ الشيح محمد صدِّيق المنشاوي الذي طالما أثنى عليه بل وكان أحد مريديه، ومن حُسن الطالع أن التلاوة التي يتلوها جاءت في الصميم، والشيخ يقول «واصْبِرْ لِحُكْم ربِّكَ فإِنَّكَ بأَعْيُنِنَا»[9]، وعاطف يخفض الصوت قليلًا بعد هذه الآية:

- الحمد الله..

قالها بنبرة قابلة راضية وليست كما تُقال أحيانًا والقلب لا يعنيها، هذا هو الإحساس الذي جاءني لحظتها وإن كنت لا أجزم بأنه الحقيقة والإحساس صحيحًا، فلربما حبي وإعزازي لعاطف هو الذي ترجمه على هذا النحو.

وشيئًا فشيئًا بدأ يتكلم، حكى لي عن حُلْمٍ أتاه في الليلة التي سبقت الحادث، فكأن أفعى لدغته وولَّت هاربة وحسبَ أنه مات من هذه اللدغة، وعندما استيقظ اكتشف أنها موتة في الهواء وأنه لا يزال حيًّا يُرزق، وأردفَ مفسرًا بأنها رؤية وليست حُلمًا، إشارة من الله بهذا الحادث وبأنه سوف ينجو منه..

فسكتُّ، ورمق هو ذراعه المصابة وبصوتٍ يكادُ يُسمع:

- خلاص بقيت عاجز..

ثم بادرني بما لم أتوقع، سألني وعلى وجهه نصف ابتسامة:

- بتشوف الزلاط؟

فحدَّقتُ فيه مستغربًا السؤال، ودخل هو في موضوع آخر:

- إوعى تفتكر إن ربنا هو اللي أذاني زي ما ولاد...

ولا يكمل عبارته، يعود إلى الزلاط من جديد:

- تصور! جاني إمبارح، سمعت دوشة عالباب وأتاريه هو وبيتشاكل مع واحدة تمرجية من تمرجيات المستشفى، ست غلبانة وفي حالها وعلى إيه! يللا يللا المهم إني لقيته داخل عليَّه، مانت عارف إن بيته وولاده هنا في بورسعيد وبييجي لهم في الأجازات، على العموم كتَّر خيره..

وتعلو وجهه ابتسامة:

- دا مكهرب كفر الشيخ!

ثم ضحكة خفيفة:

- شغَّال في المرور هناك، وبيقول إنه مربِّي الرعب للجماعة بتوع النص نقل واللواري.

ولحظة صمتٍ يتكدَّرُ وجهه بعدها:

- شوف الناس اللي معندهاش ضمير، بيقولوا إن اللي حصل ليَّه ده عقاب من ربنا.

فـأفهم أنه رجع للمسألة التي تشغله، ويتفادى هو عيني:

- يعني.. علشان لعب الورق..

وبأسًى:

- جاني الكلام..

وأنا عيناي تدعانه ذاهبتين إلى الذراع المصابة، كانت ملفوفة بالأربطة والشاش من عند ثنية الكوع والكف لا وجود له، الأصابع التي طارت كانت رفيعة وبإحداها خاتم الخطوبة، تصلح لعازف على آله موسيقية، البيانو بالذات أو آلة القانون، أو لفنان يفهم في فصوص (الألماظ) يتحسَّسُها ويفصل الحُرَّ

من المغشوش، وفي وسط هذه اللحظات الثقيلة راودني خاطر بأن أسأله عن دبلة الخطوبة، أين هي؟ هل ضاعت هي الأخرى في هذا الحادث؟ غير أني وجدتُه سؤالًا سخيفًا والأهم الآن التسرية عنه بأي شيء، ذكَّرتُه بمشوارنا للقابوطي والجاموسة الغلبانة التي أردیناها في المصرف وقفشات من أيامنا التي فاتت، أقول وأعيد وأزيد وكأني أؤذن في (مالطا)، فلم يكن معي بالمرة، وفي عِزِّ اندماجي قاطَعني ونظرةُ ضيقٍ تخرج من عينيه:

- الناس دي أعوذ بالله! دول مدخَّلين ربنا في كلامهم..

وبنبرة من يستكثرُ هذا الكلام ويغضب له:

- ربنا! آه يا ولاد...، دا زي ما يكون استغفر الله سره سرهم وبيحسبها ويحكم زي ما هم بيحسبوها مع بعضهم!

فأتوقف ويسهم هو بعينيه ثم يسألني:

- تفتكر ربنا بيعاقبني زي ما بيقولوا؟

ويبدو أنه فسر صمتي على غير ما في ذهني، فأسرع قائلًا:

- أبدًا أبدًا.. اللي حصل ده أنا السبب فيه مش حد تاني.

وبسبَّابته التي ترفض:

- يعني مش بسبب القمار وللا أي معصية من المعاصي، لا. لا. المسألة من أولها لآخرها إهمال مني، يمكن مكُنْتِش مركِّز صح وأنا بفتَح العلبة، وللا يمكن قلة خبرة دا أنا كلهم كام شهر اللي اشتغلتهم في المفرقعات، أو حظ أو نصيب، إنما ربنا هو اللي عمل فيَّه كده لأه وألف لأه.

وأنا أجاريه بصدق:

- معاك حق..

- أيوه معايا حق، وهو أبويا وأمي الغلبانين دول ربنا هيأذيهم فيَّه ليه..!

وكأنما تذكَّر شيئًا:

- وسواق البوكس كمان! مانت عارفه الحاج عمارة راجل مافيهوش غلطة، ذنبه إيه التاني علشان يتأذِي بسببي.

وتدخلُ علينا ثُلةٌ من الزوَّار فنتوقف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

16

ولم تمنعني الغارات من التردُّد على الچيانولا..

ففي أوقات الراحة والهدوء كنت أخطف رِجْلي إلى هناك، وفي إحدى المرات وجدتُ عمَّ حسَّان الجرسون النوبي واقفًا على خدمة الزبائن في الركن المُخصَّص لتودري..

كان نحيفًا بعض الشيء ولم أرَهُ ولا مرة إلا بالعمامة والقفطان وصينية المشروبات فوق كفِّه، ودائمًا في حالة استعجال، وقد حاول السِّنْيُور ماركُو مرارًا إقناعه بالبنطال والچاكت الأبيض كتودري وسائر الجرسونات إلا أنه كان يرفض، أخيرًا توقف عن الضغط عليه احترامًا لسِنِّه الكبيرة ولأنه أقدم الجرسونات، ولطالما ذكَّرني العم حسان بالفنان النوبي الجميل(سيد إسماعيل) الذي أمتعنا بخفَّةِ ظِلِّه في مسرحية (إلَّا خمسة) وأفلام الأبيض والأسود، غير أن بال عَمّ حسان لم يكن طويلًا كسيد إسماعيل، فلم يكُنْ يكفُّ عن النِّقار مع زملائه الجرسونات بل ومعنا أيضًا نحن الزبائن، شجارات لطيفة خفيفة وتنتهي في لحظتها بضحكاتٍ من كل الأطراف، بل ومن الزبائنِ من كان يتعمَّد إثارتَه ليشاهدَ رِدَّة فعله ويتابع بابتسامٍ انفعالاتِ وجههِ ولكْنتَه النوبيَّة السريعة اللاسعة خاصةً عندما يغضب، كانت أشبه بشَرَر الكهرباء أو بمذاقٍ كمذاقِ الفُلْفُلِ الحامي!

أسألُه عن تودري الذي تعوَّدت عليه، فيرفع حاجبيه بدهشة:

- وليه تودري! علسان إيه! وهو (حسان) مس تمام، مفيس عنده مفهوميَّة!

أحتاط من زعله:

- أبدًا أبدًا العفو يا عم حسان، دا انت الكُلّ في الكُلّ هنا..

- تمام.. أكيد الكل في الكل، أنا رئيس جرسونات في چيانولا، أقول لتودري إنتي تقفي في المطرح دي وإنتي يا ولد يا سليمان مسئولة عن الركن دي والناس المهم اللي بتقعد فيه، وإنتي يا إدريسا إيه التراب دي اللي فوق جرامفون، إهتمّي بسُغْلك يا حَلُّوفَة! أمَّال! أمَّال! الكلمة هنا كلمة حسَّان وبس.

- طبعًا. طبعًا.

- أمَّال! مين تودري دي! ومين سليمان وللا إدريسا دي! كل دي مُستخدِم تحت إيدي، أنا أعرف ناس وزير ناس سفير وكل الناس المهم، كمان أعرف يوسف

بيه وهبي وعمر سريف وسعاد حسني والست هند رستم.

- هند رستم!

- أمَّال! كل البرتيتة دي كان بيعمل هنا فيلم (إساعة حب)، وبييجي عندي في چيانولا.

- ومين الأجمل يا عم حسان، سعاد حسني وللا هند رستم؟

- سعاد بنت حلوة وأَمُّور، لكن الست هند دي حاجة تاني، دي واخد أنثى مفيس زيه، وبعدين تسربي إيه يا كابتن؟

- قهوة سادة..

- وسادة كمان!

وبأبوَّةٍ يحاولُ إقناعي بأنها ضارَّة للصحة هي والسيجارة التي في يدي، وحبَّذا لو أخذت قطعة كرواسو وكوبًا من النِّسْكافِيه فأوافق، وبرهة ويلوح تودري وهو يهبط من فوق دراجته الهوائيَّة وبندقية مُعلَّقة بكتفه، والعَمّ حسَّان يقول:

- آهه! الملعونة تودري جَتْ هلاص.

وبلهجةٍ كالشَّحْطِ مُشيرًا نحوه:

- إنتي ولد تودري، عندك عسرة دقيقة تأخير عن المناوبة بتاعك..

وينتحيان ببعضهما ووشوشةٌ يعلو صوتُ العم حسان بعدها:

- لا والله! سبخان الله! كل دي عَملُه الست المجنون دي! لا لا لازم مَوْكِف.

وتودري بنبرةٍ رزينة:

- وإخنا مالنا خبيبي، إحنا في خالنا، دي ناس طليان مع بعض، والسِّنْيُور ماركو واخد مس عبيط والچيانولا بتاعه وهو خُرّ فيه.

وعم حسان المنفعل:

- لا. لا. أنا لازم وَكَّفه عند حده، وقولُّه: عيب عيب..

وتودري مُشيحًا في وجهه:

- وإنتي سأنِك إيه؟ إنتي واخد جرسون مَلُوس لزوم..

- إخرصي تودري وإحترمي نفسك، أنا واخد مهم والچيانولا دي كُلّه سايلَه على دماغي.

ويتناوشان مع زغداتٍ في الأجناب، إلى أن يستسلمَ العمُّ حسَّان ويسلم برأي تودري:

- هلاص هلاص ما دام إنتي سايفة كده، بس لازم نهرَّص من هنا ورايخ من الست چينا دي، دي واخد مجرم وممكن وقَّع واحد في مصيبة!

ويتجه تودري إلى الداخل بعد هذا الحديث، يضع سلاحَهُ في الدولاب الخاص به ويُغلق عليه بالمفتاح، ويعود بالچاكت والبنطال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا اليوم عرفتُ أنه أحد رجال المقاومة الشعبية..

ويتلقَّى تدريباتٍ في ساحة أعدُّوها لهم بملاعب النادي المصري، وإذا تطورت الأمور لا قَدَّر الله هو وبعض زملاء له مَنُوطٌ بهم مربعٌ سكنيٌّ من مربعات حي المناخ يتولون الدفاع عنه، وكانت تدريباتهم على الأكْمِنَة والمناورات وحرب الشوارع، ويعززونها بمشاهداتٍ لأفلامٍ وثائقيَّةٍ لما كانت تفعله المقاومة في بورسعيد أثناء حرب 56، والمقاومتان: الفرنسيَّة والروسيَّة بمدينتَيْ باريس وستالينجراد في الحرب العالمية الثانية.

تَنتَابُني مشاعرُ طيبةٌ وهو يتكلم عن هذه التدريبات والاستعدادات، مشاعر قُرْبَى، انتماء، مشاعر من هم في أتون واحد والمصير الآتي وسواء بالخير أم الشر سوف يعود عليهم جميعًا، لكن لا مانع من المشاكسة:

- حاجة غريبة! وأخدوك في المقاومة وإنت يوناني؟

- إيه يوناني دي! دي كلام في ورق، كل ناس في بلد دي إعرف مين هو تودري..

- وتمسك سلاح وتحارب؟

- أيوه خبيبي أخارب، وليه لأ! أخارب وولَّعتوا نار في الدنيا دي كُلُّه! واحدة مجرم هاجمة علي بيتي وبالعافية والخناق عايزة تقعد فيه، أنا إعملتوا إيه! أحُطّ لسان جوَّه بُقّ وأقعد على كرسي واتفرجتوا عليه..!

وأنا مستمرٌّ في المشاكسة:

- خلِّيك في حالك أحسن يا عم تودري وابعد عن المقاومة ووجع الدماغ..

- إيه الكلام اللي مس خلو دي! إنتي عايزة تسوِّي واخد خوف عند تودري، لا لا يا كابتن أنا أخارب وأخارب دا لخم كتف من بلد دي.

- بس دي مش بلدك؟

- مس بلدي!

لم يَقُلْها بغضب، قالها باستهزاء، ثم أشاحَ بيده في الهواء:

- قُول قُول خبيبي زي ما إنتي عايزه، كلام بتاع إنتي كلُّه كلُّه في هَوَا، وعند تودري البلد دي هو بلده والسوارع دي هو السوارع بتاعه..

- يا سلام!

- إيه يا سلام دي! كلام تودري مس عاجبيك، إنتي خُرَّه..

- ولو مصر بتحارب اليونان هتعمل إيه؟

- وعلسان إيه يونان ومصر يبقوا زعلانين من بعض ويتخاربوا، دُول خبايب وصخاب..

- أنا بَفْرِض.

- أقْعُدوا على خياد..

ويرمقني بنظرةٍ حادَّة:

- إنتي خبيبي عايزة تعملي مَطبَّات ولخبطة في الدماغ بتاع تودري، قولي وإعملي زي ما إنتي عايزة بس إفطني كتير للكلام اللي أنا هقول، لو يونان كان غلطان وقرَّب من بورسعيد وعمل معاه خَرْب، أنا أمسك سلاح وأخارب يونان..

- تحارب اليونان؟

- وجدّ يونان كمان! وبعدين أنا واخد زعلان منك يا كابتن علسان إنت كلام في كلام عن خاجات عزيز على نفس وجُوَّه جُوَّه في قلب..

وألحظُ رعشةً على شفتيه وهو يتكلم:

- بورسعيد خبيبي هي أُمّ وأب، مس أعرف في الدنيا دي غيره، عيس وملخ مع ناس هنا، المدام بتاعي أنا اتجوّزتُوا من هنا بنت المقدِّس لبيب بتاع البيكيا والخاجات القديم، أنا مس كوتاريللي تاجر كبير بتاع دخان وللا إستافيليدس

مستورد خشب، دي ناس عنده فلوس وبيوت في أوربا وأمريكا ويقدر يعيس هناك، أنا مسكين خبيبي ولو فيه خراب لبورسعيد يبقى فيه خراب لتودري.

ولا أستطيع إيقافه:

- إفطني كابتن.. بخرِ بتاع يونان أنا معرفوس، أكل بتاع يونان أنا معرفوس، معرفس سَمْس ولا كَمَر ولا سما غير بتاع هنا ولا بخر غير بتاع هنا ولا بوري ولا قاروص ولا جمبري غير بتاع هنا، البابا والماما مدفونة هنا في مكابر يونانيين وكمان ابني ميناس ابن تلاتة سنة، زعل فرخ كله كله هنا، يونان بلد أنا أحبُّه كتير بس هو فين خبيبي؟ على خريطة بس، خريطة ورق، خريطة قلب فيه خاجة تاني..

وتتجه عيناه لفتافيت قطعة الكُرْوَاسُو المتبقية في الطَّبَق الذي أمامي:

- فطرتي إيه النهارده كابتن؟

أشير إلى الطبق والرَّشْفة التي تبقَّت في كوب النِّسْكافيه، فيتأملني وفي عينيه ومضةُ سُخرية:

- آخ! فطرتوا زَيّ خواجات! أنا خبيبي فطرتوا طعمية سُخْن وصَخْن فول بزيت حارّ، والمدام بتاع الأنا (أمّ خِريسْتُو) هيسوِّي لنا بصاره وبصل أخضر على غَدَا..

وعيناه تقولان لي: هل فهمْتَ أم لم تفهم بعد؟! وأنا أحاول الإفلات منه، وأسأله عن العم بيتر هل له نفس المشاعر؟

- سنيور بيتر يا خبيبي هلاص بقى واخد مصري، معاه جنسية من عشرة سنة، بس دي كركوب مش يعرف يخارب، والراجل المخترم دي اتبرَّعنُوا بتلاتين جنيه علسان مجهود خربي، كمان العجوزة خسان اتبرعت بعشرة جنيه.

- وانت يا عم تودري اتبرعت؟

- لا خبيبي، عمك تودري واحد فقير، مفيس فلوس في جيب..

ويلوح في خاطري وأنا أتحدث مع تودري، صديقٌ لي وزميلٌ سابقٌ في المدرسة الثانوية اسمه (سُولِي)، كان حفيدًا لسليمان باشا الفرنساوي[10]، من الجيل الخامس لهذا الجَدِّ العظيم، والعينان لا تزالان زرقاوين والشعر يغلُب عليه الصفار والبِنْية بنية الفرنسيِّين، الطول والنحافة والسرعة في الحركة وفي الكلام، إلا أنه من الداخل كان مصريًّا مائة في المائة، ابن بلد بحق وأستاذ في صناعة النُـكَت والقفشات وليس في لَكْنتِه أية غلطة، كما لو أنه أحد أحفاد أناس مَلْتُوتِين لثًّا في سوق الخضار أو في حارة من الحارات

القديمة، وليس سليمان باشا الفرنسي أمًّا وأبًا وأحد ضباط نابليون بونابرت، وطالما تهكَّم عليه الأستاذ سماحة مدرس اللغة الفرنسية أمامنا:

- يابْنِي يا سُولِي عيب عليك! خمسة من عشرين في امتحان الفرنساوي، دا إيه الوكسة دي!

آخر مرة التقينا فيها كانت من أشهُر، كان يتسكَّع أمام محل(جُروبِّي) بوسط البلد، وعرفت منه أنه تخرَّج في هندسة عين شمس ومُجنَّدٌ الآن بفرعٍ لسلاح المهندسين على ضفة القناة.

وهو أساسًا أحد ضباط نابليون بونابرت وممن ساهموا في تكوين إمبراطوريته العسكرية الكبيرة، وبعد وفاة نابليون وأفول نجمه استدعاه (محمد علي باشا) لتأسيس الجيش المصري على أفضل النُّظُم الحديثة، فأسَّس أول كلية حربية مصرية بأسوان قوامها أولاد الفلاحين والبسطاء، وخاض بهم الحروب تحت إمرة (إبراهيم باشا)، بل كان ذراعه الحقيقية التي أبلت بلاءً حسنًا في حروب مصر مع الدولة العثمانية، حيث انتزع منها الشام كاملًا وحاصر الأناضول والمُورَة، وكان على بُعد أميالٍ من الآستانه مَقرّ الخلافة.

وبعد وفاة إبراهيم باشا أصبح سليمان باشا الفرنساوي قائدًا للجيش إلى أن وافته المَنيَّة، وقد اعتنق الإسلام وزوَّجه محمد علي باشا إحدى قريباته وأنعم عليه برتبة الباشوية، ولم يغادر= =مصر أبدًا، عشقها وظل فيها حتى وفاته، وذُرِّيته تعيش بيننا الآن وكلهم مصريون؛ ومن بينهم (سليمان) الذي كنا نناديه باسمٍ آخر على سبيل التدليل (سُولِي)، وقد شارك هذا البطل في حرب التحرير واستُشهد في الأيام الأولى للمعارك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

ويشرعون في إخلاء بورسعيد..

فمع قسوة الغارات والأذى الذي لحق بالناس أخلَوْا المدينة أُسوةً بما حدث في الإسماعيلية والسويس، ومكثنا قرابة الشهر وباصاتٌ ضخمةٌ تقف عند المفارق والميادين، وكل باص معلق على واجهته وفي الأجناب لافتة مُدوَّن بها الوجهة المتجه إليها، رأس البَرّ، بُلبَيْس، فارسكور، طنطا، المنصورة، وبلاد أخرى..

ومن ينادون بالميكروفونات أو يقفون على أبواب الباصات للإرشاد خوفًا من الخطأ والركوب لوجهة مختلفة؛ خاصة العجائز الضعاف ممن لا عائل لهم ويسهُل وقوعهم في مَطبَّات مؤذية كهذه، والناس المرتحلون على وجوههم الكَرْب، كلهم وبلا استثناء، الرجلُ مكروبٌ والمرأةُ وجهُها في حالةِ حِدَادٍ والصغارُ الذين في الأيدي لا بسمة ولا ضحكة أو في عيونهم فرحة أو شغف، ومَنْ في آخر لحظة وهو على باب الباص يرفض الصعود أو تنتابه حالةٌ هيستيريَّة؛ فيتمرغ على الأرض لاعنًا الحرب والخراب وإسرائيل وأبا إسرائيل، وهم يحاولون الأخذ بيده وإقناعه بالصعود وإلَّا سوف يموت هو وعيالُه لو بقى، أما الأشدَّاء ممن يملكون أنفسهم أو يَدَّعون هذا أمامنا، فكانوا يصعدون بصمتٍ وينظرون من النوافذ بأسًى عندما تتحرك الشاحنات، ومنهم من تخونه عيناه بدمع خفيف..

فرغت بورسعيد كما تفرغ قارورة العطر من محتواها الذي يعطيها القيمة..

وكان غريبًا على السمع والبصر وباقي الحواسِّ أن تتوقف الحياة بهذا الشكل، أو في أدنى الحدود تخفُت الحركة ومعها الوَنسِ والاطمئنان والأُلْفة، فلم يَعُد باقيًا في البلدة بطولها وعرضها وسمائها وبحرها سوى القليل من الناس، وعدةُ مَحالَّ ومقاهٍ ودكاكين..

الخبر الطيب بالنسبة لي أن الچيانولا ومعها قهوة الفلاح استمرتا ولم ترحلا مع الذين رحلوا، ومعهما سينما (مصر) بحي العرب وسينما (ماچيستك) بحي الإفرنج، وأذكر أنهم كانوا يعرضون فيلم (أبي فوق الشجرة) هذه الأيام، يحاولون التخفيف عن الذين تبقَّوْا وإفهامهم أن الحياة ما زالت تسير، وقد ذهبت أنا وجلال بك قائد شرطة النجدة لمشاهدة هذا الفيلم، كُنَّا نحن الاثنان فقط ومعنا سبعة أو ثمانية أشخاص فقط، يجلسون في أماكن متفرقة بصالة السينما التي تتسع لقرابة الألف.. لم نكمل الفيلم، انصرفنا بعد قليل من بدايته، انتابنا الضَّجَرُ من هذا السكون فلا سعلة ولا عطسة ولا ضحكة ولَا أي

تعليق وهُسّ في هُسّ، فيبدو أن الائتناس بالناس في هذه الدَّور أحد عناصر المتعة.

وكنا نرى قطط الشوارع والكلاب تتشاجر على صناديق القمامة الفارغة إلا من كسرة خبز، ثمرة معطوبة، أو بقايا طعام ضربها العفن، هذا أول الأمر وبعدها أصبحنا نرى جثث هذه الحيوانات مُلقاةً على الأرصفة ومداخل البيوت بعد أن أهلكها الجوع، اللعينة بنت اللعينة الفئران هي التي تحسَّنت أحوالها، جاءت هذه الدنيا على هواها، فبعد أن كانت في الجُحُور ولا نراها إلا خطفًا أصبح لها بيوتٌ ومساكنُ مكشوفة، استوطنت هياكل السيارات والبراميل الفارغة ومناور العمارات، وصارت الأزقَّة والحواري الخلفية مناطق نفوذ تحت سيطرتها، وإذا غامرت قطة أو دخلت عند الفئران بطريق الخطأ كانت تطاردها، ومن زُقاقٍ إلى زقاقٍ وراءها وتنهشُها نهشًا، حتى نحن البشر كانت تتحدانا لو أشَحْنَا بعصا في وجوهها، تقف وتُحدِّق فينا لترى ما الذي في مقدورنا بعد هذه الإشاحة، كنا ننسحب! فالمغامرة مع فئرانٍ توحَّشت قضية خاسرة ولن نلقَى إلا الإهانة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويستدعيني جلال بك..

وأعرف منه أنه صار وحيدًا بعد مغادرة أسرته للعيش في الإسكندرية، وأنه في سبيله للإقامة مع الحاج كرم – زميلنا في العمل – بشقته بشارع التلاتيني بحي العرب، فزوجته رحلت هي الأخرى لتلحق بابنتهما (نادية) المقيمة من قبل عند خالتها بحيِّ الزيتون بالقاهرة، بعد التحاقها بكلية طب عين شمس السنة الماضية، ويعرض عليَّ جلال بك الإقامة معهما ولما منعني الخجل استمرَّ في الضغط وأفهمني أن هذه هي رغبة الحاج كرم..

كلمة (الحاج) هذه أو هذه الصفة التي كنا ننادي بها كرم لا تعني أنه حَجَّ بيتَ اللهِ وطاف بالكعبة الشريفة، بتاتًا، فاسمُه في شهادة الميلاد: كرم تادرس غطَّاس، وكان كونستابلًا ورُقِّي لرتبة الرائد مثله مثل الزلَّاط، غير أنه كان من طينةٍ غير طينته، وقضى أغلب خدمته في أقسام الشرطة ببورسعيد وأحبَّه الناس بل وعشقوه، إن كان هذا التعبير جائزًا، وهم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب لسماحته وطِيبته وتفانيه في خدمتهم، وطالما أجريتُ في نفسي عدة مقارنات بينه وبين الزلاط، وفي كل مرة كان الزلاط يرسب بجدارة! وكنت أبتسمُ كلما تذكرت محاولاته والحاحه علينا بأن نناديه بلقب (الحاج)، ونحن نرفض ونصمم على أنه: الزلاط وبس! أخونا كرم المسيحي الديانة الناس أعطته هذا اللقب من تلقاء نفسها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما وصلنا إلى شقة الحاج كرم التقانا الرجل بحفاوة..

أخذَنا بالأحضان وطفق يُهلِّل بصوتٍ مرتفعٍ رغم أننا كنا معه أول الصباح، ثم أجلسنا في الصالة وطار إلى الداخل..

المفردات التي حولنا تُنبئ بأنها شقة بائسة وصاحبها يعيش بالكاد، وفوق منضدة بأرجلٍ عاليةٍ برواٍز يضم صورةً بالأبيض والأسود لمجمل الأسرة، الست ماري زوجته تجلس على مقعد ذي مُسْنَدَين بفستانٍ من فساتين الخمسينيات، الساق فوق الساق والجلسة ذاتها وعلى ما طَرأ في ذهني لحظتها جلسةُ امرأةٍ مُعتدَّة بنفسها بشكلٍ مُبالَغ فيه، كما أن النظرة التي في عينيها لم تعجبني بالمرة، فيها شيءٌ يدعو للقلق والاحتياط منها، وكل هذا مجرد أحاسيس انتابتني وأنا أتطلَّع للصورة فقط ولم أكن رأيت الست ماري بعد، وكان الحاج كرم – في الصورة – يقف وراءها ببذلة سفاري بكُمٍّ طويل وعيناه على ابنته نادية النائمة في حِجْرها، ولفت نظري أيضًا الصليبُ المُتدلِّي من السلسلة التي تحيط بعنقها، كان كبيرًا بدرجة ملحوظة أو على الأقل كبيرًا قياسًا على عنق البَنُّوتة الصغيرة.

الصالة بكل أسف وبلا كسوف ولا حَرَج تدعو للرثاء، كنبتان بلدي مَكْسُوَّتان بقماش كيرتون في حاجه للاستبدال بأقصى سرعة، وخمسة أو ستة مقاعد خشبية من تلك التي نراها في سُرادِقَات العزاء، وفوق الأرض كليم، لا داعي للوصف، فلو بقيت الصالة على البلاط لكان أفضل، وما تبقَّى من الشقة بعد ذلك ثلاث حجرات بأحجام صغيرة وحمَّام ومرحاض، وفي آخر الطُّرْقَة التي تضمها جميعًا المطبخ، حيث كنا نشعرُ بحركة الحاج كرم وهو يعدُّ لنا الشاي.

جلال بك كان مشغولًا بجريدةٍ يتصفَّحُ فيها، وضعها جانبًا وربَّت على رُكبتي بمودَّة، كانت عيناي لحظتها على الصور المعلقة على الحائط، صورة كبيرة وفي برواز مُعتنًى به لسيدنا عيسي فاردًا ذراعيه، والثانية لأُمِّنا مريم العذراء وهي تحمله عندما كان طفلًا..

يبدو أن جلال بك لم يكن يبغي شيئًا بهذه التربيتة، إذ سَرْعانَ ما عاد للجريدة وعدتُ أنا الآخر إلى السُّهوم تارةً والجولان بعيني في أرجاء الصالة تارةً أخرى؛ لأشاهد صورةً ثالثةً على يساري للبابا كيرلُّس[11] والذي كان قد قضى -ساعتها- من حوالي سنتين وأشهر قليلة، وإلى جوارها صورة للبابا الجديد الأنبا شنودة[12] الثالث.

أحاسيسي حيال هذه الصورة كانت حيادية، لا أنا مفتونٌ بها ولا ضَجِر، ربما القول الدقيق أنها أشعرتني بأني في جَوٍّ مختلف، وبدأ شيء في داخلي ينتبه رغم أني لم أكن أنظرُ لها نظرةَ من يتأمل صورًا معلقة في متاحف، مجرد مرور خفيف وشأنها شأن الأشياء التي أراها، ومع ذلك أحدثت حركةً في النفس، مجرد حركة، حركة لا بالسلب ولا بالإيجاب، وهذا هو الغريب فكيف تكون الحركةُ بلا معالم! هي والثبات شيء واحد.. كما لو أنها وقفة! مشاعر لا بالقرب أو البعد، بالغموض، بشغفٍ ولا شغف في الوقت ذاته، بالاستفهام، الاستغراب، بإحساسٍ ليس له اسم، فلم تكُنْ هذه الصور كأية صورٍ أخرى، لا صور لمناظر طبيعية أو رسوم من وحي الخيال تدعو للاندماج أو ربما الهُيام فيها، أو صور لبشر عاديين في ألبوم مثلًا وأمرُّ عليها مرور الكرام، صور ذات رموز، ولها قداسة، وتبجيل ولا يملك الإنسان حيالها سوى الاحترام والتقدير، غير أنها معلقة على أبواب دنيا غير الدنيا التي أعيشها وأعرفها..

ويدخل علينا الحاجُّ كرم حاملًا صينية الشاي، وأظنُّه شعر بما تقوله عيناي، غير أنه بدَّل الوجهة إلى موضوع آخر:

- على فكرة أنا النهارده عامل لكم صنية سمك سنجاري.

وجلال بك:

- تسلم يا كرم، بس كل حاجة تبقى إنجليزي.

- النهارده انتوا ضيوفي، ومن بكره تبقى إنجليزي.

وفي اليوم التالي لم نجد الصور في أماكنها، ولمَّا عاتبناه أعادها وفاجأنا بأن وضع إلى جوارها صورةً للكعبة الشريفة، وقبل أن نفتح أفواهنا قال:

- دي هدية مني، ولما تخلَص الحرب يبقى خدوها معاكم.

أصابتني رعشةٌ مما فعل، ونهض جلال بك واقفًا وقبَّله على جبينه..

أنا الآخر فعلت ما فعله جلال بك، وزاد مقدار الحاج كرم عندي لما يساوي الضعف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

أخيرًا فرغتُ من رواية (كفاح طيبة)..

وكنتُ كلما استغرقتُ فيها أشعرُ بالحماسة وإخالُ فرعوننا العظيم أحمس متجسدًا بلحمه وشحمه وخوذة تغطي رأسه، وأنا والجموع الغاضبة خلفه شاهرين سيوفنا ورماحنا أو فوق العجلات الحربية، ونطارد هؤلاء الغزاة من الدلتا إلى سيناء إلى فلسطين.

أدعُ الرواية وحالتي المعنويَّة ارتفعت بنصرٍ تحقَّق من آلاف الأعوام، ورشفة من عصير برتقال الچيانولا الممتع وأتطلع إلى الساعة التي في يدي، لا يزال أمامي وقتٌ على لقاء جلال بك بمطعم (صوفر) القريب، فقد أصبحنا نأكلُ من الشارع الآن، بل وغادرنا شقة الحاج كرم كلها منذ أربعة أيام بعد وصول الست ماري زوجته وابنتهما نادية.

فوجئنا بهما..

كنا نثرثر في الصالة وقتها، أنا أقول لهما بأني تأثرت اليوم وكاد الدمع أن يطفر من عيني وأنا أودع عاطف على محطة البولمان، رحل وغادرنا بعد أن حوَّلوه إلى وظيفةٍ مدنية بديوان الوزارة بلاظوغلي، وكرم يحكي عن الدَّانةِ الفظيعة التي هوت بمنور عمارة من عمارات المناخ، الحمد لله لم تنفجر وإلا لدهورت العمارة وأخذت معها عشرين نَفْسًا على الأقل، وجلال بك يهزُّ رأسه لنا، ولا أظنُّه معنا، كان في شارع النبي دانيال بالإسكندرية مع زوجته وبناته؛ خصوصًا العِفْرِيتَة (عفاف) بنت السنوات الثلاث، كان مجنونًا بها، سيرتُها على لسانه طول اليوم وطالما رأيناه يداعبُها أو يحملُها فوق صدره كلما التقينا بنادي الشرطة ببورفؤاد، ونسمع جرس الباب ونحن في هذا الجوِّ فيسرع كرم وتأتينا صيحات فرح ودهشة وصوته مجلجلًا:

- إيه ده! مش معقول! بركاتك يا عَدْرَا، جيتوا إمتى؟ وإزاي؟

وتدخل علينا الست ماري بقُبَّعة سوداء وكعب حذائها يدقُّ مع خطواتها، ووراءها نادية ببلوزة محبوكة عليها وجونلَّة ذيلها يعلو مفصل الرُّكْبة بهمسةٍ قليلة، وتقول ماري لزوجها وهي واقفةٌ لم تجلس بعد بأنها لم تشأ إبلاغه بميعاد وصولهما، أحبت أن تفاجئَه، حصلت على تصريح بزيارة بورسعيد لمدة عشرة أيام من المكتب الذي يرعي شئونهم في القاهرة، وكنا أنا وجلال بك قد أسرعنا إلى الغرف الداخلية لارتداء أي شيء نستر به أكتافنا العارية، وفهمَتْ هي من زوجها سبب وجودنا ورحبت بنا عند عودتنا مع رمقة

مستفسرة تجاهي أنا بالذات، ليست مستفسرة بالضبط، ما بين الاستفسار وعدم الراحة، وهكذا بلا سبب!

سمنتها مفرطة، أكثر بكثير مما كانت عليه في الصورة، قنطارين ونصف على الأقل، ووجهها منفوخ لكن الحمد لله أن المساحيق التي عليه لا تُذكر وإلا لازداد نفوري منها، على أية حالٍ هذه مسائل تخصها ولا تعنيني في شيء..

صوتُها هو الآخر كان عاليًا، عاليًا جدًّا وبه خروشة أو هكذا كان يصل إليَّ، لا دخل لي أيضًا فأنا مجرد ضيف والبيت بيتُها، واستحوذت على الجلسة، امرأة رعَّاية، لا تكفُّ عن الثرثرة أو عن حَكِّ معصم يدها بظفرها، ولما ضبطتنني وأنا أحدق في هذا الظفر الذي يحك ويهرش وضعتني في دماغها، وإن كنت أظن أن هذا ليس السبب الوحيد لعدم ارتياحها لي، فمن أول لحظة وأنا لا أعجبها، وأنا بالمثل اتخذتُ منها موقفًا، وليس من الآن، من يوم أن رأيتُ صورتها، المسألة على ما يبدو مسألة أرواح تتآلف وتتنافر، كنا من النوع المتنافر..

وتجيء الصدفة على غير ما أهوى، فبعد السلام والتحيات جاءت جلستي على مقعد أمامها، وجهي قُبالَة وجهها بالضبط، وكانت نادية بجوارها أما الحاج كرم وجلال بك فعلى الكنبة الثانية..

نادية هذه قارورة عطر من قوارير (باكو رابا) أو(كوكو شانيل)، والهيئة هيئة (فاتن حمامة)، فنفس اللطافة ونفس الرهافَة والجسد الدقيق أما السيقان فسيقان (صوفيا لورين) بل وتفوقها في الاستدارات، ومنذ أن رأيتها وعيناي لا تهدآن أو كفَّتا عن التحليق حول وجهها، فتقاطيعُه محسوبة بالمِلّيمترات واللون لا هو أسود ولا أبيض ولا خمري، لون ربَّاني لا وجود له في أي كتالوج وإن مسه أحمر للشفاه أو طلاء على الخدود فسد، وكنت أزجُرُ عيني كي تبتعد ليس احترامًا للحاج كرم بقدر ما كنت خائفًا من الست ماري، وأتعجب، فإن قلنا إن هذه البَنُّوتَة من ظهر الحاج كرم قد تكون مبلوعة، وإن ابتلعناها نبتلعها بثلاثة أكواب ماء على الأقل، لكن كيف تأتي سمكة القرش هذه التي أمامي بغزالة مثل نادية!

وعلى الكنبة الثانية كان الحاج كرم يحاول إقناع جلال بك بأن نبقى، فالست ماري أخته ونادية مثل ابنته، وهو يُربِّت على ظهره بامتنان، والست ماري أذناها معهما وعيناها تدوران في جنبات الصالة، لفت انتباهَها (تي شيرت) معلقٌ على أكتاف أحد المقاعد الخشبية، ولما دققت في الرسم المطبوع فوق الصدر فهمَتْ على الفور أنه يخصُّني، فمن غير المعقول أن جلال بك المحترم ابن الناس يرتدي هذه القاذورات، رسم لكلب من النوع الإنجليزي الشرس (البولدُج) فاغرًا فاه! استحالة!

وتفادتني ذاهبةً إلى الحائط، عيناها تمران على الصور المعلقة ووميض جذل يطلُّ منهما، كانت شديدة التدُّين كما عرفتُ فيما بعد، وعندما خفَت الوميض وتوقفت عيناها أو ربما تصلَّبتا عرفت أنها مع صورة الكعبة التي فوق رأسي بالضبط، والحاج كرم الذي انتبه يرمقها وعيناه تحثانها بألا تعلق بحرف وتُفسد العلاقات، وكان جلال بك قد شرع في الحديث مع نادية عن أخيه أستاذ التشريح بطب الإسكندرية، ويسألها إن كان يمكنه مساعدتها في شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأتأهبُ الآن لمغادرة الچيانولا بعد كل هذا السَّرَحان، وتودري يقول وهو يقدم لي فاتورة الحساب:

- بردون خبيبي بردون، أنا مس افتكرتو غير دلوقتي! الضابط حسام اللي إنت سألتيني عليه قبل كده قاعد جوَّه في الصالون.

- أبو سمرة!

- آه خبيبي هو بذات نفسه..

- حالًا هدخل أسلِّم عليه.

- لا مش ينفع دلوقتي، خلِّيه بعدين، هو قاعد في راندڤو، معاه بنت جميل وأمُّور كتير.

فأداعبه مقلدًا طريقته في الكلام:

- ليه مس ينفع خبيبي، علسان بنت جميل!

- إيه دا كابتن، إنت عايز إعمل مسخرة على كلام بتاع تودري!

وينقطع بيننا الحديث بقدوم العم بيتر بحذائه الإيطالي أبو إبزيم مكسور وخطواته الوَقُورة، يقترب منا وصندوقه الخشبي في يد واليد الثانية في جيب بنطاله الچينز، فيبتسم تودري ويميل عليَّ هامسًا:

- تعظيم سلام! البرنس وصلت..

والعم بيتر الذي شعر بأن هذا الهمس عليه يرمقه باستعلاء ويدنو مني، وأنا محرج لضيق الوقت وهذا الذي في الداخل وأريد أن أسلم عليه، غير أني استسلمت لرنَّة الجرس التي رنَّها ومددتُ له قدمي من سُكات، فهكذا أنا معه أقدم له حذائي ولو كانت نظيفًا، كانت له هيبة ولا أستطيع أن أقول له: لا، وقبل أن يفرغ من الفردة الثانية يعلو صوت تودري:

- إيه دي! دي خارجة مرمَّوخة بيتها..

ويشير نحو حسام الذي كان قد تجاوز الباب الموصل إلى البهو الخارجي حيث نجلس، وينادي عليه وأهبُّ أنا واقفًا بفردة حذاء في قدم وجورب في القدم الثانية، وحسام الذي جاءنا يهزُّ يدي بحرارة:

- مش حضرتك؟

- أيوه أنا..

- البولمان بتاع خط بورسعيد/ القاهرة؟

- بالظبط كده..

ويسحب يده من يدي وهو يقول:

- ضروري أشوفك تاني، أصل انا دلوقت..

ويلتفت وراءه بحثًا عن رفيقته، ويشير لها بأن تلحـق بـنا وهو يقول لي:

- نادية..

وبكلمة مضغمة خافتة يُعرِّفني بها: خطيبتي.. صديقتي.. أختي.. لم أسمع بالضبط.

ويقول لها:

- الأستاذ..

ففهمت أنه لا يتذكر اسمي، قلت:

- طارق..

تمد يدها مُسلِّمةً وهي تتحاشى النظر في عيني، ولاحظت ارتباكها وعدم ارتياحها لهذه المصادفة غير الظريفة، وأنا أسايرها ولم تندُ عني أيه إشارة بأني أعرفها..

ولوَّح حسام بيده لي منصرفًا، والعم بيتر يتابعنا بملل ويرنُّ الجرس كي أجلسَ وينتهي من مسح الحذاء، وأنا أقول في نفسي: آه يابْنِ (الأرندلي) يا حسام! وتنهشُني الغَيْرَة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

19

البحر بطُولِه وعرضِه والعمق كوكبٌ هو الآخر..

لا تفيه كلمة ولا عبارة أو كتاب كله شرح..

واعرٌ، مالحٌ، غويط، وقلبُه كقطعة الحديد لا رحمة يعرفها ولا رفق، وإن خُضتَ فيه وهو معتلُّ المِزاج يفتك بك، فلا أمان له حتى وهو مبتسم لطيف أو وهو ناعس مغمض العينين..

جاءتني هذه الأحاسيس وهذه الرهبة وأنا أتمشَّى على حافَّة بحر بورسعيد وقت البكور، ما بين الخامسة والخامسة والنصف، وقد كان البحر في هذا اليوم سلسًا مؤدبًا ليس في نيَّاته غدر ولا أذى، أمواجُه تتهادى نحو الشاطئ بمودَّة وأصوات كالضحكات وعلى أطرافها رغوةٌ بيضاءُ تبقى على الرمال ولا تعود مع الماء المنحسر، وجمع من الصيادين عرايا إلا من سراويل مبلولة يتحركون فيه، وكل منهم يلفُّ قبضته على حبلٍ غليظٍ محمولٍ فوق كتفه ويُجرجره بصعوبة، البعض على مسافة أمتار والبعض أبعد ومَنْ أقدامُه على وشك أن تلمس الشاطئ، وشيخُهم الحاج عربي بفانلَّة ذات أكمام وسروال وخِرْقَة حول رأسه على هيئة عمامة، ويُهلِّل بكلتا يديه مشجعًا أو يغني (غناوي) العرق والبحر والصيادين وهم يردون عليه ويتمايلون مع الإيقاع، وأول ما يصل الواحد منهم إلى البَرِّ كان يثبت الحبل الذي بيده في مدَقٍّ بالأرض ويلقي بنفسه على الرمال؛ هدَّهم التعب طوال الليل وهم على المركب الواقفة هناك وأراها عن بُعْد، و(طرحة) السمك التي جلبوها معهم هي التي كانوا يُجرجرونها بالحبال.

وأنا على بعد خطوات أتأمل الحاج عربي رئِّيس المركب والصيادين والليلة كلها، بلغ من العمر أرذلَهُ ولا يزال صاحيًا، من عمر جدي تقريبًا، فلا نستطيع أن نقول عنه عجوزًا ونسكت، تخطَّى هذه المرحلة..

تتناوله عيناي بإعجاب ويذهب بي الخيال إلى العجوز (سانتياجو) بطل رواية (العجوز والبحر)[13] ، فكأنهما نسخة طِبْق الأصل، أحدهما أمامي الآن والآخر هناك في (كوبا)، فنفس العمر ونفس الكرمشة والنتوءات وقسوة الزمن على تضاريس الوجه، وهي نفسها الأذرع الواهنة النحيلة كأذرع خيالات المآته، القلب فقط هو الذي كان صلبًا في هذين العجوزين، ويتعارك مع البحر المجرم معدوم الضمير، شاخ ويشيخ الحاج عربي كل يوم من أهوال البحر لنضع نحن خيراته على الموائد ونملأ بطوننا.

أظلّ واقفًا إلى جواره حتى نصل إلى لحظة النصر، لم أكن أفوّت هذه اللحظة أبدًا، أترقَّبُها بشغفٍ مثلي مثل باقي الصيادين، وأرى (الطَّرْحَة) خارجةً في شِباكٍ متروسةٍ بالخيرات، قاروص، لوت، دينيس، شبار، وكان الموسم وقتها موسم البربوني وأغلب ما في الطرحة من هذا الصنف، مئات مئات زعانفها والقشرة البيضاء التي تكسوها تضوي في أشعة الشمس، وكلها تشبُّ وتقفزُ وتعافر داخل الشباك ونحن ننظر إليها بفرحة، وإن كنت بعد سنوات طويلة، بعد أن أصبح لي عقلٌ يهيم ويشطح، بدأت أسأل نفسي: ما هذا الذي كنتُ فيه، وما كل هذه الفرحة! أعَلَى مخلوقاتٍ من مخلوقات الله تتألم وهي تموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعن بُعدٍ نلمح نفرين بملابس نظاميَّة يهرولان نحونا..

كان بينهما زنبيلٌ كل منهما يحمله من إحدى أذنيه، والحاج عربي يتغير وجهه:

- أعوذ بالله! دا احنا لسه بنقول يا فتَّاح يا عليم..

وأعرف منه أن هذا الزنبيل يخص (الباشا)، الذي يُصدر تصاريح الصيد ويتحكم في مورد رزقه، وأتساءل:

- دا يساعي خمسين كيلو!

- وأكتر، ربع الطرحة، وفي كل طلعة بحر علينا زنبيل!

- وبيودِّي دا كله فين؟

فيشيح بلا اكثرات:

- أنا عارف، آهو بياكل ويهادي ويبعت لأهله وحبايبه في مصر.

ويصل النفران بالزنبيل، يضعانه أمامه وأحدهما يفرك كفَّيْهِ وعيناهُ في الطرحة التي تملأ الأرض:

- بسم الله ما شاء الله! سلام عليكم يا عم عربي..

وعم عربي يشاغله بأي شيء حتى يبتعد بعينيه ويروح منهما الحسد، ويجيبه بقرف:

- وعليكم..

- سعادة الباشا بيصبَّح عليك، وبيقولَّك عاوزين بشلن سمك.

ويسلمه الشلن (ورقة نقدية قيمتها خمسة قروش فقط)، فيتأملها عم عربي ويحاول إعادتها إليه مرة ثانية:

- خلِّيهالك يا بني، آهو تشتري بيها سيجارتين وللا باكو بسكويت.

- لا. لا. يا عم عربي، دا كان الباشا يبهدلني، دي فلوسك ودا حقك..

- كده! على العموم عنينا لسعادة الباشا.

ويضعها في دِكَّة السروال ثم يشير لاثنين من أتباعه بأن يملآ لهما الزنبيل، فيفعلان وعيناهما تتغشَّاهما الوكسة، وقبل أن ينصرف النفران يُخرج له أحدهما كيسًا من القماش من بين ملابسه:

- وأنا كمان يا عم عربي، كُتّ عايز بقرشين صاغ سمك.

فيدفعه بظهر يده دفعة ما بين الهزار والجد:

- يا خويا حِلّ عني، هيَّه ناقصاك إنت راخر..

وبعد أن سارًا عدة خطوات نادى عليهما:

- وقَّف يا بني وقف..

وطلب من أحد الصيادين إعطاءَهما كبشة سمك، والرجل يهمس له:

- من آني يا حاج، بربوني وللا قاروص وللا لوت؟

- بربوني إيه ولوت إيه! أنت عبيط! حفنة شبار وخلاص.

وأسأله أنا عن الزنبيل والقروش الخمسة التي أخذها، فيرمقُني بنظرةِ مَنْ يحاول المداراة:

- مفيش.. بيع وشِرَا..

- بيع وشرا!

- معلوم، والراجل مغلطش، لا قال أنا عايز كيلو وللا اتنين وللا تلاتة، بعت الفلوس وسكت، وأنا بخطري اللي حطيت السمك.

وبصوتٍ خافت:

- وهو فاهم وأنا فاهم..

وكما لو أنه يتمتم:

- أمَّال! عنده ذمَّة وبيحلَلها لنفسه..

ورمقةٌ ثانيةٌ مع ابتسامة هذه المرة:

- بس على مين! أنا برضه بعرف أفلفص منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علاقتي بالحاج عربي ليست بنت اليوم..

فمنذ أن نُقلت إلى شرطة النجدة وأنا أتابعُه في كل طلعة يطلعها، الشاطئ الذي يخرج منه كان قريبًا منَّا، وكنت أراه من نافذة المكتب مراتٍ ومرات وأنا أتمشَّى على البحر حتى نشأت بيننا معرفة تطورت إلى نوع من المَودَّة أو ربما الاطمئنان، وطفق يحكي لي عن البحر وعن بيته وزوجته الكسيحة وابنه (صبري) الذي خطفه البحر في إحدى النوَّات، وبحكم الجيرة كان يعرفنا بالاسم أنا والحاج كرم وجلال بك والصول عزيز والشاويش شحاتة وكثيرًا منا؛ لذا لم أندهش عندما استكمل كلامه كاشفًا لي بعض أسراره:

- بُصّ يابْنِ الحلال، أنا وَعِّيت الرجالة بتوعـي وفهِّمتهم إن أول ما ييجي الزنبيل تملوه من الحاجات اللي على قدَّها، أمّ الخلول على بساريا على بَكْلَويز[14] على شوية شبار وإن كنا جايبين كابوريا حُطُّوا له كام واحدة، وفوق دا كله سمكتين تلاتة من الصنف الغالي.

- والبربوني..؟

- بربوني في عينه، دا الكيلو منه في الجملة بسبعين صاغ.

- بس يا عم عربي الأنفار اللي شايلة الزنبيل هتشوف وتفهم..

- برضه واعي للحتة دي، والحمد لله ربِّنا زي ما بيوقَّع البلا بيلطف فيه، العيال دُول اللي بيجولي كل مرة سألتهم: إنت منين يا بني إنت وهو، طلع واحد منهم من مركز الصف والتاني من فاقوس، يعني كل فهمهم في البلطي والقراميط، الحاجات اللي ماليه الترع اللي حواليهم.

ويُربِّت على يدي:

- وأنا كمان براضيهم زي ما انت شايف.

وتصل عربة كارُّو يجرُّها أحد البغال، فيدعني ويصيح في رجاله:

- يللا يللا عُبُّوا الحاجة، البربوني تطلعوا بيه على الحاج سلامة والقاروص واللوت على ولاد رزق، والباقي للسرِّيحة اللي بتقعد بمقاطف قدَّام السوق،

وإنت يا هلال نُطّ واقعد جنب الأسطى العربجي، ولما تسلم الطرحة أنا مِستنِّيك في البيت.

ويظلُّ معهم بيديه وعينيه وصياحه حتى يخلو الشاطئ من هذه الكائنات، ويتجهز الكارُّو للانطلاق نحو السكة الأسفلت..

ويباغتنا الحاج كرم بالحضور هو الآخر وبيده حقيبة بلاستيك من الحقائب التي يشترون فيها الخضار، ويطلب من الحاج عربي خمسة كيلوات من أحسن صنف:

- عندي قاروص وعندي بوري وعندي وعندي، ولو تسمع كلامي البربوني النهارده مصحصح ويتاكل نيّ.

وينادي على الكارُّو التي تحركت:

- وقَّف وقَّف يا جدع، وإنت يا هلال خلِّي كرم أفندي ينقِّي وياخد اللي هو عايزه.

وساعة الحساب تناوشا، الحاج عربي اكتفى بخمسة جنيهات وقال إنها السعر المعقول وهو راضٍ به، وكرم صمَّم على سبعة جنيهات قال إن هذا هو سعر السوق وهو لا يأكلُ سُحْتًا، فيكفي أنه أخذ السمك طازَجًا وليس من طاولات الباعة في السوق، هذا يحلف بالمسيح الحَيّ والآخر لا يقبل ويقول: بهذا أكون ظلمتك فالسعر الذي قلته هو سعر الجملة ولا أقبل غيره.

كرم هو الذي فاز، دسَّ له الجنيهات السبعة في عِبِّ الفانلَّة وأقسم عليه بالطلاق، وأنا أبتسم والحاج عربي هو الآخر يبتسم، فكرم شرعه وثقافته لا يعرفان الطلاق..

رجعنا بعدها إلى المكتب وهو يحيط كتفي بذراعه ويقول:

- أصل نادية ومامتها راجعين النهارده في بولمان اتناشر والسمك دا رايح معاهم، ومن الصبح يا بطل تجيب شنطتك وتشرَّفنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

وقهوة الفلاح من جديد..

فبعد أن أخذت الست ماري نادية في يدها وركبتا البولمان، جاءني اتصال تليفوني من تودري، أبلغني بأن الضابط حسام يريد لقائي لأمرٍ لا يقبل التأجيل، وياليت اليوم لأنه سوف يعود إلى وحدته صباح باكر، فقلت: على بركة الله، ولأني كنت مرتبطًا بموعدٍ مع مأمور قسم العرب اخترتُ قهوة الفلاح، والموعد بعد صلاة العشاء.

خَرْوشَة تصدُر عن ميكرفون الجامع التوفيقي وأنا أدنو من مبنى القسم، تلاها نقرتان على السمَّاعة ثم سعلة خفيفة وانطلق صوت المؤذن، (الشيخ عبد الحق)، والأذان خاشع رقيق يلمس القلب بحُنُوٍّ وتهيم فيه النَّفْس ولو كانت قلقة أو حتى مشوَّشة، والرجل طيب وتساورك الرغبة في تقبيل رأسه كلما رأيته، مشايخ الجامع كلهم رحلوا مع الذين هاجروا وهو الذي بقي ليؤذن ويؤُمَّ الصلاة طوال أيام الحرب، وعلى مرمى حجرٍ اثنان من العرضحالجية جمعا متعلقاتهما ويتوكآن على بعضهما البعض وهما يهبطان من الرصيف إلى نهر الشارع، (الحاج محمود الناغي) وزميله اللَّبَط (زغلول) الذي أقنع إحدى نسوة القابوطي بألَّا تكتفي في شكواها باتهام جارتها بسرقة إوَّزة من إوزِّها، فهذا لا يكفي في نظره ولن يعبأ الضباط بإوزة ثمنها جنيهان، والصح أن تدَّعي عليها بسرقة خروف أو عُنْزَة كي يتحركوا في القسم ويُجرجروا هذه المجرمة من هدومها.

الناغي وزغلول هما اللذان بقيا فقط من ثُلَّة العرضحالجية، هذا ما قاله لي المأمور عندما التقيتُ به هذا المساء:

- والباقيين يا بني اتشحططوا، على فين، الله أعلم..

- ولسه الشكاوي؟

- شكاوي إيه بقى، ما خلاص بينشُّوا..

- دا أنا لسَّه شايفهم مروَّحين وشايلين عدة الشغل.

- هيعملوا إيه! هيقعدوا على القهاوي وللا يحبسوا نفسهم في البيوت، آهم بييجوا ويمكن نُرزق بشكوى وللا اتنين.

- وعايشين إزاي؟

وكأنه لم ينتبه إلى سؤالي، أو هكذا تصورت، ويبدو الضيق على وجهه وبأصابعه يفكُّ الزرار العلوي لقميصه الذي بأسفل السترة:

- حَرّ. حَرّ. مش قادر آخذ نَفَسي.

ويشير إلى المروحة:

- قوم يا طارق زوِّد السرعة شوية، يا باي هتخنق..

كنا في منتصف سبتمبر والجو ما بين اللَّطافَة والحَرّ الخفيف غير أني لم أعلِّق، وصوتُه يلاحقني:

- وإنت شاغل نفسك بيهم ليه، إطمِّن اطمِّن الجدَع اللي اسمه زغلول مراته تمرجيَّة في مستشفى التضامن وهيَّه اللي بتصرف عليه، والناغي والله يا بني أنا سعيت له لغاية ما جبت له إعانة شهريَّة من المحافظة، وأنا وولاد الحلال برضه بنساعد من ناحية تانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرحةٌ تغمرُني وأنا ألجُ من باب القسم..

والتفاتة إلى اليسار حيث غرفة النوبتجيَّة التي قضيتُ بها أحلى الأيام..

فارغة، باردة، لا أنفاس تخرج منها أو تأتيها، ولا حركة ولا صوت أو حتى سَعْلَة، وهي التي كانت تشغي بالزحام والداخل والخارج كما لو أنها خلية نحل أو بيتٌ من بيوت النمل..

ضابط صغير برتبة ملازم هو كل الموجودين فيها، مَطْويٌّ على نفسه وراء مكتبي القديم، فلا معنى له ولا هيبة ولا قيمة بغير الناس، لم ينتبه لوجودي أول الأمر كان مشغولًا بقراءة رواية من روايات الجيب ثم أدار رأسه وهو يتثاءب، لا يعرفني أو أنا رأيتُه من قبل، سألني:

- فيه حاجة يا أستاذ؟ طلباتك؟

أستاذ! وما طلباتي! وهنا في هذا المكان العزيز على النفس! ومكتبي ذي البُّورة المشروخة يشهد بذلك، المقاعد أيضًا تشهد، والأريكة الخشب التي كانت تجلس عليها نسوة العرب ويتبارزن معنا، وكاب المأمور الذي ينساه دائمًا عندي وألحق به مسرعًا وأسلِّمه إياه وهو يبتسم..

ضايقني كلام هذا الضابط دون أن يقصد أو يشعر، وسكتُّ.. طال سكوتي لما يقرب من نصف الدقيقة ثم اعتذرتُ له بأني دخلت بالخطأ، لم يعلق عاد إلى

ما كان فيه وأنا إلى غرفة المأمور الذي التقاني بضحكةٍ كبيرةٍ وطوَّقني بذراعيه ضاغطًا على صدري، لم أرَهُ من أشهر وأحزنني حاله، جفَّ وجهُه وجسدُه ازداد ضمورًا عن الضمور الذي كان فيه، أحسستُ بذلك وأنا أحتضنه، كان أشبه بالدُّمْيَه في يدي وأني قادر على رفعه من مكانه بكل سهولة.

حديثُه ودودٌ والطِّيبَة تشعُّ من عينيه ومع هذا لا مانع من انفعال أو انفعالين في وجه من يدخل عليه، يستعيذ بالله بعدها من ضيق الصدر وعجزه عن كبح جماح غضبه، وأسعل أنا سعلةً خفيفةً من شدَّة هواء المروحة التي تضرب في وجوهنا، وأشير إليها:

- أوطِّي السرعة شوية أحسن تأذينا.

وهو يمانع:

- لا. لا. خلِّيها، روحي هتطلع..

وكلام في كلام إلى أن أفضى لي بسبب طلبه لقائي..

- أنا قابلت الباشا الحكمدار واترجِّيته إنك ترجع لنا تاني، والراجل وافق.

فيبدو الرضا على وجهي:

- والأهم من كده إني عايزك تيجي تقعد معايا في الشقة، وانت عارفها واسعة وحلوة وعلى البحر.

وتتغير نبرةُ صوتِه:

- مش قادر أعيش لوحدي بعد الأولاد ما رجعوا طنطا، والسكر زي ما انت شايف مبهدلني أول إمبارح جات لي النوبة وقعدت أشهق أشهق..

ويهبطُ بعينيه:

- الحمد لله على اللي يجيبه ربنا..

أنهضُ من مقعدي مُقبِّلًا رأسَه، وألحظُ كفَّ يده تُربِّت على صدري، تكاد تكون ميتة والأصابع رعشتُها ازدادت عمَّا قبل، انحنيتُ ولثمتُ يده عدة مرات، لم أفعلها من قبل إلا مع أبي.. كان أبي في هذه اللحظات..

هذه آخر مرة رأيتُه فيها، فبعد أيام دخل عليه عسكري المراسلة بفنجان القهوة الذي طلبه قبل دقائق، وجده كالنائم في المقعد، نظَّارة القراءة سقطت في حِجْر البنطال ورأسهُ مائلٌ على صدره.. مات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن غرفة المأمور إلى قهوة الفلاح..

مذياعُها صوتُه عالٍ كما عهدتُه، ومطربتنا الكبيرة (سعاد محمد) تسأل بأعلى ما فيها:

مين السبب في الحب؟

القلب وللا العين..

ناس تقول القلب، وناس تقول العين..

مين السبب.. آه مين السبب..

القلب وللا العين؟

وكأنَّ هذا التساؤل موجَّهٌ إليَّ شخصيًّا، فهل أحببتُ نادية بالقلب أم بالعين، بالروح أم بالجسد؟

والقهوة لا يجلس بها سوى رجلين، أحدهما أخنف وإحدى عينيه بلا حاجب، لا تعليق على الخنافة ولا على الحاجب فهذا من صنع الله، المشكلة في قلَّة أدب هذا الرجل مع الناس، أعرفه ويعرفني هو الآخر، (ورداني) الذي يقف بخَرْطَة بسبوسة بناصية شارعَي التجاري ومحمد علي، والنسوة بالذات يهوَى التحرُّش بهن، خمسون صفعةً نالها عندنا في القسم ناهيك عن الشتائم والكلام الجارح الذي يسمعه منا ومن الناس الذين يُكتِّفونه ويأتون به إلينا، ورغم هذا لم يرتدع فالاحتكاك بالنسوة وقَرْصةٌ في الفَخِذ أو ضربةٌ على المُؤخَّرة كيف ومزاجِ عنده.. حيَّاني سيادته ومع التحية ابتسامة، لم أحفَل به، مجرد هزَّة بظهر يدي، قام وانصرف فالمكان لا يسعُنا معًا..

أما الرجل الثاني فكان فحلًا وقبضته ليس لها حل، أظنه صولًا من صولات الجيش، البنطال الميري والحذاء البيادة هما اللذان كشفاه، ومن أعلى يرتدي قميصًا بنصفِ كُمٍّ وفي جيبه العلوي ثلاثةُ أقلام، واحد أبنوس والثاني جاف والثالث لا أعرف من أي صنف، والحاجُّ علَّام لا حِسّ ولا خبر، خليل السمسار هو الذي يجلس مطرحه.

لم أعرفه أول الأمر، ما شاء الله بهيئة جديدة؛ فالجلباب الإفرنجي أبو سُفْرة وياقة كهباب الحلَّة أصبح جلبابًا بلديًّا من الكشمير المحترم، غير أنه كان واسعًا عليه، أظنه من إحسانات الحاج علام، وجورب وحذاء أسود بأبزيم على الجنب وطاقية بيضاء، الحذاء أيضًا مشكوك في أمره، تعود أصوله هو الآخر

إلى الحاج علام فأحذيته كلها من هذا النوع، وعندما دفعني الفضول عمَّا طرأ على هذا الخليل قال لي الصبي الذي يقدم لي كوب الشاي:

- بسم الله ما شاء الله عم علام دلوقتي فاتح قهوة تانية في راس البَرّ للبورسعيدية المتهجَّرين هناك.

ويطمئنُ نفسه:

- بس لسَّه القهوة دي على اسمه، الحكاية وما فيها إن الحركة على قدَّها اليومين دُول فسابها لخليل أفندي يراعيها لحد ما ننفكّوا من اللي إحنا فيه.

ويلتفت ناحية خليل حَذِرًا من أن يصلَ إليه الكلام:

- أعوذ بالله، كلب واتلقَى عضمه! يا باي..

ويدخل علينا ثلاثة شياب، اثنان بجلابيب إفرنجية والثالث ببنطال وقميص مشمور أسفل منه فانلة بكُمٍّ طويل، والثلاثة على رُءُوسهم شيلان مزركشة، يبدو أنهم يعرفونني، لوَّحوا لي بالتحية وشيء من التهليل، وأنا لست متأكدًا منهم، مَنْ؟ مَنْ؟ لا أعرف بالضبط، وجلسوا هم على مقربة من خليل.

الذاكرة هذه لا سلطانَ لأحدٍ عليها، لم تقُلْ إلا بعدها، وبكَمْ؟ بعشر دقائق، إنهم من رجال الحاج عربي وأني كنت معهم علي شاطئ البحر صباح أمس، أقوم نصف قومة وأحيِّيهم ففهموا بأني فطنت وعرفتهم وردُّوا التحيةَ بأحسنَ منها، ولحظتها انتبه خليل لوجودي وأسرع إليَّ:

- سعادة البيه، يادي النور..

هي الجملة الوحيدة التي تبادلناها هذه الليلة، وعندما أقبل الضابط حسام حيَّاه هو الآخر تحيةً لائقةً وأصرَّ على أن يخدمنا بنَفْسِه، حمل لنا المشاريب ثم زحزح أحد المقاعد متعشمًا الجلوس معنا، غير أنَّي رمقتُه بنظرة صارمة فرجع إلى حيث كان يجلس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

حسام هذا طول بعرض لكن ملابسه لا تروق لي..

هذا رأيي فيها ولا ملامة على ما أقول فالناس أذواق، الألوان غير متناسقة بالمرة والبنطال ضيق من الأسفل كفوَّهة المزمار، تفصيلة قديمة، ليس واسعًا (شارلستون) على موضة الأيام التي كنا فيها، والقميص مزموم حول صدره زمَّة سخيفة..

ما هذه الثياب؟!

أكثر من مرة وأنا أتأملُه وهو جالسٌ فيتأكد كلامي وأني لا أفتري عليه، ويستهلُّ هو حديثه بالمسألة التي تشغله:

- يا ترى انت قلت لكرم بيه إنك شُفتنا مع بعض؟

لم أرفع معه التكليف مثلما فعل، استخدمت معه كلمة (حضرتك) طوال الجلسة فاضطر للتعامل معي على هذا الأساس، كما لم أشأ إراحته، تفكير شيطاني يا تُرى؟

طبعًا تفكير شيطاني فهل هذه أفعال أناس أسوياء! ملعونةٍ الغَيْرَة، بابها بابٌ من أبواب الشر، ناورتُ، قلتُ له بكل غلاسة وأنا أعبث في أسْتِيك الساعة:

- يعني..

وألتفتُ عامدًا نحو فريق الحاج عربي، سألتُهم عن أحوالهم وأحوال الصيد والبربوني والكابوريا والشبار، وهم مبسوطون من هذا الحوار الذي يدور بيننا عبر الموائد المتباعدة، مشكلتي معهم أن الثلاثة كانوا يردون عليَّ في نَفَسٍ واحدٍ، فيتداخل الكلام بعضُه مع البعض ولا أفهم بالضبط ما يقولون، وهو قَلِقٌ وربما انتابَهُ الغضبُ ويعيد عليَّ السؤال بشيءٍ من الحدَّة:

- يعني حضرتك قلت وللا مقلتش؟

فرجعت إليه وبحدَّة أنا الآخر:

- طبعًا مقلتش، ودا كلام يتقال يا أستاذ..

أعجبتني كلمة (يا أستاذ) هذه التي خرجت مني بتلقائية، لم أخطط لها لكنها جاءت في محلِّها، درجة أعلى من درجات حفظ المسافة التي بيننا، وتركني فريق الحاج عربي عندما انشغلتُ به وهو مُتحيِّر في أمري، فهل أنا في حالة

استعباط أم أن شكلي هكذا ولا يجب أن يتسرع في الحكم عليَّ؟ لكنه في المجمل ارتاح بعض الشيء عندما عرف أن خبر لقائه بحبيبة القلب لم يصل لأبيها كرم وطفق يكلِّمُني عنها..

تعرَّف إليها وهي في السنة الثانية بمدرسة بورسعيد الثانوية بنات، وبمودَّة وضع كفَّه على ظهر يدي وهو يتكلم فسحبتُها على الفور، وكأنَّ نملةً لدغتني في الإصبع الكبيرة، هكذا تظاهرت، وطفقتُ أحكُّها بظفر السبَّابة وهو تشعُّ من عينيه الفرحة ويقول:

- وصدفة والله! كنت ماشي في شارع (23 يوليو) وألاقيها هيَّه وأختي طالعين من المدرسة سَوَا، ما هم الاتنين زمايل، وسلمنا على بعض ومن ساعتها بقى..

وأنا أقول في نفسي: صدفة! ملعون أبا الصدف التي من هذا النوع..

ويضيف هو:

- وجوابات رايحة جاية..

ثم ابتسم..

ابتساهتُه غريبة، فعلًا غريبة، لا تأخذ حيزًا على الوجه أو لها تأثير على الملامح، عدة ملِّيمترات من اليمين ومثلها من اليسار، كأنه لم يبتسم..

- وتعرف مين المرسال اللي كان بيِّنا، تودري بتاع الچيانولا! تسيب له هيَّه الجواب وأنا استلمه منه وبعدها أدِّيه أنا جوابي..

ويوضح:

- دا كان في الأول بس، وبعدها خلاص لا تودري ولا غيره، بقينا نتقابل..

وأنا لا تروق لي قصة (روميو وچولييت) هذه، وأُصنِّف تودري في خانة العملاء وأضعُه في (البلاك لِسْت)..

- وبقينا نروح السينما مع بعض، إنت فاكر فيلم (يوم من عمري) بتاع عبد الحليم حافظ وزبيدة ثروت، شفناه سوا..

- يوم من عمرك!

- آه والله..

ويضحك..

ضحكتُه أيضًا عليها ملاحظات، ضحكة ميري، ليس فيها انبساط ولا انفعالات، الفم وحده الذي يضحك أما الوجه فخامل لا يضحك..

- تقول لمامتها أنا خارجة مع صاحباتي، وأكون أنا مَسْتنِّيها!

فتلوح الست ماري أمامي، وكأني أقول لها:

- جَتِك خيبة! وعاملة عليَّا أنا راجل! روحي شوفي بنتك بتعمل إيه من وَرَا ضهرك، يللا يللا إتفضلي من قدامي!

ويبدو الضيق على وجهي من هذا الانفعال الداخلي، فيلاحظ ويسألني وأنا أقول له: لا. لا. مفيش.

وكنت لا أعطي حسام وجهي كاملًا وهو يتكلم..

أومئُ برأسي فقط وكأنِّي متجاوب معه وعيناي ومعها أصابعي تعبث في مُتعلَّقاتي التي فوق المنضدة، مفتاح السيارة، علبة السجائر، الولَّاعة، أو أميل على حذائي أفكُّ الرباط وأعقده من جديد.

وأسألُه: هل تبادلك الحب مثلما تبادلها؟

سؤال خرج مني دون وعي، سؤال غبي لا معنى له، أَبَعْدَ كُلِّ هذا؟ بعد تودري ويوم من عمري والسينما والجوابات، طبعًا تبادله يا أعمى العين!

وأبادره بسؤالٍ آخر: وما الذي تريدُه مني بالضبط؟

- عايز حضرتك تخطبهالي من كرم بيه..

فمددتُ رأسي إليه بدهشة:

- آ.. أيه.. أخطبهالك!

- أو على الأقل تجسِّلِي النبض، مش عايز أوقَّع بابا في إحراج ولما يتقدم تكون إيدي مليانة.

ويسهِّل عليَّ الأمر!

- دا عشمي ونادية هَيَّه اللي شجَّعتني، قالت لي إنكم زمايل وحبايب والراجل دايمًا يشكر فيك.

- بس..

- بس إيه! أنا واحد نيّته طيبة وبحبَّها بجد، خيالها على طول قُدام عيني في البيت وفي المعسكر وأنا نايم وأنا صاحي.

- دي مسألة..

- عارف وفاهم إنها مسألة صعبة، لكن كرم بيه وعلى حسب ما سمعت راجل مُتفتِّح وبيموت في بنته، مش معقول هيقف في وش سعادتها.

ويضغط على يدي مؤكِّدًا رغبته، لم أسحبها هذه المرة، كنت مدووشًا من هذا الطلب الذي يطلبه وكالتائه قلت:

- ماشي..

وأنظرُ في ساعتي، ينظرُ في ساعته هو الآخر وكأنِّي أشعرتُه بأن المقابلة انتهت، ويهبُّ ويدعُني خارجًا من القهوة وأنا أتأمله من الخلف هذه المرة..

خطواتُه أيضًا عليها أكثر من ملاحظة، ليست خطوات مُحبِّين أو فيها أي مرح، قوية، منتظمة، شمال يمين، كمَنْ يسير في طابور عسكري..

عيناي هذه الليلة كانتا كعينَي (العذول)، انتقادات في انتقادات، لكنها كانت تحدث رغمًا عنِّي..

رغمًا عنك يا كَذُوب! وهل هذا تبرير! فمن هذا الذي كان يُرغمك عليها؟ قُلْها صراحة، كنت حاقدًا عليه..

وأنادي على صبي القهوة لأحاسبه على المشروبات:

- الحساب خالص يا سعادة البيه، عم هلال دفع.

ويهبُّ فريق الحاج عربي كله واقفًا، وأنا أرفضُ وعم هلال ذو البنطال والقميص المشمور يتقدم خطوةً للأمام ويحلف بالله أن أقبَل منه هذه التحية، وإلَّا فإن الحاج عربي سوف يزعل منه ويقطع رقبته..

أبتسمُ متعاطفًا مع هذه المَودَّة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

حجرة المكتب الخاصة بكرم حَرُّها لا يُطاق..

في الناحية القبلية من مبنى شرطة النجدة ونسمة الهواء التي تأتيها دائمًا رذلة، ساخنة ومُشبَّعة بالرطوبة، وهو جالسٌ على أحد المقاعد يتثاءبُ ويهشُّ الذباب بمنشَّةٍ في يده، ودخلتُ أنا في صلب الموضوع مباشرة، رميتُ الكلام في حجره بلا مقدمات وهو يستمع لي باستغراب، فما أقولُه لم يكن ضمن حساباته بتاتًا:

- عريس!

وإشاحة خفيفة:

- قوام كده، دي لسه..

وكان باب المكتب مفتوحًا حتى آخره، ونسمع جلبة العساكر وأحذيتهم الثقيلة على بلاط الطرقة، قام ووارباه ثم قال وهو يُعاود الجلوس:

- ودا واحد من زمايلنا؟

- لأ.. ظابط جيش.

- جيش..

خرجَتِ الكلمة من فمه ممطوطة بعض الشيء..

- ومن هنا من بورسعيد؟

- آه.. بلدِيَّاتك وعارفك كويس.

- عارفني كمان!

- اسمه حسام..

يزمُّ حاجبيه بتركيزٍ وهو يقول:

- حسام! حسام! حسام!

ونظرة من أعلى النظارة:

- ودَا..

ثم معق بقية الجملة في جوفه واستفسر عن اسمه بالضبط، فقلت:

- حسام محمد أبو سمرة..

تغيُّر طفيف يبدو على وجهه وهو يسأل:

- ابن الحاج محمد أبو سمرة بتاع المقاولات؟

وأنا بلا مبالاة:

- معرفش..

وتداركت:

- كل اللي أعرفه انهم ساكنين في شارع صلاح سالم.

- عارف، عارف، عند الكنيسة الطلياني.

وبرهةُ صمتٍ وهو يطاردُ ذبابةً بالمنشَّة التي في يده، واللعينة تفلت منه كالصاروخ وتحطُّ على طرطوفة أنفه من جديد، فعلتها عدة مرات مرة على أُذُنه ومرة فوق الحاجب أو تُناور وتجيء له من الخلف، والرجل في حالة مباغتة وليس عنده صبر ولا أعصاب لهذه المجرمة! ويطرُق الصول عزيز علينا الباب وبيده (أورنيك ذنب) لأحد العساكر.. الحاج كرم هو البلسم هنا مثلما كان عاطف في قسم العرب، يقدم له حضرة الصول الأورنيك بعشم:

- متخلُّوها سماح النوبة دي، الواد غلطان مقلناش حاجة بس دا غلبان ودي أول غلطة يغلطها، الدوسيه بتاعه نضيف وخصم خمس تيام كتير عليه.

والحاج كرم بحدَّة:

- وهو أنا اللي أدِّيته الجزا، دا القائد..

- عارف عارف يا حاج كرم، بس البركة فيك وفي العُوزَة ملناش غيرك، وبكلمة منك لسيادة القائد يتلغي الخصم وياخد له خدمتين وللا تلاتة زيادة.

فيلقي كرم الأورنيك جانبًا بغضب، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوته عاليًا كما الصياح:

- أولًا مفيش حاجه هنا اسمها الحاج كرم، أنا الرائد كرم وبس وكمان دي مش عزبة أبويا، دي حكومة واللي يغلط ياخد فوق راسه.

والصول عزيز لا يصدق أن هذا هو الحاج كرم ويلتقط الأورنيك ويدعُنا ويخرج، وكرم يتمتم لاعنًا هذه الأشكال التي لا تُقدِّر المسئولية وتريد تغيير نظام

الكون، وأنا أرمقُه: فما دخل نظام الكون بهذه التفاهات! المشكلة فيما سمعته مني الآن يا رجل يا طيب..

ويلتقطُ أنفاسه ثم يبتسم، ابتسامتُه لا تنطلي عليَّ ولا على أي عيِّل عمره عشر سنوات، ليست حلوة، صفراء، ويستحثُّنِي لأكمل كلامي:

- كمِّل.. كمِّل..

أشَحْتُ له بأن: خلاص، انتهيت، فرمقني رمقةً ثانيةً من أعلى النظارة:

- ونادية عارفة؟ بتقابله يعني وبتقعد معاه؟

- الله أعلم، أنا يدوبك مرسال..

- أمَّال عرف سكتنا إزاي؟

فهل يقصدُني بهذا السؤال، أنا مثلًا الذي أرشدتُ هذا الحسام إلى أن لديه ابنةً في سن الزواج، وهذه طبعًا تُهْمة مضحكة!

النهاية، قلت له:

- يعني..

- يعني إيه! لا يعني ولا غيرُه، البنت لسَّه صغيرة.

ويده على المنشَّة استعدادًا للذبابة التي لا تزال تحوم:

- من سنتين كانت لسه بضفاير، وبعدين دي لسه في سنة تانية طب وقدامها مشوار طويل، أنا مستصغرها على الهم والمسئولية..

ويتأنى لحظةً ثم يقول:

- مش كده برضه؟

وأنا أُجاريه:

- معاك حق..

وأتأنى أنا الآخر وأؤكدها له:

- والله معاك حق..

فالكلام على هواي كما أني فاهم بأن الأعذار التي يتحجَّج بها ليست هي السبب الأول، وأستمرُّ في الضغط عليه:

- ما تقعد معاه وتدردش وتسمع منه، دا انتوا بكره هتبقوا نسايب.

وهو بتوتر:

- أقعد مع مين!

- يعني أقول له إيه؟

- تقول إنك بلَّغت وربنا يسهل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأدعُهُ راجعًا إلى مكتبي..

مال قلبي لنادية من أول ما رأيتُها، فهل هذه مجرد شهوة أم حب من أول نظرة، المسألة تمور في داخلي دون تحديد، لا أعرف لها رأسًا من قدم، وعندما شاهدتُها مع حسام في الچيانولا زادت رغبتي فيها، ثم جاءني المسكين وقال لي ما قال وأنا مشاعري ليست محايدة، وكنت أشعر بنفسي وهي تتمنى أن يقول الحاج كرم: لا، وننفَضّ، بكل أسف لم أكن نزيهًا..

ويطرُق كرم عليَّ الباب، قال على الفور وهو واقف لم يجلس بعد:

- إوعى تفتكر إنه علشان هو مسلم أنا متردد، لا لا الحكاية مش كده خالص.

وأنا أقول في نفسي: دا كده ونص..

وبعد أن جلس وأشعل سيجارته:

- تفتكر صاحبك دا يناسب نادية، دي رقيقة وأقل حاجة تكسرها..

كان في حالة اضطراب وبين (نعم) و(لا)، فأحببتُ ترجيح كفَّة (لا)..

- أولًا هو مش صاحبي، معرفة وبس، وبعدين كوِّيس وِحِش الله أعلم..

وهو يهزُّ رأسه ويسألني ويسأل نفسَه في الوقت ذاته:

- ونادية مش المفروض أعرف رأيها قبل أي حد؟

أعرف مشاعر نادية فحاولت استبعادها، وفي اللحظة نفسها لاحت لي الست ماري واقفةً بجلباب البيت شِعرُها منكوش ويدُها ممسكةٌ بغطاءِ أكبر حلَّة عندها وفي وضع الهجوم، لم أرَها طبعًا بهذا المنظر من قبل، الخيال هو الذي صنع لي هذا المشهد، ووجدتُ نفسي أقول له:

- والله البنات في السن دي بتبقى طايشة، ولازم حد كبير يوعِّيها..

وأضيفُ بصوتٍ خافتٍ غير أنِّي حرصتُ على أن يصل لأذنيه جيدًا:

- مامتها مثلًا..

- آه والله، كلامك صح..

وسكتُّ لأني أعرف أنه لا يحلُ ولا يربط، والأمر كله في يد الحيزبون زوجته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

وفي الحال طيَّر الحاج كرم الخبر إلى زوجته..

ولم تمرَّ أربعٌ وعشرون ساعةً إلا وكانت عندنا في بورسعيد وتطلب لقائي، وأنا نافرٌ قَلِقٌ من الكلام مع هذه الست وأقول له بألَّا داعي، وهو يحايل ويُربِّت على كتفي وأنا أرجوه:

- يا عَمّ كرم! يا سي كرم! إديني الرد وأنا أبلَّغ الراجل ونخلَص.

- آديك هتسمعه منها بنفسك.

وفي وسط هذه الدهشة أو ربما الربكة غافلني المقروص لساني، فبدون أمر صريح أو حتى مجرد تنسيق بيننا كاد أن يفضحني هذا المتهور، قال من تلقاء نفسه بل وقالها بشغف:

- ونادية هتكون قاعدة معانا هيَّه كمان؟

والرجل الطيب لا يلحظُ ويومئُ برأسه مؤكدًا:

- ضروري ضروري، علشان الكلام يبقى قدامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما طرقت الباب ودخلت، سوَّتْ الست ماري جلستها وشدَّتْ ذيل الفستان إلى ما دون رُكبتيها، ولاحظت أنها تغطي شعرها كله بإيشارب خفيف، اتخذت أمامي وضع المُحجَّبات أو للإنصاف كانت شبه محجبة، وكلما وجَّهت إليَّ الكلام تسبقه بكلمة: يا أستاذ أو يا حضرة، رغم أنها في المرة السابقة كانت تناديني باسمي مباشرة، عاملتني مثلما كانت أتعامل مع الضابط حسام، لا مشكلة فكما تدين تُدان، ولم تكن نادية معنا، أنا وهذه الحيزبون فقط، فوجود الحاج كرم معنا لم يشكل أية إضافة، كان أشبهَ بضيفٍ من ضيوف الشرف، وكنت أشعرُ بأن كل كلمة نقولُها في جلستنا هذه تصل إلى الداخل ونادية تسمعها.

لم تُبدِ الست ماري أي ترحيب بي، وهذا ما كنت أتوقعُه ولم أُبالِ به، ولا مدَّتْ لي يدها بالسلام، قالت ودون أن تتحرك ربع بوصة من مطرحها:

- أهلًا..

قالتها من طرف أنفها، والحاج كرم يحاول التغطية على هذه البداية الخشنة:

- حالًا هعمل لك القهوة المتينة..

وخطا خطوة ثم التفت إليَّ مشيرًا بإصبعه:

- على فكرة المكوجي جاب لك القمصان، وشيلتهم لك عندي في الدولاب لحد ما ترجع إنت وجلال بيه.

وشرعَتْ هي في إشعال سيجارة، جديدة هذه! لم تفعلها المرة السابقة، ربما احترامًا لجلال بك، وعندما قال زوجُها عبارته انتبهت ورفعت عينيها نحوي، فلم تكن تدري بأن لي قمصانًا وبناطيلَ وجواربَ وغيارات هنا بل ومرصوصة في دولابها، وغاص كرم في المطبخ يُعد القهوة وقالت هي مباشرةً ودون تمهيد:

- الأستاذ بتاعك دا ميناسبناش..

النفس البشرية هذه مشكلة، العلماء أنفسهم احتاروا فيها! فهذا هو الرد الذي كنت أتمنى سماعه من الحاج كرم عندما تحدثنا وجَرْي جَرْي به إلى الضابط حسام، لكن بعد أن قِيل منها لم أتلقَّاه بشغفٍ ولا بنفس مشاعري القديمة ووجدتُ نفسي أقول لها:

- وليه بس يا تانت؟

لم تعجبها كلمة (تَانْت)، ومعها حق فلم تكن كبيرة في السن لهذا الحد، وتداركتُ أنا بسرعة:

- قصدي يا مدام إنه إنسان مؤدب ومحترم وبيحب نادية، أنا قعدت معاه قعدة طويلة وحسِّيت بكده.

وأقبل الحاجُّ كرم بصينية القهوة، وضعها أمامي وفوقها ابتسامة وكما لو أنه سرح سرحةً خاطفة، لحظة.. لا.. لا.. أقل.. طرفة عين، كان يفكر في أين يجلس؟ واتخذ قراره، جلس على المقعد الذي بجواري، ترك لها الكنبة كلها، وأكملتُ أنا بقيَّةَ الجملةِ التي انقطعَتْ بقدومه:

- وكمان يا مدام حسام دا أهله ناس طيبين على حسب ما سمعت من كرم بيه.

وأؤكد وأنا أنظر إليه:

- دا شَكَر فيهم كتير، قال إنهم ناس ما شاء الله عندهم وعندهم، وكمان في حالهم وعمرنا ما سمعنا عنهم حاجه وحشة..

وطفقتُ أسترسلُ وأضيفُ وهو يتلقَّى الكلام بدهشةٍ ويرمقُني بنظرةٍ لائمة، فهو لا قال ولا يحزنون وكل هذه الإضافات من عندي! لكنه مَرَّرها لي، وأنا الآخر في حالة اندهاشٍ شأني شأنه، ولكن من نَفْسي، فما كل هذه الإطراءات التي كنت أقولها عن الضابط حسام، وما هذا التحوُّل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين؟ أكُلُّ هذا عِنْدًا فيها أم تحوُّلٌ طرأ عليَّ وهكذا على غفلة! وهي لا تشعر طبعًا بهذا الذي يجول في خاطري وصدقت الفِرْيَة التي افتريتُها على زوجها، وتنظر لي وله:

- هو قال كل ده!

وبابتسام:

- أصل المقدَّس كرم قلبه زي اللبن الحليب، وكل الناس عنده كويِّسة..

لم تقُلِ الست ماري كلمة (المقدس) هذه جُزافًا، فزوجُها ذهب إلى فلسطين فعلًا وهو صغير، زارها صحبة أبيه أوائل الأربعينيات، وكان عمره وقتها عشر سنوات، وحجَّ وصلَّى وتبرَّك بقبر السيد المسيح، وأحيانًا وحسبما سمعت منه في دردشات سابقة كانوا ينادونه بهذا اللقب في الأوساط اللصيقة بهم، على أية حال ليس هذا موضوعنا والحمد لله أني لم أخاطبه ولا مرة أمامها بلقب (الحاج) مثلما نفعل كثيرًا في المكتب، وإلا لنكَدَّت عليَّ وعليه.

وتهشُّ هي مُخلَّفات السيجارة التي تكوَّمت في حجرها، وتوجه لي الحديث:

- كلامك معقول والأستاذ بتاعك دا هو وأهله ناس كويسين ما قلناش حاجة، لكن ومن أولها كده أنا عندي لك سؤال: لو كان عندي أخ وللا ابن وانت لك أخت وبيحبوا بعض، توافق على جوازة زي دي؟

الصراحة باغتني السؤال، لم أتوقَّعه، وكرم انتباهة في عينيه وكما لو أنهما تقولان لي: أخ! الكرة في ملعبك الآن، أجِبْ عليها يا فالح..

وأنا برهة صمت ثم قلت:

- ياريت ينفع، ما ينفعش..

وهي وعيناها في عيني:

- وليه ما ينفعشي؟

فأخذت أشرح لها بأن الشَّرْع لا يسمح لنا بذلك ويسوق لنا الأسباب، وهذا دين وإلزام لا خيار لنا فيه، وهي تتجاوب بهزَّات من رأسها وكرم على الحياد وعيناه تتنقلان بيني وبينها، وإن كان الذي أقوله ليس جديدًا لا عليه ولا عليها،

يعرفانه مثلما أعرفه، وبعد أن فرغت قالت وهي تهمُّ بإشعال سيجارتها الثانية:

- مانْتَش شايف إن كلامك دا فيه ظلم لينا..؟

- ظلم!

- طبعًا ظلم، بتبصُّوا لنا على أننا أقل منكم، تقدروا تاخدوا بناتنا وإحنا منقدرشي..

وكرم كمن قفز فأرٌ في عِبِّه تقلقل بضيقٍ وهو جالس، شعر بأن شجارًا يكاد يقع، ونظر إليَّ وإليها ثم رفع يده معارضًا:

- لا. لا. ظلم إيه!

لم يتفوَّه بأكثر من ذلك، أسكتته بنظرةٍ من عينيها، وأنا أقولُ في نفسي بأنه لو لم تكن سمكة القرش هذه موجودة على الساحة وكرم هو من بيده الأمر لتردد قليلًا ثم وافق، ولكان حسام ونادية تزوجا وأنجبا صبيانًا وبناتٍ وحُلَّت كل المشاكل.

ومكثتُ أجادلُها ولما أطلتُ انفعلَتْ وتدفق الكلام من شفتيها كطلقات الرصاص، عبارات وراء بعضها البعض يبدو أنها تداولتها مع نفسها وكرَّرتها في صدرها عشرات المرات قبل أن تلقاني، غير أنها ومن شدة الانفعال كانت تتعثر أحيانًا فتأتي بعض العبارات مبتورةً من الأطراف أو كلمة محلَّ أخرى أو خارجة عن السياق، وكنت ألحظُ رجفةً في أصابعها وارتباكًا في حركة اليد أو سكوتًا مفاجئًا تعقبه التماعةٌ في العين وأحيانًا خفوت، تصرفات بلا وعي منها قطعًا إلا أنها كانت تشي بأكثر مما يقوله كلامها.

وقرب ختام الجلسة أسألُها:

- يعني حضرتك مش موافقة علشان حكاية الدِّين؟

- بالظبط كده..

- مش لسبب تاني؟

فتومئ برأسها بأن: صح وهذا هو السبب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما الأمر لا يستحقُّ كل هذا..

ترفضُ بلطفٍ وينتهي الأمر، ترفضُ بذريعةٍ غير التي تذرَّعت بها، كان لشخصيتها المُبالِغة في الاعتداد بالنفس أو لطبيعتها الثائرة أو ربما الفائرة أثرٌ ولا شك فيما قالت..

لم تتكلم في الأديان ولا ألمحت لشيءٍ أو جرَّحت، كان حديثها باحترام إذا جاءت سيرة الدين عَرَضًا، ما كان يمثل لها مشكلة وتودُّ أن تقول كلمتها فيه أنه إذا أردنا العدل علينا أن نضع أنفسنا في موضع الطرف الآخر، وأنه كما يُحرِّم ديننا أمرًا ما فلا يجب أن نلوم إذا سلك الآخر نفس المسلك، فهذا حقٌّ من حقوقها وتأبَى عليها كرامتها أن تناور وتداري فيه، أو تتذرَّع بأسبابٍ أخرى من باب المجاملة..

وتخفُت حرارة الجلسة، وتناديني باسمي وهي تقدم لي سيجارة من عُلْبتها وبنبرةٍ مُسالمةٍ تقول:

- أنا مقصدش حاجه وحشة، كل اللي اقصده...

وأنا أجاوبها:

- فاهم. فاهم.

- وأظن دا حقي..

- مفهوم. مفهوم.

وأدعهُما وأنصرفُ والحاج كرم معي إلى الباب وضغطةٌ خفيفةٌ على يدي وأنا أسلم عليه، لم أفهم ما الذي يقصده من هذه الضغطة الحانية، أوَّلتُها على أنها تطييب للخاطر أو أنه يقول: لا تُبالِ بكلامها وبعدها لنا تصرفٌ آخر، وقبل أن يحول الباب بيننا ألمحُ نادية قادمةً من غرفتها وحزنٌ شفيفٌ يرشَحُ من عينيها..

وخرجتُ وكأني شخصٌ آخر، نادية التي كنت أحبُّها أو لا أعرف بالضبط ما الذي كان في صدري تجاهها، أصبحتُ أحنو عليها حُنُوَّ الأخ المشفق، ولا زيادة على ذلك..

وحدث ذلك كيف؟ لا أدري..

نَفْسٌ تحبُّ ونفسٌ تشفقُ ونفسٌ تكابدُ بعضها ونفسٌ تفعل الشيء ونقيضه، وكلها نَفْسٌ واحدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

24

شهر رمضان والحركةُ شبهُ ميِّتة..

ولا يدور في بال أحد أن هذا اليوم هو يوم التحرير، وأنا في مُناوَبَة بسيارة النجدة (الفورد) البيضاء، الساعة الواحدة ظهرًا وسئمتُ من اللَّف في شوارع حي الإفرنج، فارتكزتُ بالسيارة وأفراد القوة الذين معي أمام مبنى (إدارة البحث الجنائي) بشارع أوچيني، ورحَّبوا هم طبعًا، يودون الانعتاق مني ومن السيارة، فلا تدخين أمامي أو الدخول في حكايات وخرابيط مما يقولونها لبعضهم البعض، ذهبوا إلى حال سبيلهم، وأنا لتمضية بعض الوقت مع زميلٍ من زملاء الدفعة يعمل بهذا المكان، وكان بغرفة هذا الزميل، وشأنه شأننا، سريرٌ للطوارئ إذا ما استدعت الظروف المبيت، ولأنه الأصغر رتبةً بين الضباط الذين يعملون هنا أعطوه أردأ سرير من الأسرَّة التي وُزِّعت عليهم، سرير ميري حديد في حديد ومُثبَّت بمسامير في الأرض الخشبية للمكتب، ومن حيث الحجم لا يصلح إلا لعيِّلٍ من العيال أو لثلاث أو أربع كتاكيت تحضن بعضها البعض وتلبَدُ فيه..

المهم أننا جلسنا نثرثر أنا وهو إلى أن طرق علينا البابَ الشاويشُ عبد الغفور (بلوكامين) الإدارة، وبيده ورقةٌ يودُّ التوقيع عليها من هذا الزميل على ما يبدو، وكان هذا الشاويش أعجوبةً وبشهادة الجميع، كل شيء فيه مضروب في اثنين، الأنف والبطن والمُؤخَّرة، كل كل شيء بالحجم المُضاعَف وسمَّانةُ قدمه تضاهي ثمرةَ بِطِّيخ متوسطة، باختصار كان أتخن إنسان على ظهر الكرة الأرضية.

ونسمع زئيرَ طائراتٍ لحظة دخول هذا الديناصور علينا، ليس مجرد زئير مما كنا نسمعه عادة، زئير بتوحش، وطائرات طائرات وراء بعضها البعض وكما لو أنها تطير على وجه الأرض، والحافظ هو الله من الرهبة التي كنا فيها، ترجُّ القلب وتزحزحه من مطرحه! لم نفكر فيما نفعله الغرائز هي التي تصرفت، طيَّرتنا أنا وهذا الزميل إلى أقرب مخبأ وغطسنا فيه، لسنا وحدنا، نحن وكثير غيرنا عساكر وضباط وأصحابُ محالَّ مجاورة وأناس كانت تمشي في الشارع بالمصادفة.

أول ما جاء في رُعُوسنا أنها طائرات للعدو وإجرام وقصف بلا رحمة، مكثنا برهةً ليست بالقصيرة على هذا الاعتقاد وبعدها بدأ الدَّوِيّ، دوي جبار ولا تَقُلْ لي (الحاجَّة زُهْرة) ولا خمسون (زُهرة) في بعضها البعض، كأنه يوم الحشر والأرض تُدكُّ إلى أن عرفنا أن الحرب حربنا والطائرات طائراتنا والقصف قصفنا.

وهدأ الموقف قليلًا فخرجتُ مسرعًا لألملمَ مُتعلّقاتي من مكتب هذا الزميل وأطيرَ إلى مقرِّ النجدة، وأول ما دخلنا أنا وهو من الباب وإذا بالمستحيل الذي لا يُصدق، الشاويش عبد الغفور الجسد العريض وكتل الشحم واللحم مُتكوِّمًا أسفل هذه اللعبة التي اسمها سرير، كان كالمَغشِيّ عليه وحسبناه ميتًا وظللنا نلكُزُه بأصابعنا حتى انتبه، فالتعيس تصرفت غريزته على نحو مختلف، رمته أسفل السرير بدلًا من الجري إلى المخبأ مثلما فعلنا، لكن كيف دخل هذا الجمل من سَمِّ الخِيَاطِ هذا!

ونسأله، وهو يلهث ويُجيبنا من أسفل السرير:

- مش عارف! لقيت نفسي هنا.

لم ننجح طبعًا في إخراجه، تكتَّلنا عليه نحن والضباط والعساكر الذين توافدوا من المخبأ وراءنا، ولا فائدة محشور حشرة سمكة السردين في العلب المحفوظة، اُضطُررنا لاستدعاءِ نجارٍ فك المسامير التي تثبت السرير في الأرض ورفعناه عاليًا حتى خرج..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس الشاويش عبد الغفور وحده الذي تلبَّسته قُوَى خفيَّة في هذه اللحظات، ولا امرأة حيّ المناخ التي تركت طفلها في البيت وخرجت وفاجأها القصف لتعود مسرعةً وتجد شقتها تحترق، لم تبالِ بجموع الناس التي تجذبُها من الخلف، اخترقت الهَدَد والنار المشتعلة والأحجار التي تتساقط وأتت بطفلها وهي تصرخ بهيستيريَّة وترفعه عاليًا.

فلا هي ولا عبد الغفور اللذان فعلا ذلك، قُوَى بداخلهما لا يعرفان بها ولا تفسير لها أو على الأقل بين العامَّة، هي التي أنجزت وأتت بما هو خارق كلما وقع أصحابها في شدائد لا قِبَل لهم بها.

بل وكلنا كنا كذلك طوال أيام الحرب، وبالذات من الناحية المعنوية، فمَنْ منَّا لا يخافُ الموتَ بل والمرض والحوادث وأقل من ذلك، الموت الغامض المخيف الفاصل بين عالمٍ وعالَم كما لو أننا لم نعُد نخشاه، ونُقدِم على أفعال لو حسبناها بمقاييس العقل ما تجرَّأنا عليها، وكُنَّا نُصاب برعشةٍ أشبه بالرعشات الكهربائية والطاقات التي فينا تتضاعفُ عندما نسمعُ البيانات العسكرية، أو نرى الجنود يتدفقون بسلاحهم وعرباتهم المُدرَّعة نحو الضفَّة الثانية للقناة.

والأغاني..

الحماسية منها بالذات، فكم كان وقعها على القلوب ذا أثر أيام الشدة..!

ملأت فضاء بورسعيد..

صدحت في كل المقاهي وسواء في حي الإفرنج أو العرب أو المناخ، وفي كل محل يقدم المأكولات والمشروبات أو شادر للخضار أو السمك أو اللحوم، أو تتسللُ من النوافذ والشرفات وبأعلى الأصوات، أغانٍ تدغدغُ المشاعرَ وتدفعُنا لأن نأتي بأقصى ما فينا، فالكورال يقول لنا مرةً وهو في حالةِ ابتهال:

بسم الله.. الله أكبر.. بسم الله..

الله يا بلادنا بسم الله.. وبأيدين ولادنا بسم الله..

وأدان على المَدْنَة بسم الله.. يحيِّي ولادنا بسم الله..

ومرة أخرى يتغنَّى لنا الكورال بمهابةٍ وثقةٍ لا غرور:

رايحين رايحين.. شايلين في إيدنا سلاح..

راجعين راجعين.. رافعين رايات النصر..

سالمين سالمين.. حالفين بعهد الله..

باسمك يا بلدي..

حلفنا يا بلدي..

جيشك وشعبك يرد التحدِّي..

وقد شهدتُ بعيني زفَّةً من نسوةٍ بسيطات، بسيطات لأقصى حد وأعمارهن متفاوتة، صبايا أجسادهن عفيَّة، وعجائز ضمرت أبدانُهن وطمست التجاعيد وجوههن حتى تماثلت فلا تميز هذه من تلك، وصغيرات في طور الرضاعة محمولات على الأكتاف أو أكبر قليلًا ويتعثرن في الخلف، وفي المنتصف امرأةٌ مُتمرِّسة تدقُ على الطبلة والباقيات يتغنَّين جماعةً وراء صَبيَّة صوتُها عذبٌ كما لو أنه صوتُ مطربتنا الكبيرة (وردة) وبإيقاعٍ هو بالتمام الإيقاع الذي أبدعه التلحين:

حلــوة بـــلادي..

بلادي السمرة.. بلادي الحرة..

وأنا على الربابة بغني وأقول: تعيشي يا مصر..

غنوة أمل وتكون أمل للنصر..

يا بلادي يا أحلى البلاد يا بلادي..

بناتي أنا والولاد يا بلادي..

يـا حبيـبتـي يا مصـر..

ونحن نراقبُ هؤلاء النسوة خوفًا عليهن ونَحُول بينهن وبين الاقتراب من المراكز العسكرية، لَفَفْنَ شوارعَ حيّ المناخ كلها ثم اجتزن شوارع حي العرب حتى أصابهن الإجهاد.

وعَمّ هنداوي صاحب كُشْك السجائر، العجوز الذي تخطى السبعين وصيف شتاء كوفية تحيط بعنقه وسعلتان أو ثلاثة على الأقل كل خمس دقائق، شاهدنا عصًا غليظةً مركونةً في الكُشْك من الداخل، بابتسامٍ نسألُه عنها فلم نَرَها من قبل، وهو يجيب بحماسة:

- أمَّال! هو انتوا فاكرنِّي واحد ملوش لزمة، بس حد من ولاد الكلب دُول يقرَّب من هنا وشوفوا أنا هعمل فيه إيه.

والعم بيتر وضع في خاصرته مطواة (قرن غزال) تحسُّبًا للظروف حسبما قال، أما تودري فغاب عن الچيانولا ووقف بسلاحه في الشوارع مع رجال المقاومة الشعبية، وللمرة الأولى أسمع في جرامفون الچيانولا أغنياتٍ حماسية، عبد الوهاب وهو يقول بصوته المؤثر: حب الوطن فرض علىَّ، أفديه بروحي وعنىَّ، وأم كلثوم: مصر التي في خاطري وفي فمي، أحبُّها من كل روحي ودمي.

أما خليل السمسار الذي خلَفَ الحاج علام في إدارة قهوة الفلاح، فكاد أن يسبب لنا أزمة..

فقد أُصيبت قاعدةٌ للدفاع الجويّ بغرب بورسعيد بإصابة شديدة من طائرات العدو، وما زال بها عدة صواريخ من طرازَيْ (سام 6 و سام 7) سليمة لم تتأثر بالقصف، فأسرعت قوات الجيش بنقلها لموقع آخر على لَوارٍ كبيرة، ولا مفرَّ من أن تتحرك بها خلال شوارع المدينة، لوري ضخم يحمل صاروخًا سار به في شارع التلاتيني ولوري آخر بنفس الحجم سلك طريقًا آخر والثالث سار في شارع أوچيني، كنتُ ضمن القوة التي ترافق اللوري الأول ووقعت غارةٌ علينا بعد أن اجتزنا شارع محمد علي ودخلنا في النصف الثاني لشارع التلاتيني، وخشي رجال الجيش أن يُرصد الصاروخ من أعلى ويُقصف فيحيق الدمار بالمكان كله، أخفوه تحت باكية من بواكي إحدى العمارات إلى أن تنتهي الغارة.

ساعتان أو ثلاثة والصاروخُ جاثمٌ في هذا المكان، ونحن القلق والتوتر والخوف من دانة تهبط عليه من أعلى ويضيع نصف الشارع، ونُفاجأ بعشرات الناس يتوافدون علينا، ومنهم كبار في السن ومنهم نسوة والكل مصمم على الإحاطة بالصاروخ وحمايته، والذي أو التي تتحسَّسه ونحن ندفعها بعيدًا، والتي رمقته بعينيها وأسرعت إلى بيتها ووراءها ثلاثُ أو أربعُ نسوةٍ وعُدْنَ بملاءات أسِرَّة وألحفة وبطاطين، والتي نزعت ستارة نافذة من نوافذ بيتها وكلهن يُرِدْنَ تغطية الصاروخ وحجبه عن أعين الأعداء.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فمع كل دقيقة كان يتوافد آخرون، صبية مَقاهٍ ودكاكين وأناس لا أعرف من أين أتوا وبأيديهم الأسلحة التي يقدرون عليها، عصي، سكاكين، أرجل كراسي، طوبة أو زلطة التقطوها من أي هَدَد في الشارع، وخليل السمسار هو القائد، بيده عصًا يشوح بها وباليد الثانية ميكروفون يوجِّه به الناس، شعره منكوش والصوت مبحوح وشراسةٌ تعلو ملامح الوجه، نحاول إقناعه بالحُسنَى تارةً وبالشدة تارةً هو والناس كي يدَعُوا المكان إلى أن ينقل الصاروخ إلى الموقع المقصود، ولا أذن تسمع..

عَفْرَتَنا خليلُ يومها، فاللطافة والسياسة والابتسامات مع الكلام بحكم مهنة السمسرة التي يزاولها بل وتحمُّل الإهانات في سبيل اللقمة، لا أثر لشيء من كل هذا؛ تهوُّر وجسارة وتصرفات لا معقولة، كاد أن يُجنَّ ولا أدري إن كان هذا لقلَّة إدراكه للخطر الذي يحيق بنا، أم لقُوَّى هيمنت عليه وتدفعه ولو للموت في سبيل ما يفعل..

وألقاه بعد الوقف الأول لإطلاق النار وعودة الهدوء نسبيًّا، فأجده خليل الطيب المنكسر الذي ينشُد السلامة وعلى الله وراء القرش ليُطعم أولاده، لكزني في صدري وكتفي وثنى ركبته ودفعني بها وأنا أحُول بينه وبين موقع الصاروخ، وهو الذي لم يكن يتجاسر على رفع عينيه في عيني عندما كنا نتعامل من قبل، وأعاتبه بابتسامٍ على ما فعل فيجيبني بأسف:

- حقَّك عليَّه يا باشا، بس دي بورسعيد أمِّي وأبويا وشرفي.

كان مسكينًا وجبارًا في الوقت ذاته..

مجرد أرْزُقي سنكوح في نظر كل الناس، غيرَ أنه في الحمية والأحاسيس يفوقُني أنا والعشرات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

25

وجاء الحقُ وزَهَقَ الباطل..

وهلَّت الفرحة، آه والله هلت..

ضحكت لنا الدنيا وشهرًا بعد شهر رجع الناس، وأصبحت الشوارع كشوارع القاهرة والإسكندرية وكل بلادنا في الدلتا والوادي، زحام في زحام والمقاهي والمَحالُّ والجوامع والكنائس متروسة حتى آخرها، وبعد أن كان فنجان القهوة في الچيانولا يأتيني في دقائق، يحتاج الآن ربع أو ثلث ساعة على الأقل بسبب الزحام والمقاعد المكتظَّة، ولا أستطيعُ التركيز في كتابٍ أو جريدةٍ في يدي من الحركة وعُلُوّ الصوت.

وتبدل حال العم بيتر، بالإيجاب والحمد لله وليس بالسلب، إطار نظارة جديد بدلًا من الإطار القديم وسلسلة على رُسْغه كالشباب (الخنافس)، والجميل في هذا الرجل الإيطالي/ المصري علامة النصر التي وضعها فوق الجيب العلوي للقميص، وأصبح يتكلم ويأخذ ويعطي معنا الآن بدلًا من لغة الإشارات، واللافت أيضًا وأثار انتباه روَّاد الچيانولا وابتساماتهم، أنه وهو العجوز الجهم المُعتدّ بنفسه أخذ يتصرف كما الأطفال، ظلَّ يرنُّ جرس صندوق الورنيش بلا توقف وهو يتنقل بين الموائد، وليس بغرض دعوة الناس لتنظيف أحذيتهم كان فرحانَ بالنصر وهذه هي وسيلته للتعبير، الشيء الوحيد الذي لم يَستطِعِ التخلص منه أنفه الذي يشمخ عاليًا والكلام الذي يخرج من بين شفتيه بعظمة، لا أُلْفَة ولا تناسق بالمرة بين هذه الشمخة وصندوق الورنيش، لكن ماذا تقول! هذا هو السِّنُيور بيتر ومن لا تعجبه هيئته ولا أفعاله يضرب رأسه في الحائط.

وخفَّ وزن تودري عدة كيلوات من الرَّمْح في الشوارع مع رجال المقاومة، وعيَّنُوا في المربع المخصص له جرسونًا جديدًا تحت التدريب، وهو غير مرتاح لهذا الدخيل وبين الحين والحين يُفهمه (بالمحسوس) بأنه (الريِّس) هنا والكلمة كلمته، ويرمقه من قريبٍ ومن بعيدٍ كلما تحصَّل على بقشيشٍ من أحد الزبائن، وعيناه ترصدانه وتحسبانه بالمِلّيم.

ورجع الحاج علام إلى قهوته (قهوة الفلاح)، تبهدل المسكين في الغربة لكن لك الحمد والشكر يا رب انكتب له الرجوع والجلوس من جديدٍ وراء منضدته العالية ذات الأدراج، أما خليل السمسار فلم يعُد له مَطرَح، ارتدى هدومه القديمة، الجلباب «أبو سُفْرة» والحذاء الكاوتش وفوقهما الخيزرانة وتسَنْكَح بها في السوق يُسَمْسِر ويَنصُب ويلعب من جديد على عباد الله، وإن كان الحاج علام لم يستغنِ عن خدماته نهائيًّا؛ كلفه بالإشراف على القهوة يومَي

الخميس والجمعة ليرتاح هو في البيت بعد أن طعن في السن، وكان هذا وبالًا على صبية القهوة، كَهْربَهم، زغد وشخط وأخرج فيهم شعوره بالضآلة وعُقَده النفسية، بصراحة افترى فيهم، وكل هذا وهم يقولون: أمرنا لله! البلوى التي لم يستطيعوا تحمُّلها وإن لم تكن لهم حيلة فيها المبدأ الجديد الذي خرج به عليهم، حقُّه في البقشيش، قاسَمهُم فيه، أصبح له الربع وهكذا بقلة الأدب والعافية، وعيناه عليهم ساعة الحساب والبقشيش كَمْ بالضبط ودخل أي جيب، لم يستطع أي صبي منهم الإفلات منه حتى ولو كانت نصاحته من نصاحة إبليس ذاته!

وعيَّنوا مأمورًا جديدًا لقسم العرب، رجل رباط حذائه فردة مربوطة والثانية على الدوام مفكوكة، الشمال، أظنه يعاني من (الكالّو) في هذه القدم، ويكبس الكاب على رأسه كبسةً ملفتةً! يتعامل معه كما لو أنه عمامة أو طاقية أو ربما لِبْدَة كالتي يرتديها إخوتُنا في الصعيد، لم أكن أشعر بالسعادة عندما أراه، يبدو في عيني كما لو أنه أحد الفارِّين من إحدى المعارك أو بائع جوافة أو جُمَّيْز ارتدى بذلةً عسكريةً ويقول إنه المأمور، ناهيك عن أنه لا طعم له ولا رائحة أو له عزوة بين الناس كالفقيد الغالي عزَّام بك المأمور السابق؛ وضعتُ مسافةً بيني وبينه، وبالأمتار وليس الأشبار، ولله في لله رغمَ أنَّي لم أتعامل معه من قبل، كان بالنسبة إليَّ أشبه بزوجِ الأُمِّ بعد أن مات الوالد!

ورجعت الست ماري ومعها نادية وأنا إلى الاستراحة، وفى اليوم التالي لوصولهما أبلغني تودري بأن نادية جاءت إليه وسألته عني، وبتلقائيَّة سألتُه أنا الآخر عن الضابط حسام، فقال:

- لا خِس ولا خبر من ساعة خَرْب.

وسألني:

- تشربي إيه كابتن؟

- قهوة، بس من إيدك إنت يا عم تودري مش من الواد العبيط اللي واقف معاك.

فربَّت على كتفي بابتسام:

- إنتي خِلْوَة يا كابتن، واخدة مخترمة، خالًا خالًا..

وهز رأسه بفرحة وانصرف بسرعة ليأتيني بالمطلوب، فيبدو أن تقديري للعِشْرة التي بيننا رفعت حالته المعنوية وأفهمته أنه تودري وليس أي أحد..

وعندما التقيتُ بالبُّوتة الجميلة نادية اندهشتُ مما طرأ عليها..

لا حُمْرَةً على الخدود ولا سيقان ولا استدارات والعيونُ انطفأت، انقطاع أخبار حسام عنها وتوجسُّها الشر من طول الغياب قطعًا هو السبب، وعلى أيَّة حال صارت بالنسبة إليَّ كالأخت لا الحبيبة ولا أي شيء مما كان في رأسي..

وصارت لمفاتنها حرمةٌ في عيني، وليس من يوم لقائي بالست ماري حسبما دار في ذهني من قبل، لا لا، بعدها، فيوم أن تعاركتُ أنا وهذه الست وكُنَّا أشبه بالدِّيَكة التي تَتناقَر لم يكن هذا من جرَّاء حسام، من جراء ثقافة مختلفة ومناكفات بسبب عدم تقبُّل كل منا للآخر، هي تقول وأنا أقول وجوهر الحديث ليس حسامًا بالمرة، فلا أنا متحمس له ولا هي تُبدي الرفض بسببه هو بالذات، وربما لو كان من دينها لرحبت به، حسام كان مظلومًا بيننا، تَكِئَةٌ يتَّكئُ عليها كل منا أثناء الجدال.

التبدُّل طرأ عليَّ أنا.

وفيما بعد وبالتدريج وليس دفعةً واحدة، والسبب اللحظات العنيفة التي عشناها أيام الحرب، ولا أقصد حرب الاستنزاف، حرب التحرير التي بدأت مع يوم 6 أكتوبر.

فكل يوم كنت إخالُ نفسي ميتًا هذه الساعة هذه الدقيقة أو اللحظة التي أنا فيها، ونسمع صافرات الإنذار ووراءها بقليلٍ أزيز الطائرات التي تهاجم، تكون بعيدةً عنَّا، إلا أن الأزيز ذاته كان يرعبنا وخاصةً أول يوم من أيام الحرب وربما الثاني أو الثالث وبعد ذلك تعوَّدنا، وكانت أقدامنا تندفع بأقصى سرعة وفي كل الاتجاهات، وربما نجري على رصيف أحد الشوارع ولمسافة ثم نتلفت حولنا ونرتدُّ عائدين إلى المكان الذي كنا فيه، كنا مُشتَّتين، خائفين، والعقل كما لو أنه شُلَّ شللًا خفيفًا أو في أدنى الحدود في حالة ارتباك..

والعيون مُستنفَرة، تتلفَّت وتحسب وتقيس بل وتجمع وتطرح وتضرب وتقسم، تُجري عملياتٍ حسابيةً من ثلاث أو أربع خطوات على الأقل وتحذر أصحابها من مَوَاطِن الخطر، ونشتمُّ رائحة بارود فنحسب أنها آتية من بناية أمامنا أو خلفنا أو في الشارع المجاور، وبأقدامنا المتعبة نطير بعيدًا عن مصدر هذه الرائحة، ثم يتبين لنا فيما بعد أنها كانت بعيدة، هناك على أطراف بورسعيد، عند كوبري الرِّسْوَة أو عند الجبَّانة أو ناحية زرائب القابوطي، الأنف هو الذي اُستُفزَّ لحظتها وأتى بأضعاف ما له من قدرة، صار كأنوف الدِّبَبة التي تلتقط الروائح من بُعْد أميال، أو الأصح أنه لم تكن هناك رائحة بارود من الأساس ونحن الذين توهَّمنا ذلك، ففي هذه اللحظات الصعبة لا مقاييس صحيحة ولا متزنة وقرون استشعار الخطر التي فينا تغذينا بما نتوقعه لا بما ندركه بالفعل، فلا خلايا عاقلة وراءها تُنقِّي وتُفلتِر، الخلايا إما مُجهدَة أو مرفوعة مؤقتًا من الخدمة.

وإذا اقتربت الطائرات فعلًا من رُءُوسنا يتضاعف الكرب، فالأزيز يصمُّ الأذن والألعن منه الصفير الذي تُحدثه القذائف التي تلقيها هذه الطائرات، قذائف لها رأس وبطن وذيل وصفيرُها زَوَمَانُه مخيف، ومن يرمي نفسه في مخبأ أو يتكوَّر وراء دُشْمة، والذي أسلم أمره لله وتقرفص في موضعه محيطًا رأسه بذراعيه، والذي يموت أو يُصاب ومن ينجو دون خدش لكن تبقى معه عاهة في النَّفْس، قد تمتد شهورًا أو سنواتٍ على حسب قدرته على التحمُّل ومتانة أعصابه.

وتشتعلُ السماء بصواريخ سام 6 وسام 7 أو تأتي طائرات لنا بسرعة كي تصدّ، فتهرب الطائرات الدخيلة ومنها ما يهوي محترقًا، وأقول ويقول غيري: شاءت إرادة الله ألَّا أكون ضمن من يرفعون بقاياهم الآن من بين الأنقاض، وربما الغارة التالية أو التي بعدها سوف أهلك..

فهكذا كان حالي وحال غيري من المدنيِّين العُزْل طوال أيام الحرب، الموت يُشاطرنا حياتنا، يأكل ويشرب معنا، أحبَّنا، أعجبته شوارعنا وبيوتنا حتى أولادنا الصغار أعجبوه ويودُّ اللعب معهم، اسْتملَحَنا اللعينُ وأنفاسُه تخالطُ أنفاسنا صباح مساء..

وما المُحصِّلة..؟

من طول عشرتك للموت ولكُلِّ خَصَّةٍ من خضاته تغدو إنسانًا آخر غير الإنسان الذي يعيش فيك وخلاياه هي خلاياك..

إنسان هو هو الطول والعرض ونبرة الصوت وكل ما يرى منك ويسمع، الجوهر، القلب، النَّفْس، أو سمِّه بالاسم الذي تراه، فذلك الشيء أو تلك النطفة التي بداخل الداخل وشفراتها ليست طَوْعَ أمرك هي التي تتبدل وتأتي بما يخالف نواميس الحياة، ولا تعودُ تنظرُ للموت بمنظار الرجل المعتاد، تستخفُّ به، فكلما بغى عليك قلَّ في قلبك الخوف وتجرَّأت عليه أنت الآخر، وليس في الأمر معادلة بقدر ما أن هذه هي النَفْس: كلما انكشف الشيء المغلق عليها قلَّت مهابته، فإذا عاشرتَ الشديدَ المؤذي الذي يقتلُ ببساطةٍ كبساطةِ عَقْدِك لرباط حذائك أو لخطوةٍ تخطوها وأنت تسير، وإذا رآك ورأيته طوال الوقت.. وإذا.. وإذا.. جرده الاعتياد في عينيك من صفاته التي يخشاها غيرك، وأصبحت تستهين، وقد تنتابُك بعض الجسارة..

جسارة ليست من صنعك ولا لإرادتك كلمة عليها، الانفعالات والهرمونات والإفرازات التي تُفرز فيك وأنت لا تشعر هي أمها وأبوها وليس أنت، وعمرها كعمر الفراشات، ومقرون بلحظات الانفعال، تأتي معها وتئوب بإيابها، كخليل السمسار يوم واقعة الصاروخ، فجسارتُه يومها وإن كانت محسوبةً بعض

الشيء إلا أنها تخطّت إمكاناته، فاقتها بمشاوير، ثم عاد وأصبح خليل (القديم)، التافه المسكين الذي يخشى من زَوَمَانِ كلبٍ في وجهه وهو راجع ليلًا إلى بيته، أو نظرة من شاويش أو مخبر أو حتى عسكري بشريطة واحدة على ذراعه.

أو قد يُصيبك ما هو أكثر..

الجسارةُ كلها وليس بعضها، الجسارة بمعناها الكامل الوافي غير المنقوص، كالجندي ابن الخمس والعشرين سنة الذي بكيناه كلنا..

عجز هذا الفتى هو ورفاقُه عن اقتحام أحد المواقع الحصينة بخط بارليف يوم السابع أو الثامن من أكتوبر لا أتذكر بالضبط، ومات منه بعض رفاقِه بسبب النيران الكثيفة التي تخرج من (مزْغَل)[15] منصوب بهذا الموقع، فهمس للباقين بأن يكمنوا في مواضعهم وزحف وتسلل هو حتى وصل إلى هذا المزغل وسد فَوَّهته بجسده..

تلقى ليس عشرات الطلقات بل المئات من ماسورة المدفع الخارجة منه، وظلَّ منصوبًا عليه حتى بعد أن مات..

ظل الجسد الميت مكفيًّا على المزغل والطلقات تجوس فيه، إلى أن تمكن رفاقه من الالتفاف والسيطرة على الموقع ومن فيه.

فعلٌ لا يحدثُ ولو من شخصٍ مجنون..

فالمجنونُ به قدرٌ من العقل أو ربما من الغريزة يحُول دون إهلاك نفسه، أكثر أذاه على الغير وليس على نفسه..

إنما هي اللحظات الحرجة..

لحظات الأنفعال التي تعمل بغير قوانين الإنسان، بقوانين تخصُّها وحدها ومن المستحيل كبحها إذا ما وصلت لذروتها، فلم يكن ليفعل هذا الفتى ما فعل لو لم يدخل في هذه الدائرة ويُذعن للأحاسيس التي ولَّدها وهج الانفعال، الأحاسيس التي تغدو آلهةً صغيرةً تأمر وتنهَى وتسيطر، بل وتدفع صاحبها للإلقاء بنفسه في النار حتى ولو أمامه خيارات أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

26

ولا تأتي هذه اللحظات دومًا بالإيجاب، أحيانًا بالسلب..

باختلال ولوثة كالتي أصابت زميلًا لنا، فقد جاءنا مندوب صرف الرواتب وكان صولًا من الصولات العواجيز اسمه (إمام)، دخل علينا المخبأ الذي عشنا فيه طوال أيام القتال، من 6 أكتوبر إلى نهاية الأسبوع الأول من شهر نوڤمبر الذي يليه، بدروم في بناية خالية من السكان بشارع صلاح سالم، وقد اقتصر علينا فقط نحن ضباط وصولات وعساكر شرطة النجدة والاتصالات اللاسلكية، ونقلنا إليه سائر متاعنا وسواء الخاص بالعمل أم الإعاشة..

تهادى الصول إمام يومها داخلًا علينا وبيده حقيبتُه الجلدية، حقيبة الخيرات والفلوس التي تَرِد إلينا من مديرية الأمن كل شهر، فلم نكن سمعنا وقتها عن النَّت والكمبيوتر وأن مستحقاتنا المالية يمكن أن تحوَّل إلى البنوك وتُودع في الحسابات كما هو حاصل الآن.

المهم أننا بدأنا في تسلُّم مستحقاتنا، وهذا الزميل (صاحب اللَّوْثة) يجلس على عدة أجولة من الرمل مما كنا نَتَّخذها كسواتر لنا أثناء الغارات، ومشغول بدغدغة شفتيه بأسنانه ومتابعة حضرة الصول بنظرات غريبة وأكثرُنا لا يلاحظ.

ومَنِ الذي يلاحظ!

زحام وثرثرة وفلوس تُوزع، واحد أو اثنان هما اللذان لاحظا غير أنهما لم يؤوِّلا نظراته على نحو سلبي وأن وراء الأكمَةِ ما وراءها؛ خاصة وأن زميلنا هذا كان (في حالهِ) لا يتكلمُ ولا يكحُّ أو حتى يعطس..

فماذا فعل هذا الذي في حالهِ عندما ناداه الصول إمام ليتقدم ويتسلَّم ما يخصُّه؟

لم يأتِ له من الأمام مثلنا، جاءه من الخلف، وكان الصول إمام لحظتها واقفًا ومشغولًا بتجنيب الفكَّة التي تركناها له، قروش وأنصاف قروش على أوراق نقدية من الفئات الصغيرة ذات القروش الخمسة والعشرة، على خمس أو ست ورقات من أرباع الجنيهات، ومنا من لم تكُنْ تفرِق معه الفلوس بتاتًا ويدَعُ له ورقةً بخمسين قرشًا بحالها.

كنا نتعفَّف عن هذه الزيادات وكل ما هو من فئة (كسر الجنيه) ونتركها له رأفةً بحاله، والرجل يدفعها بحافة يده جانبًا والفرحةُ تنطُّ من عينيه، فالراتب ضعيف وأربعة أولاد في المدارس والشحط ابنه (البِكْريّ) كان نَطْعًا، يأكل ويشرب ويغسل هدومه في البيت دون أن يساعد في المعيشة بمِلّيم واحدٍ

من مهنة النجارة التي امتهنها، والبنت التي تزوجت على وشك الولادةً، في الثامن، وتتوقَّعُ منه قائمةً طويلةً من الطلبات، خمسة أو ستة أزواج من الفَرُّوج على الشَّرْبات والمُغَات وأجر الحكيمة والوهبة والنقوط، وحسبة شهر على الأقل تقعَّده معهم هي والمولود وأبو المولود لو أمكن والمطرح (ضيق) والحالة لا تسُرّ..

ناهيك عن الأمراض التي ركبت ظهره ومنها المزمن، وبالذات الكَبِد، تلفان، وإن كان هذا الأمر لم يكن يشغله كثيرًا وعلى الله فيه، حقنة ببلاش في المستشفى الأميري كلما جاءته النوبة على كيس سفوف أو برشامة أو قرص نوڤالچين، علاجات بملاليم إذا شعر بغَثَيان أو انبطَّ في مطرحه من كَسلِ الكَبِد، ويتناولها دون مشورة حكيم، بنصائح ووصفات من زميلٍ في الشغل أو جارٍ أو صاحبٍ يقعد معه على القهوة والله الشافي المُعافِي بعدها!

البلوة في العيال وأُمّ العيال المُهجَّرين في بلدةٍ بزمام مركز فارسكور، يرسل لهم راتبه كله، لا يستبقي منه سوى ثلاثة جنيهات، وعلى الله أيضًا في اللقمة التي هنا، مقدور عليها، فلن يبات أحد أبدًا بدون عشاء، فهذه هي فلسفته في الحياة ولولاها ما عاش ولا استمر..

الرجل فعلًا مأساة ومكتوب عليه الشقاء إلى أن يموت، وزميلنا المحترم الذي لا يكُحُّ أو حتى يعطس ليس في حساباته أي شيء من كل هذا، فاجأه وفاجأنا كلنا بأن (عَبَطَهُ) من الخلف العبطة التي نعبطها عادةً للنشالين ومن يتحرَّشُون بالنسوة وأرباب السوابق وكل هذه الأشكال الضالَّة، لفَّ يده بحركةٍ فجائيَّةٍ على رقبته مثلما يفعلون في حلبات المصارعة، شلَّ حركته تقريبًا وبدأ في الزَّغْد والشخط فيه بأن يعترف وإلَّا: ها..

ومعنى (ها) هذه مزيد من الضغط على الحنجرة، والعم إمام ليس في حالة ذهول فقط، صدمة، ولا يستطيع الالتفات إلى الوراء والتكلُّم مع الزميل، رقبته تحت الحصار ولا يُبدي أية مقاومة، تركها له يتصرف فيها كما يشاء خوفًا من أن يقاوم وتنكسر في يده، وطفق يكلمنا نحن، فنحن الذين كنا في مواجهته والكلام طبعًا ليس لنا، للزميل الذي يَعبُط من الخلف.

أول جملة نطق بها وبصوتٍ خرج بصعوبة:

- إيه! إيه! أعترف بأيه يا شريف بيه؟

ثم بصوتٍ (مضبوح) من ضغطةٍ جديدةٍ على الحنجرة:

- ميصحِّش كده! أنا مش حمل الكلام ده..

ويستعطف:

- دا أنا عمك إمام! إنت مش واخد بالك وللا إيه، لا حول الله..!

والزميل:

- أيوه تعترف يا صهيوني يا جبان، إنت فاكر إنك هتضحك عليَّه أنا راخر.

والعم إمام:

- صهيوني؟ صهيوني مين!

ولم نسمع بقية كلامه واضحًا، ألهانا عنها الجعير الذي استهله الزميل قائلًا:

- طبّ دول شوية حيوانات..

يقصدنا طبعًا! وهل يوجد في المخبأ غيرنا..

واستمر:

- اللي منهم معزة واللي بهيمة وللا خروف وينضحك عليهم وعلى اللي جابوهم، إنما أنا يا خسيس..

ونحن في حالةِ بغتةٍ وكُلٌّ منا على وجهه ردةُ فعلٍ مختلفة، غضب، استنكار، دهشة، والذي لا يصدق أو حتى استوعب، أما أنا فهمستُ للأذن التي بجواري متسائلًا عن هذا الذي يجري، وصاحب هذه الأذن يُجيبني بهمسةٍ مثلها: بأنه يعتقد..

ولم يكمل بقية عبارته ولا عرفت ما الذي يعتقده..

وانتبه لنا الزميل وجاءت عيناه في عينينا فشعرنا بالخطر، انخرصنا أنا والأذن ووقفنا مؤدبين، ثم عدَّة همهمات، ليست منا والله من آخرين، ومَنْ دماؤه حارَّة: عبد الرءُوف! وهو مصيبة من المصائب، دائم الشِّجار ولو مع ذبابة وقفت على طرف أذنه لمجرد أن تستريح، يظل يطاردها من غرفة إلى غرفة ولا مانع من أن يخرج وراءها إلى الشارع، انفعل هذا العبد الرءُوف وصاح في الزميل بأن يكفَّ عن هذه التجاوزات ويحترم نفسه، لم يفعل هذا الهُمام أكثر من ذلك سكت بعدها مثلما سكتنا أنا والأذن..

وواحد (طِحْش) والزرار الأوسط لسترته مقطوع من عند البطن تقدم بغضب، فقلنا: آه.. عمارة! عبد الرءُوف هذا فاشل ومهياص، عمارة هو الذي سيوقف الزميل عند حدِّه، من الكفار ولا يعرف أمه ولا أباه كما أن قبضة يده أعوذ بالله منها، ضربتها تضاهي ركلة الفَرَس! خذلنا هذا الغضنفر أيضًا، تقدم خطوتين ووقف، حسبها في رأسه على ما أظن وكأنما أقنعته نفسه بأن كل

هذه الشتائم وهذه البهدلة في حق الجميع ولست وحدك المقصود بها، فلماذا أنت بالذات يا عمارة الذي تتهوَّر و(تعفق) قليل الأدب هذا من رقبته! ولو مات في يدك، وهذا شيء أكيد: قل لي ماذا تفعل؟ سوف تدخل في سين وجيم والكل يتفرج عليك بعدها، توقف توقف يا خفيف، أنسيت أن لك أربعة محاضر (استعمال قسوة) لم يُبتَّ فيها بعد، أتودُّ أن تضع بلوةً جديدةً فوق البلاوي التي عندك..

ردود أفعالنا هذه كلها كانت مجرد زوبعة في فنجان..

تلاشت على الفور أول ما مدَّ الزميل يده إلى الطبنجة التي تحيط بخصره، أفهمتنا هذه الحركة بأنه لا يهزل وعقد العزم فعلًا على التصدِّي بالسلاح لأي تصرف أحمق من أيِّ واحد منا، فتوقفنا في مطارحنا، بصراحة كششنا، ويبدو أن خوفنا وكَشَّتنا هذه أراحته بعض الشيء وخفَّفت من عدائيته نحونا، وطفق يكلمنا بلهجةٍ أفضلَ قليلًا وأنه لا يريد إيذاءَنا لأن مشكلته ليست معنا، مع شلومو بن شاحال..

ونحن نهمهم ونتساءل عن ابن شاحال هذا! مَنْ يكون؟

فرفع يدَ العَمِّ إمام عاليًا، وقال: إنه هذا الكلب البلدي العجوز الذي يقف أمامكم! من ثلاث سنوات وهو مُجنَّد في جيش الدفاع الإسرائيلي وأنتم لا تشعرون، طوال هذه السنوات وهو يخدعُنا ويُسرِّب أخبارنا للعدوّ.

والعم إمام:

- شلومو مين وابن شاحال مين يا شريف بيه..؟

ويضيفُ بنبرةٍ قليلًا ما نسمعُها من رجلٍ من الرجال، من أنثى ممكن، نبرة فيها كل المقامات الموسيقية ذات الشجن، فكما لو أنه يتضرع ويتمسكن ويُهيل التراب على رأسه، وكل هذا في توليفةٍ واحدة:

- دا أنا راجل غلبان.. عدمان.. هلكان.. تصدق بالله إني لسه على لحم بطني من أول النهار.

وتتلوَّن نبرةُ صوتِه بنغمةٍ جديدة:

- رَوَّق رَوَّق كده وصلِّي على النبي..

والزميل لا يأبه..

ولاحظت أن عينيه انصرفتا عنا وحتى عن العم إمام وبدأتا في التركيز على أكبرنا رتبة، ضابط بنسر ونجمة وفي النصاحة كما القرود، كان يمرُّ علينا

مصادفةً ومن حظَه العاثر أننا أمسكنا فيه ليتناول الشاي معنا، مجرد ضيف ولا له في (الطُّور ولا الطحين)..

عرفنا السبب فيما بعد..

فمن أول لحظة وهذا النسر والنجمة يتجاوب معه، يومئ له باستحسان بأن كلامه في محله وصح الصح، فهمها هذا الناصح قبلنا، التقطها بسرعة وعرف أن زميلنا في حالة هلوسة، وطفق يلاعبه بهذه الإيماءات والنظرات إلى أن يدَعَنا ويدعَ عُشَّ المجانين هذا ويُفلت من هنا.

وعشر دقائق بعدها والحال هو الحال..

ما بين توتر، توتر! توتر ماذا؟

عفوًا عفوًا، أخطأت في التعبير، فكلمة (توتر) في الموقف الذي كنا فيه كلمة مؤدبة، بنت ناس ولا تفي أبدًا بالغرض، كنا في هَبْد ورَزْع وقلة أدب وأنين على وجه العم إمام مما يحدث له، والرجل اللهم احفظنا يارب، أظنُّه بالَ على نفسه، وهذا أقل شيء يفعله، وأدركنا نحن أنه لا سبيل أمامنا إلا مهاودة هذا الزميل والاقتراب منه، ولكن بحذر، بالسنتي وليس بالخطوة، ونُهدِّئ منه ونحايله ونؤكد له بأننا فهمنا اللعبة التي يلعبها علينا ابن شاحال، والله كشفناها! فالزميل كان في حالة مزرية فعلًا، هياج عنيف أو ما يسمونه بهيستريا الحرب، ومعروف أنها تحدث في هذه الظروف وخاصة بين رجال الجيش في ميادين القتال، وقد يقتلُ أحدُهم الآخرَ بزعمٍ كاذبٍ أثناء هذه النوبات، وهذا الكلام صال وجال فيه علماء النفس ومسجل وموثق في الكتب.

ظللنا نقتربُ منه وكُلٌّ منا محتاطٌ لنفسه..

يخشى أن يتهور عليه الزميل ويفقأ له عينًا أو يقضم له أنفًا أو أي شيء ليس في البال، والغريب أن السخونة التي كان فيها خفَّت حدَّتُها بعد هذه الدقائق العشر..

الأمر كله ومن أوله لآخره لم يتجاوز نصف الساعة ثاب بعدها إلى رشده وإن لم تكن ثوبته كاملة، فقد أدى التحية العسكرية للنسر والنجمة مُعْلمًا إيَّاه بأنه أنهى العملية بنجاح، أهلك ثلاثة جنود من الأعداء وأسر الرابع، وأشار إلى العم إمام على أنه الأسير، أما الإسرائيلي الخامس وللأسف أفلت منه، والنسر والنجمة في حالة ارتباك لكنه تصرف، ردَّ له التحية بأحسنَ منها وشكره على الجهود التي قدمها للوطن، ويبدو أنه أخذته الجلالة هو الآخر واندمج في هذا المشهد، إذ أنَّب زميلنا الشاطح على هذا الإسرائيلي الذي أفلت، والزميلُ

يعتذرُ وأنها لن تتكرر منه مرة ثانية، والنسر والنجمة لا يعرف ما الذي يفعله بعد ذلك، ارتبك مرةً ثانيةً وتصرف أيضًا كالمرة السابقة، تقدم عدة خطوات إلى الأمام وربَّت على كتف الزميل قائلًا: أحسنت أحسنت! انصراف، وأسرع خارجًا من مخبئنا اللعين وهو يلعن خاشنا وخاش آبائنا وكوب الشاي الذي طفحه عندنا..

وأخذنا نحن العم إمام في أيدينا وخرجنا به من المخبأ، والزميل يرمقنا بتحفُّزٍ ونحن نقول له: اهدأ.. اهدأ.. نحن ذاهبون به إلى الباشا الحكمدار وسوف نسلمه له يدًا بيد، فوافق بإيماءَةٍ من رأسه، وطفقنا نتأسَّف ونعتذر لهذا الغلبان الذي معنا إلى أن أوصلناه إلى البوكس الذي أتي به وهو يتحسَّسُ عنقه والخرابيش التي فيها، وكان جمعٌ من العساكر لم يتحصَّلوا بعد على مستحقاتهم، أسرعوا وراءنا يسألونه تسليمهم إيَّاها وهو لا يزال تحت تأثير الخَضَّة، صاح فيهم بعصبية:

- ياخويا اتلهي منَّك لُه وسيبوني في حالي..

وبغير تركيز يتطلَّع في وجوهنا قائلًا:

- والله مانا عارف إيه دا اللي بيجرالي، دي تاني عَمْلَة تتعمل فيَّه، برضه ديك النهار قابلني واحد...

ويحاول تذكُّر مَنْ هذا الواحد وأين التقيا والذي حدث بينهما بالضبط، ولبثنا نحن صامتين إلى أن يستكمل عملية التذكر، لم يتذكَّر وأشاح بيده:

- الله يِجْحمُه بقى، عضِّني في كتفي وكده من الباب للطاق.

ويبتسم:

- والأكاده إنه راخر افتكرني طابور خامس!

وطفق ينظر في المرآة الخارجية للبوكس مدققًا في تقاطيع وجهه، فما الذي فيها يا رب ويغري الناس على تصنيفه في خانة العملاء!

أكيد طرح هذا السؤال على نفسه، عيناه قالتا ذلك..

ومسكين الزميل الذي بهدلنا، جاءت له مجموعة من الضباط الأشاوس ومعهم طبيب بنظارة على عينيه وممرض كهل ببالطو أبيض وعلى رأسه طاقية من نفس اللون، لم يستخدموا معه الشدة، كانوا حذرين، لا يعرفون مستوى الهلوسة التي وصل إليها، فالواحد منا والعياذ بالله إذا جُنَّ يمكنه الفتك بثلاثة أشخاص بكل سهولة، هذا ما عرفناه منهم فيما بعد..

أخذوه باللَينِ والسياسةِ وطاروا به إلى مصر لتلقِّي العلاج..

كان الله في عونه وملعونة الحرب والشدائد الكبيرة، تُخرج من الإنسان أحسن ما فيه وأيضًا ما لا يجيء على البال..

لم يرجع لنا هذا الزميل بعد هذه الفعلة ولا سمعنا بما جرى له، وفي اعتقادي أنه ما عاد يصلح بعد ذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

هؤلاء الذين صادفتُهم أيام الحرب كانوا أبناء اللحظات الصعبة..

وقليلين، يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة..

الفتى الذي أغلق بجسده فوهة أحد مزاغل خط بارليـف، والذي أودت به لوثة كما جرى لزميلنا الذي أخذوه في سيارة إسعاف إلى مصر، أو تبدُّل في الشخصية والسلوك ولو لبضع ساعات كخليل السمسار.

أما أنا فلم يحدث لي شيءٌ من هذا، كل ما أصابني تبكيت في تبكيت في إيلام وإن كان على نحوٍّ أشدَّ من الركل والصفع، حالة أشبه بتطهير الذات بتطبيب بقع وخدوش بالنَّفْس، وقد لازمتني طوال أيام القتال وخاصة بعد موقف أفلتُّ فيه من كفِّ الموت أو كنتُ على شفا إصابةٍ تقصم الظَّهْر..

كنتُ كمَنْ هم في الجنازات وعيونهم ترنو إلى الموت الراقد في النعش الذي يسيرون خلفه، ذكَّرهم بالحساب الكبير فأخذوا يتلاومون بينهم وبين أنفسهم، وكانت عيناي تغربان وأراجع نفسي عن أفعال استوطنت الذاكرة في غفلةٍ مني، وتطلُّ وتنهشُ كالأمراض التي تنهش كلما ضعفت مناعة الجسد، وأتمنى أن ترحل ولا ترحل وإن رحلت ما تلبث أن تعود..

أفعال صحيح صغيرة، لكن من قال إن الصغير لا يُحسب له حساب، فطلقة الرصاص على ضآلتها قادرة على أن تُنيخَ جَملًا وتمدده فوق الأرض، وأظلُّ أقول في نَفْسي: في يوم كذا فعلت كذا وفي اليوم الفلاني كذا وكذا، وهَلُمَّ جرًّا على خياباتٍ فعلتُها أو نطقتُها بلساني، ويصيرُ حالي حالَ من يصارع أطيافًا لها بيوتٌ في الذاكرة ولن يجيئني منها صفحٌ إلا بصعوبة.

فالمرأة ذات الأحمر العنيف على الشفاه التي تعاملت معها أحد أيام قسم العرب، صاحبة الفستان ناقص الأكمام وتدويرة ذيل تكشف عن جزء ليس بالهيِّن من الفَخِذ، وضحكات في ضحكات كلها دعوات وسخاءات..

لاح لي طيف هذه المرأة أكثر من مرة..

يكون اليوم الذي مررتُ به شاقًّا من قصفٍ فوق الرُّءُوس وقتلى وجرحى، ومع منتصف الليل أتهيأ للنوم بالمخبأ وتأتيني هي بالهيئة التي كانت عليها قبل أكثر من عامين وأخطأتُ في حقها، لا تأتي وحدها، في إطار المشهد الذي وقع بيننا ذاك اليوم، غرفة النوبتجية بمحتوياتها كافة وجلستها ساقًا فوق ساق وأنا وراء مكتبي وأتحرك نحوها، ومن كانوا في النوبتجية هذه الساعة وينظرون..

وكل هذا وقع بالفعل، فالخيال لم يتجاوز بَعدُ، ما زال ينقل من الذاكرة وأمينًا في العرض بلا زيادة أو نقصان..

لم يشرع في الملاوعة والكذب إلا عندما حرَّضته غُدَدُ اللوم والتبكيت، تجاوب معها هذا المتآمر وأضاف رتوشًا وزيادات من عنده، صوَّرها لي وأنا مُمدَّدٌ فوق السرير السِّفري بالمخبأ وهي تقف خَجْلَى وتلملم فستانها، وهذا لم يحدث! والله لم يحدث!

ثم وهي ترمقني بنظرةٍ منكسرةٍ وتشرُع في البكاء، وأيضًا لم يحدث!

وصوتٌ أخذ في التعنيف والزجر، وأول سؤال: ما هذا الذي فعلتَهُ يا أحمق؟!

كانت تتدلَّل، تودُّ إنشاءَ علاقة، وما الذي في هذا؟

فبعض النسوة اللائي يترددن على محل عملك فارغات العين وأنت تعلم ذلك، والمحمود ساعتها لو أنك مررت وغضضت الطرف، ازجرها يا أخي الزجر الخفيف وكفى، لا أن تقذفها بالكلمة التي قلتها وأمام الناس، كسفتها، وامرأة كهذه وجهها (مكشوف) وتنكسف هذه الكسفة فلا معنى سوى أن هذه الشتيمة ثقيلة وبها من الفُحْش ما هو أكثرُ من الفحش الذي تصورت أنها فعلته، غلظةٌ منك وهبوطٌ يوجعان حتى الفالتاتِ من النسوة..

وكأن هذا الذي يتكلم عصاه مرفوعة في وجهي، ويتأهَّب لاستخدامها:

- من أنت يابْنَ فلانة وفلان!

سنكوح بنجمة من صفيح فوق كتفه، ولولاها وأنك في عُقْر دارك لبهدلتك، افعلها مرةً وأنت بلا كاب ولا نجوم، تجرَّأ وافعلها في طريقٍ أو شارعٍ أو زُقاق مع امرأةٍ أشدَّ منها فَلَتانًا أو حتى مع امرأةٍ (مضروبة) والتعامل معها بالأجر، والله لنزلت فوق رأسك بما في قدميها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفلان الكبير في السن..

والذي كان من عمر جدِّك تقريبًا، جدك الرجل الكَرْكُوب وعلى الدوام في الفراش، وليرضى ويرتاح تعاملونه معاملة الأطفال..

بسبب شكوى من إحدى الجارات استدعيتُ هذا الهَرِم، فجاءك وفي يده حفيده ليدلَّه على الطريق، وقبل أن أستفيضَ لا بُدَّ هنا من (نقطةٍ نظام)، فأنا معك في أنه ورغم سِنِّه المتأخرة كان هلَّاسًا، ومتعاجبًا بنفسه وبشعره

المصبوغ والبذلة الشركسكين التي يرتديها وتتدلّى من عروتها قرنفلة صغيرة..

لكن ماذا فعلت أنت معه..؟

بعد أخذٍ وردٍّ شخطتَ فيه وليس مرة عدة مرات، ودفعتَهُ بيدك..

مجرد شخطات دون غلطٍ في الأم والأب أو الصفات، والدَّفْعَة نعم خفيفة، لكنها وبأي مقياس تُعد إهانة..

لم يفعل الولد الذي يصحبه سوى أن رمقك بعينيه ثم هبط بهما صوب الأرض، جَدُّه، أبو الأب وسيد من أسياد الكون بالنسبة له..

الرمقة لم تأخذ حيِّـزًا من الزمن، خفقة جَفْن، ولا لها وزن ولا قوة ولا حول غير أنها تقتل..

أقوى منك ومن الجند الذين حولك، فهؤلاء الطوال العرض ذوي الشوارب والأيدي الغليظة قادرون على مساندتك حيال قتلة ومجرمين وعصابات، لكن مع هذه الرمقة لا أظن..

لا حيلة لهم..

يخسرون..

أمضى منهم ومنك، قوتها في أن الله فيها! كسرتها وعجزها عن الذَّود عن الجَدِّ الذي أهين هي السلاح، وإلا لماذا بقيَتْ معك طوال هذا الوقت وتجلدك كمن يُجلد بالسوط..!

ولد رأسه يصل إلى منتصف صدرك بالكاد وبقدمه صندلٌ لا يزيدُ ثمنُه على ثلاثة جنيهات، ومع هذا كنت ضئيلًا أمامه..

غلبك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذاكرة فعلًا مخلوق من المخلوقات ذات العزم..

وفي سرعة الحركة لا يباريها شيء، لا طائرة ولا سفينة فضاء، فالزمن الذي تقضيه هذه الأخيرة من كوكبٍ إلى كوكبٍ يقف خَجُولًا أمام طرفة العين التي تطوي هي فيه السنين وتأتينا بما نحسب أنه انتهى وفات..

فقد كنت في أحد الأيام التي أتكلم عنها أقف بين مُخلّفاتِ غارةٍ أصابت شارعًا من شوارع حي العرب، شارع الشهيد (نبيل منصور)، واشتد ألمي على طفل بالذات من بين الضحايا، كان مُمدَّدًا على أحد الأرصفة ويداه تحيطان برأسه وقد فارق الحياة، مات من لحظة خوف، سقط وهو يجري خائفًا من صراخ الطائرات واصطدم رأسُه بحافَّة الرصيف، قتله الفاجر ذو النظارة الرِّيبَان الذي يحلق في الأعلى وشاركه الفعلَ رصيفٌ أعمى بغير قلب..

يدي بيد رجال الإنقاذ وهم يحملونه، رأسه مُدلَّى ويتحرك مع حركة أيديهم وكذلك الحذاء الذي في قدميه، وساعة من ساعات الأطفال مزينة برسم لميكي ماوس كادت تُفلت من معصمه ففكوها ووضعوها بالجيب العلوي للقميص..

وبعدها، ليس بوقتٍ طويل، في مساء هذا النهار بالضبط، تشدُّني الذاكرة من أذني وهي تشير إلى الضيف الذي يطرق عليَّ الباب...

(مصطفى) ابن السنوات السبع أو الثماني، ببنطاله القصير والنظارة الطبية التي وضعوها على عينيه لعلاج الحَوَلِ الذي أصاب العين الشمال، لو كان عاش هذا الصغير مثلما عشتُ ما كان طبعًا بهذه الهيئة، لنحلت عنقه وتقوَّس ظهره وفقدَ السمعُ طزاجتَه مثلما أنا الآن.

كان جاري في السكن..

البيت ملاصق للبيت والأب صديق للأب، والأُمَّان، أُمُّه وأُمِّي كالسمن على العسل، وذات يوم تخاصمنا، هو المخطئ وسبب الخصام وأنا ركبني العناد، يتوسَّل ويدعو للصلح وأنا لا أستجيب، لم تمضِ أيام وماتَ ميتةً قريبةً من ميتة ولد الرصيف، دَهَسَتُه مَرْكَبة..

رعشةٌ تسري فيَّ الآن وأنا مُستلقٍ فوق سرير المخبأ وكأنما الدهسة التي اندهسها تدكُّ عظامي أنا الآخر، والصوت الذي نبرتُه كشرارات الكهرباء يتهمُ ويقولُ بأني الفاعل ولا أفرق كثيرًا عمَّن كان يحلق في السماء وسفك دماء ولد الرصيف هذا الصباح، وأن مصطفى الذي مات من خمس عشرة سنة ما كان سيموت لولاك! كان يترنَّح في الطريق زعلانَ أَسِفًا بسببك، ولو تجاوبت ما كان حدث الذي حدث..

وتبكيت في تبكيت..

والغريب أن هذا اللوم والتبكيت، وسواءً على هذا الحادث البعيد أم غيره مما ذكرت أو لم أذكر، خفَّت حدَّتُه وإلى ما يقرب من الصفر بعد الفراغ من أيام

القتال وعودة الناس والفرحة والضحك، فالأيام الشديدة شديدة في كل شيء، حتى على المشاعر وحساب النَّفْس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونادية.. فكَمْ من نزهةٍ في عالم السؤال بسببها..

جُلْتُ فيها، ولكن بأي عين؟ عين ذئب؟ أم عين قط أليف ينشُد الحب والستر..

وحسام وثق فيك، وأنت ماذا قدمت؟ تماهيت؟ أم سخرْتَ وناصَبْتَهُ العداء..

أظنُّ أن رغبة العداء ماتت في قلبك، لكن بعد ماذا؟ بعد أن مات هو أم قبلها..

وأظن أيضًا أن نادية لم تعُد تشغلك، فهل أتى ذلك بإرادتك، أم لعزوفها عنك..؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

قلتُ قبلَ قليلٍ إن نادية كانت ترغب في لقائي..

وفعلًا التقينا غير أنها لم تشأ الجلوس بالچيانولا أو أي مقهى أخرى، فضَّلت الابتعاد عن الحركة والناس وأن نتمشَّى على شاطئ البحر فذهبنا إلى حيث تريد، قرص الشمس كان معنا هو الآخر وإن لم تكن لرفقته أي معنى، فلا شعاع ولا بريق ولا دفء، قرصٌ أحمرُ دامٍ يموتُ ببطء وهمسة ولا نراه، والدنيا تقريبًا بلون الرَّماد فالوقت لم يعُد نهارًا والليل لم يتأكَّد بعد، وهي إلى جواري بخُطى ضعيفة وقلب مهموم.

الدنيا غالبًا ما تكون أكثر طِيبةً ووداعةً في هذا الوقت عن باقي النهار، ونسمات مُعبَّأة باليود ورائحة البحر التي يحبها كل من يعيش في السواحل، وأطفال بأيدي أمهاتهم أو فُرادى ويأتون بأفعالِ بريئةٍ تبعثُ على السعادة أو على الأقل تُمهِّد لها، الجو في المجمل كان مبهجًا ولا تأثير لكل هذا عليها، وعندما أضاءت مصابيح الشاطئ هلَّل لها صبيةٌ صغارٌ يلهون بدرَّاجات هوائية، فطفقتُ أتابعُ تهليلهم بابتسامٍ أما هي فلا..

كآبـةٌ تخيِّمُ عليها، والبلوزة السوداء المزمومة من عند العنق ومعها الإيشارب الغامق يقولان إنها ليست فرحانة، ولعلها شعرت بأنها ربما تكون ثقيلة عليَّ وعلى المشهد الذي نحن فيه، فكانت تداري انفعالاتها وتحاول الابتسام غير أنها كانت تفشل، الوجه غير متجاوب والابتسامات بالغصب، والشفتان بلا دهان أو أي اهتمام وتقولان بأن حسامًا راح في الحرب ولن تراه بعد الآن، وتسألني وبوادر دمعة على جفنيها أن أساندها في هذا المأزق، تريد أن تعرف إن كان حيًّا وسوف يعود أم لن يعود وهذه ورطة بالنسبة إليها، أتت كلمة (وَرْطَة) هذه في زَلَّةِ لسانٍ ولم أنتبه أنا لها لحظتها الانتباه الواجب.

أربِّتُ على يدها بتعاطف فترمقني بنظرةٍ ما بين الرفض والاستغراب، وتسحب يدها بسرعة كأنما خيانة منها أن تدعَ يدها في يدِ رجلٍ آخر غير حسام، رغم أنِّي لم أقصد وكنت أحاول تطييب خاطرها لا غرضًا آخر، وأتجاوز عن هذا الاضطراب أو ربما الحساسية المبالغ فيها، وأسألها عمَّا حدث بعد زيارتي الأخيرة لهم فتقتصد في الإجابة، وإن كانت قد قالت بعد برهة وبصوتٍ خافت:

- ماما.. الله يسامحها بقى.

وأسألُها عن الحـاج كـرم، لم يكن السؤال طبعًا عن الحـال والصحة، فالرجل كان معي حتى الساعة الثالثة عصرًا، كنت أودُّ معرفةَ المزيد أو فَكَّ طِلَّسْمِ

من طلاسم اللحظة التي كنا فيها، وهي تهز رأسها برضًى:

- بابا.. هو فيه حد في الدنيا دي زيّ بابا.

لم يخرج من شفتيها بعد ذلك سوى القليل، ولا انتظرت لتسمع مني ما يمكن أن أفعله بشأن حسام، أشارت لي برغبتها في الانصراف وخلّفتني واقفًا بإيماءةٍ سريعة.

قدماها تغوصان في رمل الشاطئ ومع كل خطوة تخلصهما بصعوبة، والخطو ليس خطو بنت في العشرين أو حتى في الأربعين، ولو أن أمَّها الست ماري بشحمها ولحمها هي التي تسير لكانت أنشط منها؛ الأحاسيس السلبية كسرت قلبها وكأنما نقص حجمها بعض الشيء، وعندما تجاوزت الرمال وصعدت إلى الطريق الأسفلت التفتت إليَّ، كنت لا أزال واقفًا في مكاني، أشارت لي بيدها مودعة، أشارت مرتين وببعض الحماسة وأنا أؤوِّل هذا على أنه نوع من الترضية لجفائها معي أو ربما تستحثُّني على الاهتمام بموضوع حسام، كان وداعًا بالفعل وإن لم تقصد، فقد شاءت الظروف أن تكون هذه المرة هي المرة الأخيرة التي ألقاها فيها.

وانتابتني مشاعرُ لا علاقةَ لها ببعضها البعض، شفقة من ناحية، وربما هي المشاعر الغالبة، ودهشة لبعض تصرفاتها وردود أفعالها من ناحيةٍ ثانية، وساورني إحساسٌ بأنها تخفي شيئًا وكادت أن تبوح به ثم أحجمت، ورغم هذه الضبابية لم أُقصِّر معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قمت بعدة زيارات ورجاءات لكبارٍ في الجيش ولا مُحصِّلة..

يقبضون على سماعات الهواتف التي أمامهم ويسألون، ثم يعودون لي بنفس العبارة: إلى الآن هو في عِدَاد المفقودين ولا معلومات لدينا سوى ذلك، فبرق في خاطري الاستعانة بالنقيب صفوت فلا يزال في معسكره بمنطقة (الجبَّانة) هو وكتيبته، حكيتُ له كل ما عندي والألم الذي تعيش فيه نادية، الرجل شهم ويعرف حسام معرفة جيدة، تجاوب وأفهمني بأنه لا نتائج الآن ولا بعد أشهر مع الأساليب الرسمية، فلن يقولوا شيئًا إلا بعد أن يتأكدوا وهذا طريق طويل، مراسلات واستفهامات ومتابعات مع الصليب الدولي..

وكَمَنْ راودته فكرة:

- لكن أنا في دماغي...

ويسرحُ لحظةً بعينيه:

- بس دي فكرة مجنونة ويمكن توقّعني في سين وجيم.

وأتطلعُ إليه وهو يعاودُ الكلام:

- مفيش غير ابن العفريتة مرسال..

وأحاول الاستفهام إلا أنه يدَعُني ويكلف أحد الجنود بأن يأتي له بمرسال حالًا، ودقائق وأتوا به في زفَّة صغيرة، ثلاثة جنود يحيطون به ومنهم من يشدُّه من عروة السُّتْرَة أو يدفعُه من ظهره ويتضاحكون وهو يرد عليهم بالزغد فيهم هو الآخر، كان المشهد أشبه بمشاكسة ومزاح، وبقايا رغوة صابون الحلاقة ما تزال على وجنتيه وهو نفسه ملخوم في تثبيت (القايش) على بنطاله الميري، فضلًا عن أن تكوينه البدني كان ناقصًا في كل شيء وأشبه بالمساخيط التي نراها في أفلام الكارتون، وأول ما وقف أمامنا أدَّى التحية العسكرية للنقيب صفوت ثم رمقني قائلًا:

- الجدع ده أنا شفته قبل كده..

ويُدقِّقُ في ملامحِ وجهي:

- فين؟ فين؟ أيوه.. الچيانولا.

والنقيب صفوت باستياء:

- اتكلم بأدب يا أومباشي مرسال وإلا هَكَدَّرك.

وأنا أبتسمُ معجبًا بنصاحته وذاكرته المتينة، فاليوم الذي لمحني فيه كان من مدة طويلة، ومجرد نظرة خاطفة لشخص جالس في مكان عام بين عشرات الناس، وبدأ النقيب صفوت بسؤاله عن الضابط حسام، هل يعرفه؟

- إلَّا أعرفه، وخدمت معاه كمان في (الدفرسوار) و(كبريت) وعَدّينا أنا وهو مرتين في حرب الاستنزاف.

- طب اسمع بقى يا أومباشي مرسال..

وأخذ يقصُّ عليه ما سمعه مني فضلًا عمَّا يعرفه من الأساس، وأن حسامًا قائده السابق ورفيق السلاح انقطعت أخباره وفي عِدَاد المفقودين الآن، وأنا عيناي مع الانفعالات التي تلوحُ على وجه مرسال، فلم يكُنْ يتكلم كان في حالة تأثر شديدة، وانفعالات وجهه كما لو أنها انفعالات الإنسان الأول الذي لم يعرف اللغة بعد أو تعلم النطق، وهي وسيلته الوحيدة للتعبير وتبادل الأفكار..

تعبيرات خام، وافية صريحة، وتعطي أثرها بالقدر ذاته الذي يعطيه الكلام، فالألم كان يبدو بانخفاض جَفْن، ارتباك في حركة الأصابع، خفوت لضيّ العين مع قول النقيب صفوت:

- ولو لا قدَّر الله جرالُه حاجة، يرضيك يا أومباشي إن جتته تترمي في الصحرا وتنهش فيها الكلاب؟

وسَرْعانَ ما يتبدلُ الحزن بغضبٍ وحماسةٍ تلوحُ على الوجه ومعها قلقلةٌ للأقدام وكَـزٌّ للأسنان، وكل هذه المفردات تقول إنه قادر على الفعل والثأر واستخدام مهاراته الموروثة من كَـرٍّ وفَـرٍّ ونصاحة ولَوَع للوصول إلى مبتغاة.

وعندما فرغ النقيب صفوت من حديثه سأله بتحسس وعلى سبيل جَسِّ النبض:

- إيه رأيك بقى يا شيخ العرب، نتصرفوا إزاي في المغرز ده؟

ويبدو أن كلمة (شيخ العرب) هذه لمست منطقة حساسة في صدره، واعتبرتها فطرتُه البدوية طلبًا للنجدة من ملهوف، والنجدة هي أول الخصال عند هذه التركيبة الإنسانية المُحيِّرة، فمن جرَّاء كلمة أو انفعال بسيط يرتكبون جريمة نكراء، وبسبب الكلمة أيضًا يضحون ولو بحياتهم عند الاستغاثة.

قال باندفاعٍ ودون ثانيةٍ للتفكير:

- رقبتي سـدَّادة يا سيادة النقيب.

- صحيح..؟

فطرق على عنقه معيدًا التأكيد..

- وهتعدِّي منين؟

- من عند (البَلَّاح)[16] ، بس أعرف الأول السكَّة اللي راح منها النقيب حسام هو وزمايله؟

- كل دا هتعرفه..

ويتأنى النقيب صفوت لحظةً ويقول له:

- وطبعًا إنت عارف إن غيابك عن الكتيبة هيبقى مسئولية عليَّا، وأنا لولا..

ولا يُتمُّ بقيةَ العبارة، يتوقَّفُ ناظرًا في عينيه، ومرسال بانفعال:

- إحنا رجَّالة يا سيادة النقيب، وعمرنا ما نسبب أذى للي وقع في عرضنا ولو حزُّوا رقبتنا بالسيف.

فبدتِ الراحةُ على وجه النقيب صفوت وعليَّ أنا الآخر، وإن كنت قد لمحتُ خطفةَ ضجرٍ على وجه صفوت، فكما لو أن عبارة (للي وقع في عرضنا) ضايقتهُ بعضَ الشيء، خدشت الخط الفاصل لعلاقة ضابط بأومباشي تحت إمرته، غير أنه مرَّرها ولعله قال في نفسه: هو يقدم روحه وأنا أتململ من تفاهة! وربَّت على كتفه قائلًا:

- يعني..

- آه يعني لو وقعت الفاس في الراس هقول إني أنا اللي هربت من الكتيبة.

والنقيب صفوت مؤكدًا بسبَّابته:

- يبقى اتفقنا وخلِّي بالك من أول يوم هبلَّغ إنك فرار.

- فرار فرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

وطال غياب مرسال إلى ما يزيد على عشرة أيام..

وأنا والنقيب صفوت في حالة ترقُّب، وعندما هاتفَنِي اليومَ وأبلغني برجوعه تركتُ ما في يدي وطرتُ إليه..

- البقاء لله..!

قالها صفوت بوجهٍ ساكن، فهذه الفئة من الناس وتحديدًا في زمن الحرب فعل الموت بالنسبة إليهم ليست له الرهبة ولا الجزع الذي عندنا، أمر تعودوا عليه، لا شَكَّ في أنه كان متألمًا، رفيقه ورفيق السلاح، غير أنِّي لم أرَ هذا الألم، أحسستُ فقط بالقلق الذي كان فيه عندما بدَتْ عليه الراحةُ وهو يقول:

- أنا كان كل خوفي إنه ميتبهدلش، لكن الحمد لله.

ويهز رأسه بارتياح:

- الجماعة العُرْبان اللي تاووه قاموا بالواجب، ربنا يبارك لهم دفنوه بما يُرضي الله وحريمهم دمعت عليه..

ونشرع أنا وهو في قراءة الفاتحة، ليُفاجئني بعدها:

- هو حسام كان متجوِّز؟

وأنا بدهشة:

- متجوِّز! لا لا ما أظُنِّش، دي نادية حب حياته.

فأردف وهو يُخرج خطابًا من سُتْرته ويُقدِّمه لي:

- مانا قصدي على نادية، همَّا كانوا متجوزين في السر؟

- في السر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطاب مغلق بإحكام، وآثار كرمشة وثنيات في الأطراف وشيء من بقايا عرق الأيادي التي تداولته..

ويؤكد ما يقوله النقيب صفوت، فعلى الظَّرْف من الخارج هذه العبارة: إلى زوجتي نادية المحترمة بنت الناس، وحول كلمة (المحترمة) دائرة بنفس

اللون وكأنما يؤكد بها المعنى الذي يقصده، وفي موضع غلق الخطاب من الخلف بصمة لإصبع الإبهام، بصمة كاملة بخطوطها وثناياها وتعرُّجاتها، أكيد بصمته، وطبعًا ليست بالأحبار دكناء الزُّرْقة الخاصة بالخَتَّامات، فمن أين له بها في هذا المكان الذي كان فيه؟

كانت وعلى ما خمَّنا أنا وصفوت من السوائل والعصارات اللَّزِجة التي توجد ببعض نباتات الصحراء وتؤدي نفس الغرض أو ما يقرب منه، وقلنا أيضًا إنه ربما كان يقصد بهذه البصمة ألَّا يفضَّ الخطاب سواها، أو لعلَّه شعر بدُنُوِّ الأجَل وحرص على أن يرسل لها شيئًا من ذاته ومن الأرض التي مات فيها..

لعلَّهُ.. ربَّما.. كأنَّما..

كُلُّ هذا مجرد تخمينات خمَّنَّاها أنا وهو من فرط إحساسنا بتعلُّقه بنادية، وقدم لي صفوت أيضًا مع الخطاب دبلةً من الذهب محفور بباطنها اسمُ نادية والتاريخ: 15 أغسطس 1973، وهو التاريخ الذي تلا - وبعدة أيام – زيارتي للست ماري في بيتها لإقناعها بقبول حسام زوجًا لابنتها وهي ترفض، هذا ما قالته لي الذاكرة لحظتها، فلم يكن الأمر تخمينًا هذه المرة.

وأبلغني كذلك بأن ثمَّة خطابًا آخر موجهًا لوالده وبعض المُتعلّقات: ساعته والنظارة الشمسية ورُتبته العسكرية، وقد سلمها إلى المسئولين أما الدبلة والخطاب فاستبقاهما لنادية، فالإنسانية والمشاعر أقوى من القانون والتعليمات في الوضع الذي نحن فيه.

وعندما سألتُه عن بعض التفصيلات أفادني بأن ليس عنده الكثير، وكل شيء سوف يُعرف عندما يُطلق سراح مرسال من التحفُّظ المفروض عليه، لكنه – وبإيجاز – خطف منه بعض المعلومات، فقد أُصيب حسام وأحد رفاقه إصابةً شديدةً أما ثالثهما فاستُشهد، وَارَيَاهُ بثيابه ودمائه ومتاعه في حفرة هناك وأهالوا عليه التراب مع علامة ترشد للمكان، إذ كانا يتعشَّمان في الحياة رغم ما بهما من جراح بالغة وفي ظنِّهما أنهما سوف يدلان عليها قواتنا التي ما تزال على مسافة بعيدة منهما، هذا ما استنتجه مرسال وقاله للنقيب صفوت، وأضاف بأنهما ظلَّا يزحفان ويتخفَّيان حتى وصلا إلى جمع من العُرْبان يستوطن بقعة قريبة، بقيا عندهم قرابة خمسة أيام والإصابات لَا علاج لها إلى أن مات زميل حسام ثم حسام بعده بيومين، فدفنوهما واحتفظوا بمتعلقاتهما إلى أن وصل مرسال..

وقد سألهم أن يسمحوا له بحمل الجثتين أو جثة حسام على الأقل والعودة بها، دفقة مشاعر مجنونة اجتاحته في تلك اللحظة كما قال، غير أن الشّيبَة (داعس) شيخ هؤلاء العربان رفض، ونهره قائلًا:

- إيش تقول! الله يخزيك! هاذول ما في حكم يمينك ولا يميني ولا يمين أي إنسان، هاذول في كفِّ الله الآن يا ولدي.

ولما عاوَد الإلحاحَ زاد غضبُ الشيخ وصفعَهُ على وجهه بمنشَّة الذباب التي بيده..

وأسأل صفوت عن حال مرسال، فيقول إنه بخير وما فيه الآن مجرد إجراءات وروتين.

- يعني..

- طبعًا طبعًا، هُمَّا مقدَّرين العمل الكبير اللي عمله وأكيد هيترقَّى أو ياخد نيشان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تبارح الدِّبلَةُ ولا الخطابُ جيب سُتْرتِي لأكثرَ من ستة أيام..

يومان منها كان الحاج كرم فيهما معي بمقرِّ شرطة النجدة نأخذ ونعطي ونثرثر، وهو لا يعلمُ بالجديد الذي حدث وأن بيدي خطابًا سوف يقلب حاله وحال بيته رأسًا على عَقِب، فهذا ما ظننتُه ساعتَها، وكنتُ أبحثُ عن حيلةٍ تُمكِّنني من تسليمه لنادية بعيدًا عنه وعن الست ماري؛ خاصة بعد أن ذهبت إلى تودري لأسأله عنها ولم أصل لنتيجة..

قال بأسفٍ:

- لا خبيبي مِسْ سُفْتُه من ساعة آخر مرة..

وبقلقٍ سألني عن حسام، هل من أخبار جديدة؟ ولثقتي به ولعلاقة المَودَّة التي تربطه بحسام انتحيتُ به وأبلغتُه بما عندي، وهو يُحدِّق فيَّ ويستندُ بظهره لحائط المقهى:

- بتقولي مات في خَرْب! لا خولَ ولا كوة إلا بالله، دي واخد خسارة كبير..!

وتطفرُ دمعةٌ من عينيه، ثم الثانية، وفي اللحظة نفسها تصلنا ضحكةٌ عالية، شيءٌ أشبهُ بالقهقهة، اثنان يجلسان إلى إحدى الموائد أحدهما بسوالف طويلة وعلى رأسه قُبَّعة من الخوص والآخر بقميص على صدره رسم لببغاء بمنقار مَعْقُوص، وذو السوالف بعد أن خرجت منه القهقهة التي سمعناها قال لصاحبه بفخر:

- لا وإيه! فضلت وراها لحد ماجبتها الأرض، إنت فاكرني بَلّعَب يا يسري دا أنا جامد واللي أحطّ عيني عليها قول عليها يا رحمن يا رحيم..

وهذا اليسري وبانسجام:

- براوة عليك! آهو دا الشغل..

ويعاودان الضحك وأنا وتودري نركز فيهما، ثم يجففُ هو دمعه قائلًا:

- دنيا مس مخترم! معندوس ضمير! نفر جميل يروخ في خرب وناس ملوس لزوم إعمل وساخات وإضخك كركر..

ونسمع صوتًا عاليًا يأتي من داخل المقهى، (حسَّان) الجرسون النوبي العجوز ينادي على تودري بغضب وأن يأتي له حالًا، وتودري يُسأسئُ ويشيح بيده:

-عايزة إيه يا جحشة إنتي كمان..؟

وانقطع الحاج كرم عن الحضور للعمل..

وعلى غير المتَّبع لم يرسل لنا طلبًا بإجازة أو هاتَفَنا بالتليفون، طال غيابُه لما يقرب من خمسة أيام، وكان قائدنا جلال بك بإجازة بالإسكندرية وأنا أقرب الموجودين له فقمتُ بزيارته، وقلت في نفسي لعلَّها فرصةً فقد أنفرد بنادية وأسلمها الأمانة التي معي، وكانت المفاجأة أن كل البيت يعرفُ بموتِ حسام وبما جرى بينه وبين نادية، وملعون الهَمّ والغَمّ والنكد، أشياءً عكرة وريحها ثقيل..

وليس على أهل البيت وحدهم، الجماد أيضًا كما لو أنه يحزن، فأول ما ولجت من باب البيت غمرني هذا الإحساس وأن اللحظة التي فيها مفردات البيت لحظة مواجع، فالستارة التي تحيط بالنافذة وأطرافها مُشْرعةٌ على الدوام أُغلقت ولا هواء ولا ضوء ولا صخب الشارع، فكل ما يُشعرنا بأننا من أهل الدنيا لم يعُدْ مسموحًا له بالدخول، واللمبات الثلاث المتدلية من ثُرَيَّا بالسقف ضوؤها شحيحٌ لا يكفي أو هكذا كان الانطباع، والصور المعلقة على الجدران ترمقُنا بحزنٍ أو على الأقل باستفسار، والست ماري على الأريكة وما ترتديه أسود في أسود من العنق حتى تدويرة الذيل، وبصوتٍ واهنٍ رحَّب بي الحاج كرم ودعاني للدخول..

جلست قُبالَتها، في نفس الموضع الذي جلستُ فيه يوم أن تجادلنا أنا وهي بشأن حسام وهي شديدة في كلامها وأنا الآخر ردود أفعالي شديدة، وقبلها يومَ أن كنا نُحدِّق في بعضنا البعض خلسةً وأنا لا أُعجبها وهي لا تُعجبني، أما

في هذه اللحظة فكنا ضعفاء، وجهها مهزوم وأنا الآخر بل وربما حدث بيننا بعض التعاطف..

قالت وأنا أهمُّ بالجلوس:

- اتفضل ارتاح يابْنِي.

قالتها بصوتٍ ما بين الحزن والترحيب، وكأنما شعرَتْ باندهاشي بهذا الأسود في أسود الذي ترتديه، فأردفَتْ بصوتٍ يكاد يُسمع:

- مش جوز بنتي! طبيعي ألبس الأسود وأحزن عليه..

ورتَّبت على كتفي وتركتني مع الحاج كرم، وكنت أسمعُ سعلاتٍ آتيةً من الداخل من قبل حتى أن تقوم وتتركنا، سعلات نادية ولا شك..

من الصعب الاستفسار..

فلا الظرف مناسب ولا أظن أن الحاج كرم في حال يسمح له بالكلام..

وإن كنتَ قد فهمتُ من تعبيراتِ وجههِ والقليل الذي تكلمناه، أن هذه الزِّيجَة لم تحدث من وراء ظهره، الست ماري هي التي كانت تجهل، علمَتْ بعد أن وصل خبرُ استشهادِ حسام، وكان الموتُ أقوى منها، فعلَى مَنْ تثور؟

على شهيدٍ عند الله! أم على ابنةٍ انقصمَ ظهرُها..

تقبَّلت..

ومددتُ له يدي بالخطاب والدبلة، فتأملهما وقال:

- تحب..

ففهمتُ أنه يسأل عمَّا إذا كنت أرغبُ في رؤيةِ نادية وتسليمها ما معي بنفسي، وكنتُ أرغبُ غير أنِّي أجبتُه بأسَى:

- خلِّيها مرتاحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- لقمة العيش: مجموعة قصصية/الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994/الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005/الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011/وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.

- المسْلم اليهُودي: رواية/ الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004/الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009/الطبعة الثالثة، دار العين، سنة 2020/ الطبعة الرابعة، دار العين، سنة 2021/ وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

- أيام الشتات: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008/الطبعة الثانية، دار العين، سنة 2021/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- أحلام العودة: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012/الطبعة الثانية، دار العين، سنة 2021/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

- المليجي: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2014/ الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، سنة 2021.

- أيام لا تُنسى: رواية/الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2018.

- قهوة حبشي: رواية/ الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2019.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.

- النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

- اللذة والمتعة/قرأة في سرد كمال رُحيَّم، دراسة نقدية للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.

- تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيَّم (روايات أيام الشتات وأحلام العودة والمليجي نموذجًا): رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى/فلسطين/سنة 2016.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء..

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24
25
26
27
28
29
صدر للمؤلف
الفهرس..

Notes

[←1]

مبادرة أطلقتها الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1970 على لسان وزير خارجيتها آنذاك (وليام روجرز)؛ لوقف إطلاق النار على ضفة القناة بين القوات المصرية والعدو الإسرائيلي تمهيدًا لحل هذا النزاع المسلح حلًّا سلميًّا، غير أن هذه المبادرة لم يُكتب لها النجاح.

[2←] *(حسين كامل) سلطان مصر في الفترة من 19 ديسمبر 1914 إلى 9 أكتوبر 1917.*

وتحديدًا سنة 1941. [←3]

[4←] *كلمة شائعة في بورسعيد، وهي المرادف لكلمة (غُرْزَة) التي تَرِدُ على ألسنة العامَّة في كل مصر.*

[←5]

وإن كان هذا المسمى (مقهى) أو (قهوة) حسبما يقول العامة لم يكن دارجًا ببورسعيد في الزمن الذي أتحدث عنه، كانوا يستعيضون عنه بكلمة (بورصة) فيُقال بورصة السلكاوي أو الفلاح أو غير ذلك من الأسماء، وهذه الكلمة مستعارة من الكلمة الفرنسية (Bource)؛= =أي السوق الذي يلتقي فيه البائعون والمشترون لإجراء الصفقات، فالمقاهي في أول نشأتها ببورسعيد لم تكن مجرد أماكن للتسلية وتضييع الوقت وتناول المشروبات، بل وقبل ذلك محـلٌ للتعاملات التجارية حيث كان يرتادها كبار البمبوطيَّة والعاملون بالوكالات أو تجار نصف الجملة، ومن يأتون من دمياط والمَنْزلَة والبلاد المجاورة بغرض التجارة، وتدور بينهم المساومات والتفاهمات وعقد الصفقات.

[←6]

نظام قديم من أنظمة الشرطة أُلغي في ستينيات القرن الماضي، والمُعيَّنون في إطاره أو المنتسبون له بمعنى آخر يكونون في درجات أدنى من درجات الضباط، ويظلون هكذا إلى أن يُرقَّوا في ختام حياتهم الوظيفية إلى رتبة الملازم، ثم يتدرجون حتى رتبة الرائد والتي هي آخر المطاف بالنسبة لهم.

[←7]

مُسمًّى وظيفي من المسميات القديمة للشرطة، كانت لصاحبه سلطات واسعة في مجال الأمن أو على القائمين به، اندثر هذا المسمى الآن.

[←8]

الكازا دي إيتالي أو البيت الثقافي الإيطالي، هو أحد الآثار المهمة للجالية الإيطالية التي دام وجودها ببورسعيد تسع عقود وتجاوز عددها الثلاثين ألف شخص، وقد أسهمت في حفر قناة السويس وتحويل بورسعيد إلى ميناء عالمي وجعلها مدينة ذات سمات أوروبية، ومن ضمن ما أنشأته هذه الجالية هذه الكازا في ثلاثينيات القرن الماضي بتقاطعَيْ شارع ممفيس وفلسطين بدائرة حي الإفرنج، والتي ضمت بين جوانبها دارًا للعرض السينمائي ومسرحًا ومكتبةً ضخمةً كانت هدفًا للمثقفين والفنانين من أبناء بورسعيد حتى منتصف الستينيات، ليصيبها الركود والإهمال بعد هذا التاريخ وإلى الآن.

[←9]

سورة الطور، الآية: 48.

[←10]

أو وفقًا لاسمه الفرنسي السابق: چوزيف أنتيلمي سيف، وقد وُلِد بمدينة ليون بفرنسا والوفاة بالقاهرة في 12 مارس 1860، حيث دُفن بها بضريح أُقيم له خِصِّيصًا بمنطقة (مصر القديمة) بالقاهرة.

[←11]

البابا كيرلُّس السادس بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في الفترة من 10 مايو 1959 إلى 9 مارس 1971، وقد تمتَّع قداستُه بمحبة كل المصريين – المسلم وغير المسلم – لما سمعوه عن طيبته واتساع قلبه للجميع والكرامات التي كانت تُنسب إليه.

[←12]

(1971م - 2012م)، وهو أحد الباباوات الكبار ورمز من رموز الوطنية المصرية.

[←13]

الرواية الأشهر والأهم للروائي الأمريكي الفَذّ إرنست هيمنجواي.

أو الجندوفلي بلهجة أهل الإسكندرية وأغلب الناس. [←14]

[←15]

المزْغَل في الاستخدام العسكري عبارة عن فتحة صغيرة في نقطة دفاعية حصينة، تخرج منها ماسورة مدفع تطلق أعيرة نارية كثيفة لحصد وقتل المهاجمين، وقد أثبتت تجارب الحروب أنه يصعُب إسكات النيران الخارجة من أي مزغل إلا بقذائف مصممة خصِّيصًا للمواقع الحصينة، أو بأعمال فردية خارقة للعادة مثلما فعل هذا الفتى.

[←16]

تجمُّع سكاني بجنوب بورسعيد يُحاذي مجرى قناة السويس.